

جائزة الشارقة للإبداع العربي | الإصدار الأول | الدورة 20 | 2016

الأكسجين ليس للموتى

مكتبة

رواية

الشهيدة
هبة كمال أبو ندى

دائرة الثقافة الشارقة

هبة كمال أبوندى

ارتقت الكاتبة شهيدة
في الحرب على غزة 2023
كانت تنتظر وصول
الطبعة الثانية لروايتها من الكويت

الأكسجينُ ليسَ للموتى

رواية



إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2017 م

الأكسجينُ ليسَ للموتى

لن ننسى تشرين . 23

لن ننسى غزة والشهداء



الناشر: دائرة الثقافة ـ حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 5123333 9716+
براق: 5123303 9716+
بريد إليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

الطبعة الأولى 2017

تصميم الغلاف: ضياء الدين الدوش

813.03
أ هـ أ
أبوندى، هبة كمال صالح
الأكسجين ليس للموتى: رواية / هبة كمال صالح أبوندي . ـ الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: دائرة الثقافة، 2017.
300 ص. ؛ 21x14 سم.
الفائزة بالمركز الثاني بجائزة الشارقة للإبداع العربي ـ الإصدار الأول ـ في مجال الرواية، 2016 ـ 2017
ردمك: 5 ـ 314 ـ 23 ـ 9948 ـ 978
1 ـ القصص العربية
2 ـ القصص العربية ـ فلسطين
أ ـ جائزة الشارقه للإبداع العربي (20: 2017)
ب ـ العنوان

رصاصة نظيفة، وورَقة بيضاء مكتوبٌ عليها بالحبر الأحمر،

هذا ما تعثَّرَ بهِ نهارُ وزيرِ الدَّاخلية عِندما دَخلَ إلى مكتبه الحصين!

رفعَ الورقة، وقرأَها

«انزعوا مخالبَكم من لحمنا، ارفعوا أيديكم عن قمحنا،

أطلقوا سراحَ أجنحَتِنا

لا تحاولوا إيقاف هذهِ الثورة، يمكنُنا الوصول إليكم في قُراكُمُ المحصَّنة، أَنتُم محاطونَ

بجثَثِنا، وعيونِنا، وأحلامِنا، وثورَتِنا»

ضَغطَ وزيرُ الدَّاخليَّةِ الورقةَ في يدهِ، وتلفَّتَ خلفهُ بخوف!

الأكسجين ليسَ للموتى!

نَظرتُ إليَّ، حملقتُ فيَّ طويلاً،
انعكستُ على نفسي، وتجسّدتُ أمامي

ووقفتُ في مواجهتي،

ناديتُ عليَّ، فلمْ أردّ! صرختُ
عليَّ فلمْ أتحركْ، هزَزْتُني، فلمْ أعِرْني

انتباهاً، سقطَ ظلّي عليَّ، تمدّد السوادُ، وأنا أستنجدُ بِي،

وأمدُّ يدي إليَّ، فلا ألتَقِطُها،

حاولتُ الخروجَ منّي، فتابعتُ الغرقَ فيَّ!

حاولتُ التمَسُّكَ بي، فانْفلتُّ منّي!

تَنفَّستُني، فاختنقتُ بي!!

سألتُني:

مَنْ أنَا؟

فَلَمْ أُجبني!!

[صفر]

- آدم -



أَنا لستُ وحدي هُنا! وعِندما أقولُ هُنا أقصدُ بذلك هذا الجسد البشري الذي يبدأُ من المضخة الحمراء في أعلى اليسار، ويتفرَّعُ منها حتَّى يصلَ إلى الأيدي والأقدام، وفي الأعلى هُناك حيثُ غرفة التحكم، التي يسمونها العقل.

أنا وكلُّ هؤلاء محبوسون في هذهِ التحفة المعمارية الحية، أشعر بهم داخِلي، أنفاسُهم تنحشرُ في رئتيَّ، سعالُهم يملأُ رأسي بالضجيجِ والرذاذ، وشوشاتُهم تعبثُ بممراتيَ السمعية، صراخُهم يطرقُ جدرانَ أذنيَّ، ورائحةُ عرقِهم تتسربُ من مساماتِ جلدي، لم أعد احتملهم!

أصبحَ المكان ضيقاً جداً علينا، «هُنا» لم تعد تتسع لأحد بعد اليوم، أريدُ الخروجَ منِّي، إلى مكانٍ أكثر راحة، واتساعاً.

أنا! وأقصدُ بأنا، ذلكَ الذي يعترضُ طريقي كلَّما أردتُ العبورَ إلى المرآة، هذا «الأنا» هوَ شــيء أكبر بكثيرٍ من هذهِ البدلة، والسـيارة، وأهم بكثير من بطاقة هوية، ورقم منزل، وبطاقة التأمين الصحي!!

«إنَّهُ حلم لم تتسعْ لهُ اليقظة، ووطن لم تحتضنهُ الحدود الجغرافية، وقصيدة لا تكفيها غاباتُ الأمازونِ لو حوِّلت أوراقاً، وأقلاماً!

إنَّهُ إنسان لم يحصل على إنسانيته بعد!!»

هكذا قالَ أحدُ الشـعراء، أنا لم أصدِّقهُ وقتها، لأنني كنت مجموعة مــن الإبر المهدئة، والوصفــات الطبية، حتَّى الأطبـاء كانوا يقولون عنِّي المريض رقم «كذا»!!

فــي الحقيقــة لا أذكرُ الآن رقمي بالتحديـد، ولا أريد أن أذكرَ رقمَ غرفتي، ولا أي شـيء يَنسـبُني إلى كوني رقماً، أريـدُ فقط أن أكون آدم، الذي سيصبحُ شيئاً عظيماً، لقدْ ولدتُ بطلاً، لطالما قالَ لي والدي ذلك! ووالدتي قالتها أحياناً، وأختي كتبتها ذات يوم على لافتة في عيدِ ميلادي، ولكنَّ زوجتي هيَ الوحيدة التي صدَّقتها!

ولكنَّها.....!

حسـناً، ربَّما سأبدأ من البداية، ليست البداية الفعلية، لأنَّ البداية لا تكــون إلَّا مرحلـــة لاحقة لنهايةٍ ما، لا يمكن لقصـــة أن تبدأ من العدم، دائماً توجد قصة ســابقة لها بدأتْ في زمنٍ ما، وانتهت في زمنٍ آخر، نتجَت عنها هذهِ البداية، فالربيع لا يبدأ إلا بانسلاخ الشتاء، والنهار لا ينبلج إلا بانكماش الليل، والحكايات التي نقرؤُها في كل العصور، تبدأُ دائماً من هذهِ النقطة الزمنية.

ومن الكلاسيكي أن يولدَ البطل في لحظة البداية لتبدأ معهُ الدراما وتكبر، حتَّى تنتهي وتنتهي معها كينونتهُ البطولية، ولكن ماذا لو ولدَ البطل في تلك اللحظة الضبابية التي يجتمع فيها النقيضان، تلك التي يتداخل فيها الليل والنهار، الأول في رمقهِ الأخير، والثاني في شهيقه الأول.

تلك المرحلة البرزخية، التي يتداخل فيها الأبيض والأسود، فيُخلِّفانَ وراءهما درجات لانهائية من الرمادي، ذلك الفاصل الزمني الذي يستحيل فيه تمييز أحدهما من الآخر، عندها على البطل أن يكون شيئاً آخر غير سوبر مان، وغير روميو، وغير السندباد، عليهِ أن يكونَ نَفسهُ فقط، وأن يسبحَ في مُلابساتِ الحكاية، كما تسبح سمكة السالمون عائدة إلى موطنها عكس التيار، والخيارات التي تحدث لاحقاً، ما هيَ إلا تحصيل حاصل، فإمَّا أن يصل إلى الحقيقة، وإما أن يتوهَ عنها، وإمَّا أن يموتَ محاولاً الوصولِ إليها.

وفي النهاية أولئكَ الذينَ يقرؤون القصة، بعدَ عصور هم وحدهم الذينَ يمتلكونَ البصيرة الكافية، لمعرفة، البطل الحقيقي!

* * *

(1)

- البداية هي الكذبة الأولى للراوي -

لا يُمكنُني إلَّا أن أشـعرَ بالحر الشـديد، رغـم التكييف العالي في السـيارة، الحرارة تأتي من مجسَّاتِ القلق في جسمي، أردتُ أن ألقيَ هـذا الجاكيـت الثقيل عنِّي، ولكنَّه أحـد القوانين البديهيـة ليوم العمل الأول، تلـكَ القوانين التي لـم يضعها أحد ولكنَّ الجميع يُطبِّقها بالتزامٍ عالٍ، كأنها أحد بروتوكولات البشـرية منذُ الأزل، أسـتطيعُ أن أضمَّ الحـذاء اللامع، وربطة العنـق المدوزنة لأكثر من خمس مرَّات على المرآة، إلى هذا القانون أيضاً.

الشيءُ المختلف، هو Chnel No. 5، لقد وضعتُ الكثير منهُ بالذات على كُمِّ القميص، حتَّى أشـعرَ بالصداع كلَّما شـممته، رائحته الثقيلة تُشـعرُني بصداعٍ لذيذ، لأنهُ يقتحمُ مستقبلات الشَّم بِعنفٍ باذِخ، ويعودُ بي إلى ليلة الأمس، لاأزالُ أشـعرُ بخَدَرٍ لطيف، بينما تنبعثُ موسيقى

البارحةْ، منْ كلِّ حواسي، وتموجُ أفكاري في لَقَطاتِ الاحتفال، ببهجةٍ.

لَـم أفكِّر أبداً بـأنَّ الترقية حدثٌ مهمٌ، يلزمـه احتفال ضخم كالذي مَـرّ، ولكنَّها فاتن! إنها امرأة خـارج توقعاتي، وفوقَ كلِّ الاحتمالات الرياضية التي أبرعُ بها، لم تشـأ أن تمر المناسـبة بدون حَدَثٍ يعْلق بذاكرتـي إلى الأبَـد، ربَّما لا أتذكَّـرُ أغلبَ ما حـدثَ بالأمس، ولكنْ بالتأكيـد هُناك أشـياءُ لا يمكنُ أن تذوب بمجرد أن تغسـلَ وجهكَ في الصّباح بالماء والصابون!

بمناسبة الأشياء المهمَّة، أعتقد أنَّ فاتن لن تستطيعَ إزعاجي اليوم، ولو بنصف رنَّة مشاغبة فلقد نسيتُ هاتفي! أظنُّ أنَّ نسيانَ شيءٍ مهمّ، من قوانين اليوم الأول في العمَل أيضاً!

العمل؟ ها قد عاد الحرّ، وفقدَ العطر تأثيرَهُ السـحريَّ العجيب في حواسـي، مجرَّد التفكير في أنَّني سأعمل في مبنى المخابرات العامة، يَجعَلُني أسـتقطبُ الحرارة من حيثُ لا أدري، وأشـعرُ ببطني يتقلَّبُ برهبـة، ولا يَسَـعُني إلَّا أن أفرك يـديَّ بحماس كلَّما اقتربَ السـائقُ أكثر من المبنى! حيثُ يصبح الوصول أسرع، والأمعاء أكثر ارتباكاً، والتكييف أقلَّ فعالية!!

في الشـوارع المؤدية إلى شارع المخابرات تقل حركة السيارات العامة تدريجياً حتى تختفي تماماً، ويصبحُ الشـارع في عزِّ الظهيرة، كأفعـى طويلـة صامتة تلمعُ حراشـفها التي تُشـكِّلُها بحيـرات الماء السـراب التي تتراءى للناظـر إليها، ومن حولها يلتفُّ سـورُ المبنى العريض الضارب في لحم الأرض، الممتد في صدر السـماء، والذي

يتلوَّى حولَ المبنى كالمومياء وصولاً إلى بوابةٍ فولاذيةٍ، لا تفتحُ فكَّيْها إلا ببطاقــة عليها ختمٌ أحمــر، خرجَ من بينِ أصابــعِ وزير الداخلية، لأولئــكِ القلَّــةِ المختارينَ من الأجهزة الأمنيــة، يمكنني القول أن هذه الجدران تحتوي عصارة العصارة من رجالات الأمن في الدولة.

مــن الخارج يبدو المبنى كأهــرام الجيزة، صامتاً وجامداً، ومحكم الإغــلاق، من الداخل يبدو أكثر صمتــاً، وأكثرَ جموداً، النحل العامل هُنا يطنُّ ليلاً نهاراً في حركةٍ دائبة، لتسجيل حركة الكائنات الحية في الخارج.

المرَّةُ الأولى التــي زرتهُ فيها كنتُ معلَّقاً بيدِ والدي كحقيبة عمل، وأنظرُ للرجال الآليين بالبدل السود من خلفِ قدميه، كانَ من المفترض أن أعتني بالحديقة مع والدتي آنذاك، ولكنَّ الهاتف صرخَ فجأة وحينَ رفَعَتْــهُ ابتلعَ صوتها، وتركَ عينيها مشــرعتينِ كبُحيرتينِ من البلّور، ارتدت حريرها الليليَّ الخاص بالمناســبات الحزينة بســرعةٍ خاطفة، وحمَلتنا الســيارةُ إلى حيــثُ ترقدُ جثةُ جدي، وهُنــاكَ التَقَفَني والدي، أنهى طلبيَّتهُ العائليةَ السريعة من التعزية، وأخذني مضطراً إلى مبنى المخابرات، حيثُ تمَّ استدعاؤهُ على وجه السرعة، ظلَّت عينا والدتي حاضرتيــنِ كملاكينِ يطوفانِ حولي طوالَ النهار، كانت المرة الأولى التــي أخرجُ فيها مع والدي وحدنا، والمرّة الأولى التي أبتعدُ فيها عن أمــي، وكنتُ خائفاً من كل شــيءٍ تقريبــاً، حتَّى من هذا الــذي أتعلَّقُ بثيابه! والذي تفوحُ منه رائحةُ والدي!!

والمرَّةُ الثَّانية، اليوم!

أنا هُنا اليوم بصفتي رئيساً للوحدة الخاصة في المخابرات، طبيعة العمل ليست محددة! ولكنَّها تُعنَى بتلك الجرائم التي لا تريد الدولة أن يطَّلِعَ عليها أحد!! أن تبقى سـرَّية حتى تبدأ علاماتُ القيامة الكبرى، حيث يصبح من غير الفائدة معرفتها!

ولا أقصد بذلك القضايا نفسـها، بل نتائجها!! وملابسـتها التي قد تغير وجه التاريخ لو تم معرفتها.

بعدَ سـاعة تقريباً، هدأ محرك السيارة، أصبحَ صوتهُ شبيهاً بنباحِ كلبٍ عجوز، أخرجَ الضابطُ المسـؤول رأسـه، من الثكنة العسـكرية المصغـرة المقامة علـى البوابة، فانعكس وجهيَ القَلِـقُ على نظَّارته الشمسية، أخذ البطاقة إيَّاها، ورحَّبَ بي بحفاوة، فاتحاً ذراعي السور لنا.

«في أيَّامك الأولى، ستشعر بالبرد لأنَّ نظام التكييف لدينا متطور، فهوَ مصمم لحماية الأجهزة، والخادوم الرئيسـي من ارتفاع الحرارة، وهـوَ ككل شـيءٍ هُنـا يؤدي واجبه علـى أكمل وجه، فلـم يحدث أن تعرضـت الأجهزة للعطل مرة واحدة، ربَّما عليـكَ أنْ ترتدي جاكيتاً ثقيلاً حتَّى تعتادَ على الجوّ، أو يمكنك تقليل درجة التكييف في مكتبك، وأنا لا أفضّل ذلك! فقط تعوَّد على الأمر! سأكون بالمكتب المجاور».

الضابـط رامي قالَ لـي ذلك وهوَ يدلُّني على مكتبٍ واسـعٍ، أنيقِ الديكـور، تتوسـطه طاولة مسـتوردة عليهـا جهاز حاسـوب جديد، محمول حديـث، ورق أبيض، وعلى اليمين ثمَّة شاشـةُ بلازما تتكئُ على الحائط، يبدو أنَّها خرجت حديثاً من تغليفِها.

رامــي هوَ ضابط مخابرات قديم جداً، ربَّمــا بعمر والدي! ابتلعتهُ هذهِ الأســوار من زمن، إنَّه أكثر قدماً مــن بعض الغرف والجدران، طويل القامة، بطولي تقريباً أستطيع أن أنظرَ إلى عينيه بخط مستقيم، وشــعرُه فضيٌّ خفيفٌ يخفي جلدةَ رأســهِ بصعوبة، عيناهُ ضيقتانِ من الأطراف، واســعتانِ من الوســط، تســتقرَّانَ تحتَ هلالينِ نحيلينِ من الشــعرِ الأبيض، بهما انكســارٌ من الطرف، يوحيانِ لي أنَّهُ شخصية لوذعية حاذقة، لا يمكنني قراءتها بسهولة، وشفتاهُ رقيقتانِ مستقيمتانِ، بين الابتسام والعبوس! عِندما تفتحانِ تُخرجانِ صوتاً جَهْوَرياً، أقربَ إلى مذيعي النشرة الرئيسية.

إنَّهُ عرَّابُ المخابرات، لا يوجد لهُ منصب معين! وكما قيلَ لي أنَّ أولئكَ الذينَ ليسَ لهم منصب معين يكونون أكثرَ الناسَ أهمية! سيكونُ مستشــاراً لي، في البداية شــعرتُ بالإحراج منه كونه ســيعمل تحتَ إمرتــي وأنا بعمــر أبنائه، ولكنَّ التوصية التي جاءت باســمي دفعتهم لوضع شــخصية مهمــة مثله معي، هل يخافونَ منِّــي! كوني مريضاً سابقاً!!

فكَّــرتُ في ذلك طويــلاً وأَنَا أتأمَّلُ الملف الأصفــر الذي أعطانيهِ رامي، قالَ لي إنَّها قضية غير مهمة، وهيَ على وشك الانتهاء، ولكنَّهُ أحبَّ أن أطلَّعَ عليها، حتَّى أبدأ باستلام العمل بشكل رسمي، واستأذن بلباقة للذَّهاب إلى اجتماع عاجل مع وزير الداخلية، لوضع اللمســات الأخيرة على صاحب هذا الملف!

تمنَّيــتُ أن يقولَ لي إنَّنــي مدعو إلى هذا الاجتمــاع، رؤية وزير

الداخلية فرصة لا تفوَّت، ولكنَّهُ كانَ واضحاً عندما أشارَ أنَّ القضية غير مهمَّة بالنسبة لي!

ظلَّ الملف نائماً على المكتب لعدة ساعات، وظلَلتُ أُحملقُ فيهِ بقيةَ النهار، والساعة تسيرُ بَقرفٍ، إلى نهاية يومٍ صامتٍ، استغرقته بالجلوس في المكتب المُكيَّف... أكثر ما يُشعرُني بالانزعاج قضاء وقت العمل، دونَ عمل!، لو أنَّني في قسميَ القديم لأنجزتُ الآن الكثير، وربَّما أكثر ما يُضايِقُني هو جرعة التجاهل التي أشعرُ بطعمها مرَاً كلَّما ابتلعتُ ريقي، هل كانَ قراراً صائباً؟ الانتقال إلى المخابرات!!

حرَّكتُ المَلفَ بشكل دائري، عدة مرات، وتأفَّفت، أنا لا أريدُ العودة إلى الوراء، الماضي يشبهُ سلسلة التروس التي تدورَ حولَ نفسها ما إن أدخلَ في أحدها، حتى تُسلِّمَني للثانية، ولن أخرجَ منها إلا معجوناً كقطعة علكة، كلَّما تذكَّرتُ ذلك وَضعَتُ يدي على قلبي، هل يُحسُّ المَطعون في قلبه بهذا الألم؟ إنهُ يشبهُ الطعنة حقاً! لهذا أكره وقت الفراغ، وأكرهُ ساعات الحائط، إنَّها تذكرني بها!

لو كانت الذاكرة نزلة برد لارتديتُ معطفاً سميكاً، وتناولَتُ حبة دواء!

لو كانت موجة حرّ، لجلستُ تحت التكييف، وشربتُ بعض العصير المثلج!

لو كانت سرطاناً، لخضتُ عدة جلسات من العلاج الكيميائي!

لــو أنها كانت قاتلاً مأجوراً يُطاردُني، لنصبــتُ لهُ فخاً، وأودعتهُ رصاصةً في منتصفِ جمجمته.

ولكنها الذاكرة يا صديقي!! الذاكرة! إنها شــيءٌ لا يُمكنني الهربُ منه.

إنَّهــم يعتبرون فقدانَها مرضاً، وأنــا أعتبر بقاءَها إعداماً مع وقف التنفيذ!

حدَّثْتُ نفســي وضَحِكت، أشــعرُ برغبةٍ جارفةٍ في تكســير شيء، لإشغال عفاريت عقلي عما سيحدثُ الآن، كانت ستأتي صورتها على أيَّةِ حال!!

الدّمُ الذي يســيلُ كخيطٍ داكنٍ من طرفِ شــفتيها الباهتتين، عيناها اللتانِ تتوســدانِ راحتي ملاك، مِكيَاجُهــا الذائب، ويدها القابضة على تذكرة الذهاب إلى الآخرة!

كيــفَ انتهت بهذا الشــكل المأســاوي؟ كيفَ ذهبــت وأخذت قلبي معها؟! هل كنتُ قاتلها؟ ويحَ قلبي، مما جنتهُ يداي!!

عليَّ أن أخوضَ هذا الحوارَ كلَّما اختليتُ بنفسي.

لقد قالَ لي الطبيب النفســي، لم تقتلها! عليكَ أن تدركَ أنَّك لســتَ السبب في موتها....

كنــتُ أحتاجُ لســماعِ هذهِ الجملة في كلِّ جلســة، وأنســاها بمجرد أن أقوم عن كرســي الاعتراف، وأعودَ لأســمعها في الجلســة التالية

كأنَّها المرةُ الأولى، حتَّى تحولت لأرشـيفٍ شعوري مؤذٍ! وبعد أشهر قـررتُ أن أقدِّمَ طلبَ انتقال إلى المخابـرات، الانتقال إلى مكانٍ آخر سـيُغيرُ نفسيتي، عمل جديد! قضايا جديدة! شغفٌ جديدٌ، وهكذا أنسى مـا حصل، قلتُ للطبيـب، الذي ظلَّ صامتاً، ولم يقـل لي يومها أنَّني لستُ السبب في موتها!

فقـط أطلقَ سـراحي، بتوصية جيدة، وعلاج جديـد، وتقرير يُفيد بشفائي!

لقد علم أنَّ معاندتي لن تفيدَ شيئاً!!

وبعدهـا التقيـتُ بفاتن، متى كانـت تلكَ اللحظة التـي التقيتُ بها؟ المكان؟ الزمان؟ ما لونُ ثيابها؟ لا أتذكَّرُ تماماً، لقد كنتُ بحاجةٍ لأنثى قويـة تحلُّ محلَّ سـابقتها، ربَّمـا كانَ احتفالاً هادئاً، حيثُ الموسـيقى تتمختـرُ علـى أسـماع الحاضرين، وكـؤوس الشـراب تجلسُ على الطـاولات بأناقة، وأطبـاق الكافيـار الغافية فوقَ الشراشـف الحمر تبـدو جاهزة للالتهام، كانَ الاحتفال الأول الذي أحضرهُ بعد الحادثة، الاحتفالات أيضاً تذكرُني بها! وتشعرني بالدوار!

لـم أرغب في التحدث لأي شـخص، اكتفيتُ بالجلـوس في ركنٍ مهملٍ بجانب إحدى النوافذ التي تنقلُ لي بثاً مباشراً حياً لشاطئ البحر، والمياه ترفعُ فستانها إلى المنتصف ثمَّ تعيدُ إلقاءهُ على الرمال بدلال، الأزرق يدخلُ في الأرجواني في الذهبي، والشمس تختلس النظر من حافة الأفق على أنثى المياه التي تعبثُ بثيابها، فتبعثُ رائحة الملح في رِئَتِي المتعبَة، وتشـعِرُني أنَّ العالم من حولي يتجسَّسُ على أفكاري،

الألـوان تمتزج معاً في ثيـاب الحاضرين، وتدخل فـي بعضـها بينما يكركرون على نكتة قالها وزير العدل! دائماً ما كانَ يجيدُ إلقاء النكت، هل كانَ الاحتفال على شرفه؟

لا أذكر تماماً! ولكني مططتُ فَمي بابتسامةٍ ما، من بعيد لمنظرهم، وعدتُ لتأمُّل البحر من جديد بكآبة أرملة!

– «البحر يبدو جميلاً جداً، هذا المساء؟».

جميلاً؟ من قالَ ذلك؟ أدرتُ رأسـي كانت هيَ، أو أنها تشبهها في شيءٍ ما! نعم تلك كانت المرة الأولى التي التقي بها بفاتن..

– بل يبدو كئيباً، أجبتُها بقلّة ذوق متعمَّدة!

وقبـلَ أن تردَّ علي، سَـمعْتُ طرقاً ما! أينَ أنـا؟ نعم في المكتب، الملف المغلق أمامي، والسـاعة ترفعُ سـبَّابتها إلى الرقم ثلاثة والباب يُطرقُ مجدداً...

– تفضل!

دَلَفَ الضابط رامي بحياءٍ واضحٍ، ووقفَ بعيداً عنِّي، أوَّل ما وقعَ نظـره كانَ على عينيّ القادمتين من غيبوبةٍ طويلةٍ، ثمَّ الملف الأصفر المطبق الفكَّين!!

– ألم تقرأ الملف؟!

* * *

(2)
- بقايا السيجارة الأولى -

يا إلهي!! ما هذا!

طوّحـــتُ بالأوراقِ فـــي الهواءِ، ثمَّ أودعتهــا الطاولة بصفعةِ غلّ، أغلقتُ شاشـــةَ الحاســوب، وفَرَكْتُ عينيَّ طويلاً كأنَّ فيهما آثارَ رمل صحراوي، كنتُ قد أمضيتُ الأســبوع الفائت كله في هضمِ الأوراقِ المكتبيــة المملَّة، وقراءة تفاصيل مُخجلة عنْ أحد الشــباب الذي أُثيرَ حوله الإعلام أخيراً، بســبب نشــاطه السياســي الشــعبي الكبير، تلك المعلومــات وصَفـت حياتَه ثانيةً بثانيــة، ومليمتــر بمليمتر، بطريقة تعجز عنها أحدث الكاميراتِ، ممَّا جعلَ أمعائي متأهبةً للتقيؤ، وكأنني سأعيدُ ما قرأتهُ عبر فمي لحماً ودماً على الأرض، ربَّما بعض القهوة تغيِّرُ طعمَ فمي!! جاءتني بعدما طلبتها على وجه السرعة!

عِندمـــا قــالَ لي أحـــد الأصدقاء أن عمـــل المخابرات هـــو مراقبة الناس، ضَحِكتُ عليه وقلتُ ســـاخراً، إذاً ســـأصبحُ نمَّاماً، وآخذُ راتباً لذلك، وترقية أيضاً!

هَمهمـــتُ ســـاخراً من جملتي تلـــك، وابتلعْتُ نصـــفَ الفنجانِ مرةً واحدةً، لَسَـــعَتني ســـخونتها ومرارتها، فَشَـــعرتُ بالانتشاء لأول مرّة هنا......

في السابق كنتُ المفتش العام لأقسام الشرطة، لا يمرُّ أسبوعٌ دونَ أن أفاجئَ أحد الأقســـام بزيارة تفتيشـــية، فقد تعوَّدتُ أن أقودَ سيارتي الخاصـــة ببســـاطة، لأي طريقٍ عامٍ، ثمَّ أدخلَ فـــي أي طريقٍ فرعي، وهكذا حتى أصلَ لأقرب مركز شـــرطة، فأركنُ السيارة وأهبطُ منها بثقـــة، وبهـــذا يتفاجأ ضابط المركز أنَّني على رأســـه قبـــلَ أن يصفِّفَ شـــعره، ويخفي آخرَ ملفٍّ بينَ يديه، وبســـرعة أمسك أية أوراق على الطاولـــة أقرؤها بســـرعة دونَ أن أغيّرَ من ملامـــحِ وجهيَ المتصلِّبِ شـــيئاً، وهنا مكمن المتعة، أن أستشـــعرَ قلقَ الضابط، أســـمعَ ارتباكه كأنـــه مذياعٌ يبثُّ أخبارَ كارثةٍ طبيعية، وأبقـــى جامداً، ولا أعطيهِ أيَّ كلمةٍ من جسدي!

وبعدَ أن أُغلِقَ الملف، كنتُ أمرُّ بجولة فردية سريعة على السجناء، وفـــي النهاية أقـــفُ لدقيقة كاملة مع أحد الحـــراس، أتحدث معه قليلاً، وأدسُّ في يديه مبلغاًمن المال، ثمّ أقفزُ إلى ســـيارتي قبلَ أن تبردَ قهوة الضيافة فوقَ مكتب الضابط المسؤول.

وفي اليوم التالي يجد الضابط نفســـه، في مركز آخر أو أمام لجنة

تحقيـق، أو أنَّــه يتنفـس الصعداء، وهـوَ يمرر يديه علــى عنقه، لأنَّ الهاتف لم يأته بقرار ما من زيارة الأمس.

وهكـذا كانَ يقول الجميع، إنَّ مراكز الشــرطة في عهد آدم كانت كالساعة، تك تك!! الضابط يخاف على حرارة كرسيه تحته، الحيطان لها آذان وأعين، السجن للمجرمين فقط، وقد كنتُ سعيداً بذلك.

ولكن بعدما حصل، لم يسمحَ لي والدي بقيادة سيارتي وحدي، ولم تعد تشــغلني المصلحة العامة، ونظافة السجون، وشفافية العمل، كما في السَّابق أصبحتُ ضفدعاً كسولاً، يجيدُ النقيق وحسب، ولا يتحرَّكُ من مكانه.

وفي اللحظةِ التي تحركتُ فيها ابتعدتُ كثيراً، ربَّما عدة ســنوات، وفــي النهاية قررتُ الانتقال، وقد رحَّبَ وزيــر الداخلية بذلك كثيراً، عِندمــا دخلْـتُ عليه في مكتبه في الوزارة، هــشَّ وبشَّ في وجهي، – وهوَ الذي يضحكُ بالتقسـيط – ، نَظَــرَ إلى طلب النقل بعينه الثعلبية، ووقَّعهُ بِســرعة، كنتُ وقتها أنظرُ إلى الرقعة الســوداء التي تنامُ على عينه الثانية، بحزنٍ مشوبٍ بالفخر، كانت إصابة حربٍ سابقة!

أحد الأشــياء التي لا أســتطيعُ إخفاءهــا أبداً هي إعجابي الشــديد بشــخصية وزير الداخلية، ملامحه الأوروبية الثابتة، التي تلائمُ رجلاً عسكرياً من الطراز الرفيع، وصوته الذي يأتي من بيدرٍ بعيدٍ محمولاً على نســيمٍ دافئٍ، كلامه قليل وكأنه يخرجهُ من خزينة سرية، لم يكن يوماً رجلَ الخطابات، والاحتفالات!

انضباطه العالي أيضاً، كانَ يحملُ ســاعتين واحدة حولَ معصمه،

والثانيـــة في جيبـــه، وكانتا عالقتينِ معاً في نفـس الزمن، وفي النهاية الرقعة السـوداء على عينه اليسرى، وهي تتوارى بحياء تحت ستارة صغيـرة من الشـعر الأبيض الممتد حتـــى خلف أذنيـــه، كلَّما رأيتها، سألَتُ نفسي لماذا ولدتُ أصلع؟!

ولطالمـا تمنيتُ أن تكونَ لي عينٌ واحـدة فقط، حتَّى إنَّني حاولتُ أن أفقـأ عيني اليســرى عِندمـا كنتُ مراهقـاً، ولكنَّنـي جَبُنت، وفي النهاية أقنعتُ نفســي أنَّ الشجاعة وحدها هي من تُعطي لصاحبها هذهِ الأوسمة، كلَّما رأيتهُ أغرقُ فيهِ أكثر، وأكثر، حتَّى ينسى جسدي الماءَ الذي عُجنَ فيه!

«يمكنـكَ اعتبارها علامة شـرف يا بُني»، قـالَ لي الوزير، وهوَ يسلِّمُني طلب النقل الموقَّع، بعدما انتبه إلى نظراتي.

وأنا بـدوري اعتذرتُ بأدب وغادرتُ مسـرعاً، وفي اليوم التالي أقامت لي زوجتي احتفالاً بمناسبة الترقية.

كانَ احتفالاً صاخباً، لملمَتْ فيهِ كلَّ الوريقات المتناثرة من شـجرة العائلــة، والأصدقــاء، وقد أشـرفتْ على ديكور الصالة بنفسـها، فقد أرسـلت بطلب مئــةِ بالون ملون، تمَّ تعبئتُهـا بالهيليوم، فاصطفت في أعلى السـقف كسـحاباتٍ صغيرة متلاصقة، ومن بينها تدلَّت الثريَّات الضخمــة التي هَطلَـت منها الإضاءة الباهرة فانعكسـت على الرخام الأبيـض المذهّـب الحواف والوسـط، والذي طقطقـت عليه الكعوب العالية رقصاً، ومرحاً طوال الأمسية.

على المدخل أوصت ببســاط أحمر مخملي، فامتـدَّ مُنصِّفاً القاعة

مـن البـاب الأول حتَّى طاولة الشـرف، حيثُ أجلسـت إليها وزيري العدل والداخلية، ورئيـس المخابرات وعائلتي، وآخرين، وبينما كانَ الخدم يرحبون بالضيوف ويوجِّهونهم لطاولاتهم، قامت هيَ باستقبالي علـى باب القاعة، وارتدت لذلك فسـتاناً أبيض مـن الحرير الطبيعي المحبوس في قطعة دانتيل فضيَّة، لفَّت جسمها وامتدَّت زاحِفةً وراءها لتتبَعَها أينما سارت بها، وحيثُ أوصت بالفستان من باريس، كانت قد أوصت بزجاجة العطر الخيالية تلك، وأهدتني إيَّاها في آخر الاحتفال، بعدَ أن أفرغ الحضور زجاجات الشراب، ولعقوا الكؤوس، والأطباق عن آخرها.

وفي النهاية وقفت كملكة احتفال، وأعلنت للحضور ترقية زوجها كرئيس قسم التحقيقات العامة في المخابرات، صفَّقَ الجميع، وأطلقوا طيور ألسـنتهم بالتصفير والتهليـل، بينما كنتُ أبتسـمُ بغصَّة، وأهزُّ رأسي بثقل، وأطيلُ النظر إلى فاتِنَتي!!

– ما الذي تُفكِّر فيه!

سألني رامي، ما إن وصل المكتب ملبياً طلبَ استدعائي الصباحي غير المهم!

وكانَ يسـحبُ سـيجارة من جيبِه الدَّاخلي، ويُلْثِمُها طرفَ القداحة المشتعل، فتلتقطُ اللهبَ بِنَهم، وتوزّعُ شغفها في رئتيه ثمَّ تنطلقُ خيوطاً لامتناهيـة من أنفـهِ وفمه، ظلَلـتُ أراقُبها وهيَ تتعـارك مع الضوءِ المتدفِّـقِ من النافذة خلفي.... ثمَّ يتلاحمانِ معاً، ويتداخلانِ بعنف حتَّى يتبعثر الضباب الأسود في الغرفة، قاذفاً رائحة السيجارة بطريقةٍ تثيرُ

شـــهوةً أصغر خلاياي الجائعة للنيكوتين منذُ أكثر من عام، وتلحُّ عليَّ بقوة لأخذِ نفسٍ أعمق قليلاً، تجاهلتها وسَعَلتُ مرتينِ على يساري...

– كنتُ أفكر باحتفالٍ أقامتهُ لي زوجتي من فترة.

اعتدلَ رامي، ونزعَ السيجارة من شفتيه، رفعَ حاجبه بمكر وقال:

– أهــا.. تقصد احتفال الترقية في فنــدق «diamond night»، لقد حضرته.

عَقدت حاجبيَّ معاً، فبدتْ من بينهما الخطوط، بطريقة حادة...

– حقاً، لمْ أكن أعلم! أينَ كنت؟

ضَحِك قليلاً، ثمَّ سحبَ نفساً آخر.

– كنتُ قريباً منك! على ذات الطاولة.

– ولكن من الذي دعاكَ للاحتفال؟!

– مممم، زوجتك!

– فاتن هل تعرفُك؟!

– وهل كانت تعرف كلَّ الذين دعتهم، كنت ضيف شرف من جهة الوزير.

(قالها مستعجلاً، وكأنَّه يرتجل...)

– أها...........؟!

ظلَّ حاجبايَ في الهواء وفمي مقفلاً ويكأني صدَّقته!

وهوَ لم ينتظر مني رداً، فقط أخرجَ مُضغةَ التبغِ من بينِ شفتيه، ودَعَسَها في صحنها المخصص، وقال لي، والدخانُ يلوّحُ حوله: – كانَ عليكَ أنْ تُخبرني أنَّك لا تدخن، – ثمَّ استدرك – لماذا أرسلتَ في طلبي؟

ألقيتُ الملف أمامه، وقلتُ بامتعاض: لقد توقفتُ عن التدخين من مدة؟! – ثمَّ استدركتُ بنفس الطريقة – لقد أردتُ سؤالك عن القضية، صحيح أنَّها ليست من اختصاصي، ولكنك أردت إطلاعي عليها...

اعتدلَ رامي على كرسيه، ونظرَ من أعلاهُ للملف الملقى أمامه، بينما الدخانُ انحصرَ وذاب في الهواء.

– نعَم، ما الذي تريد السؤال عنه؟ تفضل؟!

سَحبتُ نفساً طويلاً من الهواء النظيف، وقلت: لقد قرأت البيانات، وشاهدت الفيديوهات والصور، عدَّة مرات، لم أَجد فيها شيئاً يستدعي اهتمام السلطات العليا....

أقصد أنَّها مجموعة من البيانات الدقيقة عن بعض الشباب المعارضين، كالعادة!

ولا أعتقد أنها أمر يستدعي اهتمام وزير الداخلية بنفسه...

سَعَلتُ مرة ثانية، وابتلعتُ ريقي، وتابعتُ بصوتٍ أعلى:

هل كانت فعلاً هذهِ القضية التي اجتمعتم لأجلها؟

شـــعرَ رامي برائحة تخوين مني، فابتسمَ ابتســـامةً مائلة، مُخفضـاً بَصَرهُ إلى الأرض وقال:

– صدِّق أو لا تصدق كانت هذهِ القضية!

ثمَّ سَحبَ الملف إليه بأطرافِ أصابعه، وفتحه بقرف على الصفحة الأولى، وأشـــارَ بإصبعه إلى الصورة في أعــلاه، ونقرَ عليها مرتين بطرف سبابته.

– هل ترى هذا الشاب؟ عزيز لطفي! هذا الصعلوك يا عزيزي لا يملك ســوى قميصين واحد أســود، والثاني أزرق، قامَ باختلاس مبلغ كبيــر من إحدى أكبر شــركات الهندســة، عِندمــا كان يعمل بها، وقد طرده المدير، لكنَّهُ عفا عنه في محضر الشرطة، وهوَ الآن يدير أكبر شبكة لتهريب المخدرات، والأسلحة المستوردة في البلاد.

جــزءٌ منـــي اندهــش، وجزءٌ منِّـــي شــعر بالإهانة، لأنهــا قضية مخدرات!

– ماذا؟! مخدرات، وأسلحة، ولكنَّه....

قاطعَني رامي بقهر: نَعمْ، يُطالب بحقوق العمال والشباب والحرية والانتخابات ووو.... ثمَّ نظر إلى عينيّ مباشرة وهَمَسَ ببطء..

هــذا فـــي النهار يا عزيزي فقط، أمَّا في الليــل فهو يدير عصابته، يُدخلون قطع السلاح، ورزم المخدرات عبر الكتب، تخيَّل!!

بالتأكيد أنتَ تلاحظ المظاهرات، والفوضى التي تحدث كل فترة..

– إذاً ما الذي تنتظرونه؟

– لقـد وصلتنا معلومات، أنَّهُ يسـتعد لاسـتقبال شـحنة كبيرة من المتفجرات قريباً، نريد أن نضرب الحديد وهوَ حامٍ....

وضربَ الملف على الطاولة، وقال: نحنُ نتابعه من ثلاث سنوات، وقد حان الوقت لِنُمسكَ بطريدتنا!!

لِماذا لم تُذكر تلك المعلومات في الملف؟!

كانَ رامـي وقتها قد خرجَ منَ المكتب، لم يسـمع سـؤالي، وبينما كنتُ أستسلم لسعالٍ مُزمنٍ، وصدرٍ مُطبقٍ.

كانت جمرة السـيجارة المتبقيـة، لاتزالُ تقـاوم الصحن، وتُطلقُ وهجاً ضئيلاً يُعافِرُ الهواء باستسلام.

* * *

(3)
– أشدُّ مرارةً من القهوة –

– تلكَ الصباحات التي تبدأ بالقهوة، لهيَ صباحاتٌ مقدَّسة!

ضحكت فاتن طويلاً، وهيَ تُعدُّ لي فنجانها الروحاني المعبأ بالسواد الباذخِ جداً، وهوَ أحد الطقوس الصباحية التي لا تسمح للخدم بشرف أدائها أبداً...

حقاً؟! مقدسة! سألتني وسحبت الفنجانَ بدلال عِندما هممتُ بإمساكه.

– نَعمْ، صدِّقيني إذا لم أبدأهُ بها، أصابُ بالضياع بقية اليوم!

عادت بخطواتها إلى الوراء مبتعدة، وعَبست..

– أشعر بالغيرة!

– من القهوة!

– لا بل من هاء التأنيث، وأنتَ تقول «إذا لم أبدأهُ بها»!

– بهذهِ الحال أنتِ تغارينَ من السـيارة، وزجاجة العطر، وربطة العنق ووو.....

كنتُ أحاولُ إشـغالها لألتقطَ القهوة قبلَ أن تفقدَ سـخونتها، ولكنَّها ناورتني أكثر فانفلتَ منها وانكسر على الأرضية، تاركاً دماءَ الفنجان السود تزحفُ تحتَ قدميها بطريقة أشعرتني باللوعة.

– أوه!! أعتذر، سأعدَّ لكَ غيره!

قالــت لــي بعينــيْ قطةٍ صغيـرةٍ، لكنَّ السـاعةَ بيدي بــدأت تحكُّ معصمــي وجعلتني أسـتعجل الهـروبَ منها، كنتُ وسـأظل الضابط الأكثر انضباطاً...

– حقاً، أنتَ تكره المكتب أصلاً!

أكرههُ نعم! ولكنني أحب الانضباط، تعلمين ذلك....

– والقهوة؟!

أجبتُها بمزاح!

– غريمتُكِ؟! أشـربها هُناك، بالمناسـبة، ليسـت القهوة من تجعل الصباحات مقدسة، بل من يُعدُّها!

قفـزت فاتن بمرح حولي، فابتلَّ طرفُ القماش الوردي الذي يلفُّها بالبنّ الأسود.

قالت بمرح: إذاً أنا قِدِّيستُك!

أجبتُ بمرحٍ أكبر: والعم صالح أيضاً، وانطلقتُ هارباً من أمامها...

– العم صالح؟!

أناديه «العم»!

كلَّما ارتشفتُ قهوته، أحسُّ أنها أحد آلاء الله عليَّ في المكتب، تجاعيدُ وجهه تناورُ ضحكةً خجولةً لا تخرجُ كثيراً، وجبينه منخفضٌ لا يرتفعُ ليرى أحداً، أمضى حياته في العمل في مباني الداخلية المختلفة، يصنعُ القهوة والشاي ببراعةِ مهندسٍ يضعُ اللمساتِ الأخيرة على مشروعه، يتنقلُ بينَ الأقسام كأنهُ قطعة بلاط لا يلاحظهُ أحد، فقط ينتبهونَ أنَّ الشاي وصلَ إلى الطاولة وقدْ فقد جزءاً من سخونته، فيسبُّونَ العم، وشاي العم الذي لا يعيشونَ بدونِه!! يسمع أو لا يسمع الشتائمَ، لا أحدَ يعرف! ويتابعُ عملهُ في صمتْ، عندما أراه أتذكّر تماثيل القرود الثلاثة، أحدها لا يرى، والآخر لا يسمع، والأخير لا يتكلم، أمَّا العم فهوَ يمثِّل الثلاثة معاً.

أتَساءل، ما الذي يُفكِّرُ فيهِ رجلٌ عجوزٌ يدورُ في الأروقةِ الصامتة، يستدعيه النداء، شاي! قهوة! زهورات! كابتشينو! ينصبُ الفناجينَ أمامه، يسكبُ الماءَ الحارَّ، والسكر، ويحركها بالملعقة فيدور السائل الملون، ويدور ككلِّ شيء خلقهُ الله، ولا يتوقفُ إلَّا في أمعاءِ أحدِ الذينَ يَعلِفونَ أجهزتهم، وملفاتهم، بأخبار الناس، وتفاصيلهم الصغيرة والكبيرة، ألا يظن أنَّ هناكَ ملفاً رقمياً متقوقعاً في إحدى الزوايا، يحملُ اسمه؟!

سألتهُ ذاتَ قهوة!

وهوَ بدوره ابتسم، والقهوة لم تكن تدور، ولكنَّها كانت حلوة وساخنة، ولسعتني، وهذا هوَ المهم، أن تلسعني، أن تذكِّرني أن أصحو من هذا المكان، ومن هذهِ القوانين، ومن هذا الحلم الذي يشبه الحقيقة!

الفرق بين قهوة فاتن وقهوة العم أنَّ قهوة فاتن لا تلسعني، إنَّها تصنعها بتلك الطريقة التي تُشعرُني أنَّ كل شيء بخير! وأنَّ الحياة ستستمر! أنَّني سأنسى الماضي، وأنَّهُ سأصبح أكبر، وأعلى، وأنَّ كرةَ الثلجِ التي تدحرجُ في الشوارع ستذوب، والمظاهرات ستنتهي! كما ينتهي كل شيء، ويعودُ لوضعه الطبيعي.

ولكنَّ قهوة العم تلسعني دائماً، تشعرُني أن لا شيء على ما يرام، وأنَّ الأمور لن تنتهي، وأنَّني لن أحقق شيئاً، وأنَّ الحزن سيكبر كما تكبرُ الموجة في منتصف البحر وتهاجم اليابسة على حينِ غفلة، كأنها عقابُ الله على قومِ نوح، فتطفو الجثث، وتذَهلُ الأرواح، بينما ينشغل العلماء، بمعرفة هل ما حدث كانَ زلزالاً، أم فيضاناً!!

هل هذا سيحدثُ حقاً؟!

تساءلَ المذيعُ الغاضبُ عبرَ الأثير! وكانَ أحدُ الشوارعِ مغلقاً بقوات الأمن، لأنَّ مظاهرةً ما تزحفُ متوجهةً إليه، مما جعلَ السائق يستديرُ بالسيارة، إلى شارعٍ أكثر ازدحاماً، وهوَ يبرطم: ما الذي يحدث في هذا البلد؟! إنَّه يُصاب بالجنون!

ما سبب المظاهرة؟!

وجَّهتُ السؤال لسائقي...

رَفْع قسـط التأمين الصحي، أو إضراب عمال النظافة! شـيءٌ من هذا الجنون..

بدا غير واثق من إجابته أو بدا خائفاً وحسـب، صمتهُ جعلَني ألوذُ بالصمت، باحثاً عن زاوية في رأسي غير مصابة بالصداع، والدوار، ولمَّا وصلتُ متأخراً، أرسلتُ بطلبِ نشوتي الصباحية لأنقِذَ يومي!

عندمـا أحضرَ لي العمُّ القهوةَ، بدا مرتبكاً، كانَ الفنجانُ يهتزُّ فوقَ الصينية حينَ وضعها أمامي، سـألتهُ مـا الأمر!! فلاحت بينَ حاجبيهِ ثنيةٌ ما، أرادَ أنْ يقولَ شـيئاً، ولكنَّهُ بدا خائفاً، استشـعرتُ قلقهُ، سألتهُ مرَّتيـن، قالَ بصوتٍ أكثرَ تجعيداً من وجهه: الأخبار يا سـيدي، إنها لا تسرُّ أحداً!

– ومن متى كانت الأخبار تسر أحداً، إنها أحد مسببات الأمراض المزمنة في الدول العربية، فكَّرتُ بذلك...... بينما فرَّ العمُّ بقهرٍ أشـدَّ مـرارةً من قهوته، عَرَفـتُ طعمهُ حينَ أضاءَتُ الشاشـة الكبيرة على حائط المكتب، ورأيتُ الصور التي تبثُّها، شَعرتُ بحموضةٍ في بطني، بَحثَتُ عن ريقي لأبتَلِعهُ فوجدتُ حلقي جافاً، ممتلئاً بغصةٍ كبيرة غير قابلة للابتلاع، شـعرتُ بنار تزحفُ إلى جمجمَتي، بينما ظلَّ الشريط الأحمر يتوهجُ في أسـفلِ الشاشة، والصداع يبسطُ سيطرته على بقية رأسي.

دخَل رامي المكتب قلقاً، حدَّقتُ به، وسألتهُ ببحَّةٍ مختنقة: ما هذا؟

فما كانَ منه رامي إلا أن أشاحَ بعينيه عنِّي، ووضعَ يدهُ على فمه، وأخفضَ بصره في خجل...

تصاعدَ صوتِي أكثر: ما هذا يا ضابط رامي؟ ستون شرطياً دفعة واحدة، وكم عدد الإصابات.. فوق المئتين!!

– إنَّه...، لقد....

بدت وكأنها محاولة فاشلة لقول جملة باردة، يُمكن سكبها على الأعصابِ الساخنة.

– إنَّهُ! لقد!! ما الذي تقوله؟ قل شيئاً مفيداً أرجوك، أكادُ أجنّ، أشعرُ أنَّ كل المبنى يسقطُ على رأسي، البارحة فقط تركت أقسام الشرطة بخير حال! واليوم أُنظر لكل هذهِ الدماء! إنها مجزرة! مجزرة!!

ارتبكَ رامي أكثر، ودارت عيناهُ في حركة عابثة، بحثاً عن جوابٍ ما!

– في الحقيقة، كانت لدينا شكوك! ولكنَّنا لم نستطع.....

كنتُ مشدوداً لكل حرفٍ يخرجُ من شفاه مستشارِي، فيما رامي يحاول إلصاق الجمل ببعضها، كترميم يائس لمبنىً آيلٍ للسقوط، وكانَ الهواءُ بينَنا متشنجاً هو الآخر، لولا أن قَطَعهُ زعيقُ الهاتف، تَلَفَّتُّ بفزع، نحوَ الصوت، تحسستُ جبهتي المشتعلة، ورفعتُ السمَّاعة ببلاهة، بينما ظلت عيناي تلاحقان شفتيْ رامي الذي يُتَعْتِع..

كانَ صوتُ وزير الداخلية في الطرف الآخر مشوشاً، قلقِاً، وهوَ

يقذفُ خبراً آخر في أذنِي!! كمن يصبُّ زيتاً ساخناً في أوردتي..

– نعمْ سيدي، تعازيَّ الحارَّة، سأبدأ على الفور!

أنزلـــتُ الســمَّاعة بلا صــوت، أرادَ رامي أن يســألَني، ولكنَّهُ قرَأَ جَزَعاً بكلِّ اللغاتِ على وجهي، فصمتَ تماماً كما صمتَ الهاتف على المكتب، وازدادَ الهواءُ تشــجناً، والدمُ توهّج أكثر على البدل الزرقاء الملقاة علـــى الأرض، والأخبار التي جــاءت بالهاتف أصبحت خبراً عاجلاً بعدَ دقائق فقط.

* * *

(4)
- العُميان يرونَ الضّوءَ أوّلاً -

عِنْدمــا وصلتُ ورامي إلى مكتــب وزير العدلِ، وَجدنـــاهُ ممدَّداً، مُتَرَهِّلاً، كشــوالٍ منَ البطاطـــا، مثقوباً من الجانب الأيســـر، وبجانبهِ بُحيرة حمراء تتمددُ ببلادة على السيراميك الفاخر، فمهُ مفتوحٌ ككهفِ علي بابا، وعيناه تُحدقانِ في الموتِ الذي فرَّ منْ ســقفِ الغرفة حاملاً روحه، كنتُ أعرفُ أنَّ عملي في الوحدة الخاصَّة يعني إشرافي على جرائـــم قتل مـــن الطبقات العليا في الدولة، ولكنَّني لــمْ أتوقَّع أنْ تكونَ القضيـــةُ الأولى لأَحَد أعز أصدقاء والــدي، ظَلَلْتُ لدقائقَ واجماً، وقدْ تَكهربتْ أطرافي، وأعصابي.. وزير العدل!

الــذي يحفــظ من النــكات أكثر مما يحفــظ من بنود الدســتور، يدخلُ الاحتفــالات بضجّة، يضحــك بها حــدَّ الثمالة، ويثمل بها حــدَّ الضحك، يكركر على أسخف النكات حتَّى يهتزَّ بطنه الكبير فيضحكَ كلُّ مَن حوله.

ها هو! أمامي، ســاكنٌ كتمثالٍ من الجبــس، وبطنهُ المهتزة جامدة كصخــرةٍ تحتَ بدلــةٍ من المقــاس الكبير، مصبوغــة بالحمرة، وفي الأعلــى وجهٌ متلبِّسٌ بالفزَع، تهيأ لي أنَّهُ في ثوانيه الأخيرة رأى ملكَ الموت على صورته الحقيقية، تخيَّلتُ أنَّهُ حادَثَهُ، وقالَ لهُ أنَّهُ سـيدسُّ يــدهُ في معطفهِ ويســحبُ روحــه، هلْ ضحكَ وقتها!! يــا الله، ما أتفهَ الحياة، رصاصةٌ واحدةٌ فقط، وكشْ ملك!

لا بصمات أو آثار أقدام، لم يســرق شــيئاً، ولمْ يكتب شــيئاً، فقط رصاصة نظيفة، ووجه مُلثَّم يظهر وراء الكاميرا، يدخل إلى المكتب، يقول شــيئاً ما للوزير، فيغيِّرُ جغرافيا وجهه، ثمَّ يفلت زناد المســدس، ليفتــحَ الموتُ فمهُ ويبتلعَ الوزير، ويتــركَ خريطة من الفزع والروع على ملامح القتيل، لا يستطيعُ أَحَدٌ قراءتها، أو فهمها!!

أعدنا الشــريط عشــرات المرَّات، ولمْ نُفلحْ فــي العثورِ على إبرة جواب في كومة الأسئلة،

– أينَ كانَ الحرَّاس؟

– في فترة الغداء،

– كيفَ دخلَ القاتل؟

– لا أحدْ يعلمْ.......

– كيفَ خرجَ إذاً؟

– .....!!

– من الذي اكتشفَ الجثَّة؟

– مدير المكتب.

– وأينَ كانَ مدير المكتب وقتَ الجريمة؟

– في مهمة عمل خارج المكتب...

وتـدورُ الحلقة حتَّى تعود للبداية، بعدَ سـاعات وأيام من الأسـئلة والتحقيـقِ والاسـتجواب أصابنـا الصـداعُ، وأرهقَنا الجـري وراء اللاشيء، فَتَحتُ التلفاز في لحظةِ قرف، قلَّبتهُ جيداً، كانَ كلُّ المذيعينَ يلوكونَ خبرينِ فقط:

الأول: مقتـل وزير العدل فـي مكتبه برصاص مجهول، وهروب القاتل!

والثانـي: اعتقـال عزيـز لطفي بتهمة المسـؤولية المباشـرة عن تفجيرات مراكز الشرطة قبلَ شَهر!

لـمْ أعلـمْ ما الذي يمكننـي فعله، لقدْ أشـرفْتُ على أكثـر الجرائم اسـتعصاء في كلِّ مـدن الوطن، ولـمْ يُعجزني مجرمٌ، ولـمْ ترَكِّعْني جريمة، والآن أوشـكُ أنْ أسـقطَ أمـامَ أولِ ريحٍ غربيـة، أوَّل قضية فـي منصبي الجديد، شَـعرْتُ بقريةٍ منَ العفاريت تتقافزُ في رأسـي، وتشـحَنُني بمزيدٍ منَ الصـداع والعصبية، حتَّى لو كانَ القاتل شـبحاً لكانَ تركَ أثراً ما في الغرفة، ولكنَّه فعلَ فعلتهُ ثمَّ انفصلَ عنِ الجاذبية الأرضية ببساطة، كأنَّهُ سقطَ من الفضاء بحبلٍ مطاطٍ وعادَ به.

وفي وسط هذهِ الدوامة وجدت نفسي أطلب إحضار جميع الملفات والقضايا التي لها علاقة بالوزير المقتول، اتسعت عينا السكرتير وقالَ بدهشة مكتومة: جميع الملفات؟!

قلتُ بغضبٍ مكتوم: نعمْ جميع الملفات، والأوراق، والتسجيلات، وكل ما لهُ علاقة بتاريخ القتيل، حتَّى الجرائد التي ذُكرَ اسمهُ فيها أريدها، ولو اضطررتم إلى جمع قصاصات الأوراق من الشوارع، والبيوت، ونقل أرشيف الدولة بأكمله إلى هُنا!!

تنهَّدَ باستسلامْ وقال: حسناً، ولكن سيحتاج الأمر إلى وقت، إضافة إلى وجود بعض الملفات السريَّة التي لا يمكنْ إح.....

قبلَ أن يكمل وجدَ نفسهُ يبتلعُ كلَّ الكلمات التي يريدُ قولها ويخرجُ مسرعاً منَ المكتبِ، هارباً من الجحيم الذي سينفتح في وجهه منِّي، أنا أعلم أنَّني بهذهِ القضية سأفتحُ أبواباً لا يُمكنُ إغلاقُها.

عنْدما خرجَ من المكتب، أحسَسْتُ بارتباكٍ غريبْ، كأنَّ عاصفةً تحشدُ كلُّ ترسانَتِها في مكانٍ ما، وتتهيأ لتصطدِمَ بي.

عِندها بدأ الهاتف على المكتب يصرخُ بصوتٍ مبحوح،

وجاءَ صوتُ وزيرِ الداخلية – للمرة الثانية – جافاً كمن تركَ حنجرته في الصحراء: لقدَ قُتلَ نائبي!

في وقتٍ متأخرٍ من الليل، شَعَرتُ باهتزازِ الهاتفِ في جيبي، مدَدْتُ يدي ببطءٍ وكأنَّني أراجعُ رغبتي في قبول المكالمة من عدمها، وعِندما توقفَ المحمول عن نحيبه الصامت، أخرجته مُشفقاً عليها!

ولم أستغرب كثيراً عندما وجدتُ سبعاً وأربعينَ مكالمةً فائتة! وعشرَ رسائل!!

أردتُ أن أعيدهُ إلى ضريحه المعتم في جيبي، ولكنَّني تراجعتُ مستشعراً قلقَها عليّ، أعدتُ الاتصال بها، وقبلَ أن تكتمل الرنةُ الأولى، انطلقَ صوتها من السمَّاعة محملاً بغيوم الأرضِ الباكية...

– أينَ أنتَ أيها الزوجُ المهمل! أنا خائفة عليك..

ضحِكتُ بصوتٍ خافت، متهكماً على نفسي.

– وتضحك أيضاً، أأحمق أنت! أنا سأجنّ وأنتَ تضحك!

تنهَّدَتُ بعمق، وبحثَتُ على دعابةٍ ما في حلقي، ولكنَّها خرجت تنهيدةً أكبر، وضحكة أشدَّ مرارة.

– حسناً، قُل على الأقل أنَّكَ بخير، أنَّكَ في طريقك إلى البيت.

– الليلة! لن أعودَ إلى المنزل، الأمر أصبحَ خارجاً عن السيطرة يا فاتن.

ابتلعت ريقها وردت عليَّ مسرعة: نعم! لذلك أريدك أن تعودَ للمنزل، أخافُ أن تكونَ...

– أن أكونَ ماذا؟! قوليها يا فاتن، أن أُقتل أليسَ كذلك؟

– لا أدري، أعلم أنَّكَ لن تستمع إليّ، ولكنْ أرجوك عِدني أن تكونَ بخير...

– سأحاول.

عِندمـــا تقلــقُ عليّ تكــونُ ضعيفة جداً، لو ســقطت عليها ريشــةُ عصفورٍ لانكسرت! وكأنَّ شخصية ثانية تتلبَّسُها، لَمْ أُرِد العودة لفاتن تلــك الليلة، كنــتُ مكتئباً من ذلك اليوم الطويل، مــن المكالمة الهاتفية الثانية، من صوت الوزير المنكســر، من منظــرِ النائب المقتولِ على كُرسيه! ومن ساعة المكتب التي تُعاني حازوقةً مُزمنة!!

أســندَتُ رأساً ثقيلاً على طرف الكرســي الخلفي، وظلَّت السيارة تترنَّــحُ بــي بينَ صفَّيــنِ من الأعمدة المضــاءة على جانبــيِّ الطريقِ المؤدية لبيتِ والدي.

لايزالُ مفتاحُ البابِ الرئيســي معي في مكانٍ ما، كنتُ أضعه دائماً في جيبٍ ســرِّي من جيوب البدلة، وكلَّما غيَّرتُ بدلة جديدة نقلتهُ إلى جيبٍ جديدٍ، ترَكتُ الســائقَ يبحثُ عن مكانٍ يركنُ فيه ســيارته، وعن مكانٍ ينامُ فيهِ بعيداً عن صوتِ كلابِ الحراسة التي تقطعُ سكونَ الليلِ بِنباحها، وشَرَعتُ أنبشُ ثيابي بحثاً عن المفتاح، الذي أبَى إلَّا أن يبقى غاطساً في زاوية ما!

البابُ الكبيرُ يطبقُ ذراعيه، والليلُ يبسطُ سوادهُ على الأفقِ إلا من خطِّ ضوءٍ نحيلٍ تراءى كهلالٍ مُصابٍ بالزكام، يُحاولُ الســقوطَ على أي شيءٍ في طريقه ولكنَّ الظلامَ يَمنعه...

هل ســأقضي الليلةَ خارجاً؟ ربَّما سأنامُ في السيارة بعدَ كلِّ شيء، اســتدرتُ وقــد راقت ليَ الفكــرة، ويئســتُ من البحث عــن مفتاحي المختبئ، ولكنَّ البابَ طقطقَ من خلفي، وانفتحَ ببطء، لِتطلَّ من خلفهِ.

ستينيةُ الروزنامةِ والملامحِ، وجهها هو الشيءُ الوحيد الذي قِبِلَ انعكاسَ ضوءِ الهلالِ عليه، فزادَ شحوبَه شحوباً، وبدت التجاعيدُ من تحتِ عينيها أقواساً باهتة شاخت على بشرةٍ بيضاء، بنفسِ لونِ شعرها، بَعَثَتْ شعوراً طافحاً بالحزنِ والوحدة، تأمَّلتُها ككل مرة أراها فيها بعد غياب، بعينيْ مغتربٍ عن وطنه..

– ما الذي أيقظكِ؟

قلتُ لها، وأنا أمررُ يدي على ثلجِ شعرها..

– لم أنم أصلاً، زارني الصداع، وربَّما توقَّعتُ مجيئك الليلة، ولكنِّي لم أعلم الساعة بشكل محدد، حتى سمعتُ صوت كلاب الحراسة!!

قالت ذلك وهيَ تشدُّ شالها الصوفيَّ الرقيق على جسدها وتُفسحُ لي الطريقَ لأدخل، في تلكَ اللحظة شعرتُ بالخجل والحنين في دفقةٍ واحدةٍ!

– لقد بحثتُ عن المفتاح، كي لا أوقظكِ!

قلتُ لَها، مُعتَذِراً...

– ربَّما أخفته فاتن؟!

أجابت!

تفاجأتُ وقد تذكَّرتُ، أنها فتشتْ ثيابي قبلَ أيام لإرسالها للغسيل.

– كيفَ تستطيعينَ معرفة ذلك؟!

– معرفة ماذا؟ مجيئك إلى هنا! أم المفتاح...

– كل شيء!

ابتسمتْ، ربما لم تكن ابتسامة، ولكنها كانت حركة ناعمة من زاوية شفتيها أشعرتني أنها ابتسمت..

– أعرف وحسب!

ابتسمتُ أيضاً، أردتُ أن أقولَ شيئاً، ولكنَّني تراجعتُ وتظاهرتُ بالسُّعال! كوني فَتحتُ فمي...

مما جعلها تبتسم، هذهِ المرَّة كانت ابتسامة بحقّ، بل ربَّما بداياتِ ضحكة!

– ما الذي تُريده؟!

– عمَّ تتحدَّثين!

– تريدُ شيئاً مُخجلاً، أنتَ تسعُل عِندما تتراجع عن قولٍ أردته، وبما أنَّ وجهكَ أحمر فهذا يعني أنكَ خَجلٌ مما أردته؟!

تحركت شفتايَ لاإرادياً بابتسامةٍ بريئةٍ، ولَمَعَ شيءٌ في عيني...

«أريدُ أن أنامَ على رجليكِ كما كنتُ أفعل وأنا صغير، أريدُ أن أسافر في عينيكِ، أن أحلِّقَ في صوتِكِ، أن أشعرَ أنَّني على جزيرة من خصلاتِ شعرك، أن أتحرر من جسدي، لأُحبَسَ في أصابِعك».

تخيَّلتُ أنَّني قلتُ لها ذلك، لقد قلتهُ لها آلاف المرات، ولكن في

مُخيلَتي وحسب، وذاتَ مرَّة كَتبتهُ في ورقة وعلَّقتها على هديتِها يوم عيد الأم، وقبلَ أن تصلَ إليها كانت ممزقة في جيبِ بنطالي الخلفي، أجمل ما فيها أنَّها تمنحُني هذهِ المشاعر، دونَ أن تعرف، ودونَ أن أقولَ لها ذلك، ولو لمرَّة واحدةٍ في حياتي!!

كَما اليوم! عِندما دقت الساعة الثانية بعدَ منتصف الليلَ كنتُ مُلتَجئاً إلى حِضنها كأرنبٍ خائِف، وكانت تبدأ طقوسَ تحريري من الجاذبية الأرضية، بأصابعها، وكنتُ مستسلماً جداً لأمواجِ أصابِعها وهيَ تتداخلُ مع كُثبانِ شعري.

في لحظةٍ بينَ الصحو والنوم، حيثُ الجفونُ تحتاجُ رافعةً كهربائيةً لتعودَ إلى مكانها، وحيثُ وجهها مسالمٌ كوجهِ الموناليزا في لوحةِ دافنشي، قلتُ لها:

– أمَّاه، كَم من الوقت غبتُ عن هذا العالم؟!

– ثلاثَ سنوات يا عمري!

– أينَ كُنتُ خلالها؟!

– بينَ المشفى، والبيت!

– وما الذي حدث فيها!

– الكثير من الأشياء المجنونة، وغير المهمة!

– لِماذا؟!

تنهَّدتْ طويلاً، قبلَ أن تُطلقَ سراحَ صوتها...

يــا بُني، كانَ عليهــم أن يُحبُّوا هذا الوطــن، أن يحبُّوا الناس، وأن يعاملوهم كالبشــر، لا يُمكن للإنســان إلَّا أن يكونَ إنســاناً، أن يحلم، ويحب، ويعيش! أن يكونَ حُرَاً، أمَّا الإنســان هنا، فهو آلةٌ معدنية، لها تاريخ إنتاج! وتاريخ انتهاء! وحســب، لقد قلتُ ذلكَ لوالدك عشــرات المــرَّات، وفي كلِّ مرة كانَ يقولُ لي جــاداً، إذاً علينا أن نجيدَ التحكم فيهم حتى تنتهي صلاحيتهم!!

– أبي، قالَ ذلك!

لم تردَّ عليَّ، ولكنَّ الضوءَ في عينيها تقلَّص..

أشحتُ عنهما، لم أرغب أن يسيلَ حُزنها على وجنتيها! والدي هوَ جرحها المفتوح دائماً، والذي لا أعلمُ سببه، ولا أجرؤُ على ســؤالها عنه! فقط غيَّرتُ الموضوعَ....

– هل أخطأتُ عِندما تزوجتُ فاتن؟!

– إنَّهُ القرار الوحيد الصائب في حياتك!

– حقاً؟!

هــل تَعلم؟ منذُ خرجتَ من هذا الرَّحم، وأنتَ تفعل ما نمليه عليك، تــأكل ما نريــد، تتكلم كما نُريد، ترتدي كما نريد، دخلتَ الجامعة التي أردناها والتخصــص الذي أردناه، طوال الوقت كنتَ تظن أنَّك تُحقق أحلامك، ولكنَّك تُحقّقُ أحلامنا التي زرعناها بك، ليسَ أكثر!

والدُكَ كانَ يحلم أنَّكَ ســتصبحُ رجــلاً عظيماً من رجالات الدولة،

وأنا حَلمتُ أنَّكَ ستصبحُ طبيباً، وأنتَ حققتَ حلمَ والدك!

لقــد كنتَ دائمــاً طفلاً مطيعــاً رقيقاً، وعندما كبــرت أصبحتَ آلة أخرى من آلاته تلك!

ولكن عِندما اخترتَ فاتن كنتَ أبعد ما تكون عن آدم الذي صنعناهُ وشــكَّلناه، اتخذت قــرارك في لحظةٍ لاعقلانيــة، ولاواعية، فعلتَ ما أمــلاهُ قلبُكَ عليك، هل تعلم يــا آدم؟ أفضل القرارات تلكَ التي يتخذُها عنَّا اللاوعي!

«اللاوعــي» هو البطارية الاحتياطية للوعي، عِندما يعجز العقل، فإنَّ الحاسة السادسة تعمل من تلقاءِ نفسها، تدافعُ عن أرضها وبقوَّة!

الحاســة السادســة هيَ التي توجِّــهُ وردةً صغيــرةً موضوعةً في صندوق، إلى ثقب الضوء الصغير في طرفه، كي تعيش!

وفاتن كانت ثقبَ الضوء الذي توجَّهتَ إليه.

كانــت عينايَ تلتمســانِ الرمق الأخيرَ من الصحوِ عِندما ســألتها: وجدتُ الثقب! ولكن هل استطعتُ الخروجَ من الصندوق؟!

سَقطَ جفنايَ، وانطفأ كل شيء، قبلَ أن أسمعَ الإجابة؟!

* * *

(5)
لماذا انكسرت المرايا؟!

ظلَلْــتُ واقفاً أمامَ الشاشـــة، طوالَ مدة المؤتمـــر الصحفي، أتنفَّسُ بعصبية، فيما ذراعايَ متشـــابِكتانِ أعلى صدري، وحاجبايَ يُشكِّلانِ ثنية حادةً في منتصفِ جبهتي.

أردتُ أن أكـونَ فــي المؤتمر الصحفي المعقـود حول قضية قتل وزيـــر العدل، ونائب وزير الداخليـــة، ولكنَّ رامي رفض، احتجَّ عليَّ بخبرتـــه، وقدرته على الكلام أمام الصحافة، رتبَ الأوراقَ في مُغلَّفها الأســـود، وأدارَ ظهرهُ مغادراً، لم أســـتطع إلَّا أن أقبَـــل، ليسَ طاعةً! ولكن قلَّةَ حيلة!

أنا أيضاً لستُ رجلَ خطابات!

لم أعرفــ ما الذي يجب عليه قوله، حولَ وزير العدل الذي وجدناهُ

نافِقــاً كَذبٍ بُنّي وراءَ مكتبــه، ولا عن نائِبِ وزير الداخلية، الذي كانَ منبَعجاً على كرســيه، الليلةِ السابقة! والإسفنجُ الثمينُ قد شربَ نصفَ دمائه التي كانت تتدفَّقُ من حفرة غائرة في صدره!

جريمتــانِ توأمــانِ، رصاصتان، وثقبــان، وعيــونٌ مفتوحةٌ عن آخرهــا، وأيادٍ مستســلمة، وجثتــانِ تعومان على كومــةٍ من علامات الاستفهام!!

رامي بدا ذكياً، وكانَ يجيبُ عن الأسئلة بتمويه أكثر منه بصراحة، كانَ يعطــي للإعلام ما أراد وصوله وحســب، حتَّى عِندما سُــئِل عن علاقة الجرائم بمجزرة الشرطة، أجابَ باقتضاب أنَّه لا علاقة بينَهُما، وتوجهَ بلباقة الى السؤال التالي!

الصحافــة المحليــة جائعة، تتلمــظُ أيَّ كلمة مــن الحكومة، لتزجَّ بها في أعلــى الصفحات الأولى للجرائد، المظاهــرات تزداد مطالِبة بالحقوق، والأحياء تشــتعل، والناس الغاضبون، يبتلِعونَ كلَّ الفتائل، ويستَعِرون،

والإعلاميُّــون يتغذَّونَ على الغضب، ويمتصُّونَ دِماءَ الشــوارع، بالــذات بعــدَ اعتقال عزيــز، وإغــلاق الصحيفة التابعة لــه، وجميع المؤسسات التي تُغنّي على ليلاه!!

مما جَعلَ الصحــافة تمتطي صهوة التمرد لأبعد حدّ!

وهكذا يأكل الناسُ مما تطبخهُ الصحــافة!

انتهــى المؤتمــر، ولم يُعلن فيــه إلّا العثور على أدلــة دامغة تُثبت

تورط جماعة عزيز في التخطيط لتفجيرات الشرطة، والوعد بمتابعة التحقيق في مقتل الوزير والنائب!

التقطوا لهُ بعضَ الصور، ثمَّ غادرَ مسرعاً.

في اليوم التالي كانَ عليَّ أنْ أتوغلَ في مكتبي بحذر وصعوبة لكثرة ما فيه من أوراق، وأشرطة، وجرائد، وفي النهاية وَجبَ علينا إعادة ترتيب كلِّ شيء منَ البداية، وبدا الأمر أشبهَ بتجميع أوراق شجرة تناثرت بعد خريفٍ عاصفٍ، وإعادتها إلى مكانها الصحيحِ.

ظلَّ رامي على قناعة أنَّ الأمر ضربٌ من الجنون، وأنَّني فعلتُ ذلكَ من باب اليأس.

عِندما يتم اغتيال شخصية كبيرة فجأة، فاعلم أنَّ هناكَ أسراراً كثيرة اغتيلت معها، ولن يتم اكتشافَها أبداً، فكَّر بذلك، ولكنَّهُ لم يجرؤ على فتح فمه بكلمة واحدة. فقط تابعَ مساعدة هذا الشخص الغارق بذاته، وأحلامه!

وعندما انتهينا من حفلة لمِّ شمل الأحداث، كنَّا على موعدٍ معَ المزيد من الضياع والبحث، حتَّى بعدَ الترتيب بدت الأحداث تسيرُ وراءَ بعضها، وتتشابك أكثر، الكثير من القضايا تبدأ بعناوين غريبة، ولا نجد تحتها شيئاً، أو نجدُ موضوعاً إنشائياً مكتوباً بطريقة ركيكة، غير مترابطة لو صاغها طالبٌ في المرحلة الابتدائية لبدت أكثرَ منطقية، والكثير من البيانات والوثائق الناقصة.

مَنْ كانَ يظنُّ أنَّ وزير النكت والضحك، يُخفي وراءه كلَّ هذا التشويش؟

هل يتعمَّدون كتابة حياتهم بهذهِ الطريقة المربكة؟

ما الذي فعلوه كي يحاولوا إخفاءَ تفاصيلِ عملهم، وماضيهم؟

الماضي هوَ ذاتكَ القديمة التي تجلِدُكَ في الحاضر، وتلعَنُكَ في المستقبلِ!

هذهِ الجملة قالتها والدتي لي، ذاتَ نُعاس!!

وهيَ الآن تزيدُ من رغبتي في المعرفة، إنَّها تهيِّجُ حساسية فضولي، وتُسيلُ لعابَ عقلي! لن تُصبحَ هذهِ الجرائم، وثائقياً غامضاً، أتحدَّثُ عنه في الغد البعيد، لإحدى القنوات الإخبارية، في برنامجٍ ما، وأعودُ للبيت، لتناولِ دواء الروماتيزم! وانتظار موعد إعادة الحلقة!

المزيد من الأسماء، والتواريخ المتداخلة، سَندات بتحويل مبالغ ماليَّة كبيرة، عناوين صغيرة تتفرق في أوراق لتلتقي في أوراق أخرى بفوضى وبلا معنى، فكَّرتُ بضيق وقد أصابني دُوارُ الورق، أنَّني سأقضي أعواميَ القادمة، في فتح الأقفال المحيطة بهذا الوزير المقتول، وأنَّ رامي سيعثرُ عليَّ منتحراً في المكتب إذا سجِّلت التهمة ضد مجهول، لأنَّني سأوقِّع تلكَ الكلمة، ثمَّ أضعُ رصاصة رحيمة في جمجمتي المتصدعة، مِن كلِّ البلاوي الزرق التي تملأُ حياةَ هذا الوزير كما غيره من الوزراء، لطالما عَرَفتُ عنِ الفساد في الدولة، ولكنَّني أدركتُ متأخراً، أنَّ كلَّ هذا الزبد المتراكم لسنوات لم يذهب جفاءً، وأنَّ تمثالَ الأحلام الذي شيدتهُ أصابعُ المراهقة، متشقِّقٌ من أعلى رأسه حتَّى أخمصِ قدميه.

مَخالب الوقتِ تنهشُ في الســاعة الثالثة بعدَ منتصفِ الليل، وحيداً بيــنَ تلَّةٍ من الــرزمِ الملفوفة التي تفوحُ منها رائحةُ الغبار والعثة، وقدِ امتــدت أيــادي النعاس لتطبقَ على عيني، زادَ ثقلُ رأســي وأنا أهوي علــى كومة جرائد كتبت عن بعض المحاكَمات الســرية، وفي لحظةٍ برزخيــةٍ بينَ الوعي واللاوعي، توهَّجَ أحدُ الأســماءِ بينَ الســطور، ارتطمَ رأســي بالهواء عِندما انتزعتْه عنوةً من قبضة النوم، وتفتَّحت في عينيَّ وردتانِ حمــراوان كالدِّهان، وأنا أعيدُ قراءة الخبر، وأتتبَّعُ حروفَ ذلكَ الاسم جيداً، إنَّهُ هوَ بلا شك!

أعدتُ نبــشَ الجرائد التي صدرت بذلكَ التاريخ، أعدتُ مشــاهدةَ نشــرات الأخبــار، وقــراءة التقارير، لاحقــتُ العناوين والأســماء، لســاعات وعلى ورقــةٍ بيضاء دوَّنــتُ كلَّ المعلومات التــي تجمَّعت لتصبــحَ أحجيةً حمراءَ، تتشــبثُ بضريح توت عنخ آمــون، وتتوهجُ تحتَ الشــمس الصامتة، التي لوَّحت بنهــارٍ مُغبَر هَجمَ عليَّ فجأةً بعدَ تلك الليلةِ الطويلة.

وفي حركةٍ راكضةٍ، قفزتُ إلى السيارة، وأشرتُ للسائق بعصبية، «وزارة الداخلية»!

طوالَ الطريق، كنتُ أقذفُ هلوســاتي على نفسي، وأعيدُ الاتصال بوزير الداخلية الذي لا يردُّ على أيِّ خطّ من الخطوط!! والذي لا أعلمُ كيفَ ستكونُ ردةُ فعله التي سيتلقاها عِندما أقابله، وأسألهُ عمَّا عثرتُ عليه، أحسَســتُ أنَّ قلبي يهوي في حفرة المســافة بيــنَ قضية مُبهمة وخيطٍ يلوحُ كخيالٍ خجولٍ، شعرتُ بخوفٍ يطوِّقني من حيثُ لا أعلم،

فيمــا كانت أمعائي تتقلصُ أكثر، والعــرق المالحُ يتلوى على وجهي، عليَّ أن ألمَّ أجزاءَ نفســي التي تبعثرت فــي معركةٍ مفاجئةٍ بينَ العقلِ والعاطفة، عندما قرأتُ اسمَ وزيرِ الداخلية في تلكَ المحاكمة، فتماهى عقلي في ارتباكٍ غير قابل للترويض...

في اللَّحظةِ التي وصلتُ فيها مبنى الوزارة، لم أنتبه لعدد السيارات المتكدســة، علــى الباب ولم أنتبــه لعدد رجال الشــرطة والمخابرات والإســعاف، فقط قفزتُ من سَــرَحاني، وابتلعتُ المسافة صعوداً إلى مكتب الوزير لاهثاً وراءَ خوفي الذي يركضُ أمامي، وما إن وصلتُ حتَّــى تبيَّنَ لي أنَّ عليَّ أنْ أشــقَّ طريقي وســطَ جمهــرةٍ من الرِّجال، وأتساءل ما الذي يحدث؟!

كانت ســاعة الحشر، وكان مبنى الوزارة هوَ أرضَ المحشر! ولا أعلم ما الذي يحدث..

فقــط تابعتُ الهرولة بينَ الوجوه، بيــنَ الصرير الذي تنفثُهُ الأفواه بهمسٍ حولي، لم أســمع شــيئاً واضحاً، ولكنَّ العيونَ كانت تتحاشاني وتفسحُ لي ولخوفي الطريقَ لنمرَّ إلى الداخل.

لاحَ لــيَ المكتبُ، بينَ الأجســاد، ولاحت لي عينــا الضابط رامي الذي وقفَ أمامي في حركةٍ فطريةٍ لحجبِ منظرٍ مؤلمٍ، ما الأمر؟!

انجرحَ صوتي وأنا أشــحذُ سؤالي، ابتلعَ رامي كلاماً كثيراً، أشاحَ بعينيــن لامعتين، إلى الأرض، وقال: لقــد حاولت الاتصال بك ولكنَّ الخطّ كانَ مشــغولاً دائماً، ثمَّ مرَّرَ لســانهُ على خشــبتينِ كانتا شــفاهاً

قبلَ لحظة، وقال: أعلمُ أنَّ الأمر سـيكونُ قاسـياً ولكـنْ... وضعَ يديهِ على كتفيَّ في تطويقٍ أبويٍّ وديعٍ، ولمْ يُكمل جملته، لأنَّني أزحتهُ من أمامي، ثمَّ ابتلعتُ هواءَ الغرفة دفعةً واحدةً مُطلِقاً، شهقةً مذبوحةً......

لقد قُتلَ وزيرُ الداخلية!!

تعازيَّ الحارَّة سيد آدم، على فقدانِ والدِك!!

لم أسمعْ ولم أرَ شيئاً، ركعتُ على الأرض بجوار الجثة، وتيبَّستُ لاثنيـنِ وثلاثينَ عاماً مرّت في ثلاثِ دقائقِ، ثمَّ بكيتُ على جثَّةِ والدي حتَّـى أصبحَ لونُ الـدمِ وردياً، حيـنَ اختلطَ بدموعـي، وأصبحَ طعمُ الهـواءِ أجاجـاً، وأصبحَ صوتُ نحيبي كمحراثِ حقلٍ قديمٍ يسـيرُ في أرضٍ خاويةٍ، لا يستطيعُ سماعَهُ أحد!!

لثلاثـة أيَّامٍ تُركَ بيتُنا لتلتهمهُ أفواجُ المعزِّين، جسـدي الذي وقفَ كفزاعةِ الحقل، يمدُّ يداً من خشبٍ وقماشٍ، ويسلِّمُ بها على الناس، هَو الـذي صَفَعَ والدتي بخبر تحوِّلهـا إلى أرملة الوزير المقتول، ولم يقل شيئاً بعدها!

فقد سارَ خيالاً صامتاً وراءَ نعشٍ مكللٍ بالأزهار والحسرة، حضَرَ التأبينَ العسكريَّ كما يليقُ بابنِ وزيرٍ عاشَ حياتهُ مفتخراً بأبيه.

تذكَّـرتُ ذاتَ صباح عندما وجدتُ عصفـوري ذابلاً، يحزُّ الهواءَ بأنفاسٍ مذبوحةٍ، أخرجتهُ من القفص مرتعشـاً، رفعتهُ بيدي، ثمَّ قذفتهُ بخوف وقلت: هيا طرْ! لكنَّه هوى على الأرض، كتحفةٍ خزفيّةٍ باردةٍ، تلمَّستهُ برقَّة، ثمَّ رشحَ أنفي الصغير، وصرختُ باكياً، وجاءتني لطمةٌ

عسكريةٌ، برتبةِ ثلاث نجوم من والدي، قالَ لي: من أرادَ أن يصبحَ رئيساً ويحمي بلاده، عليهِ ألا يبكي كالفتيات على عصفور، صمتُّ للحظة، فكَّرتُ فيما قالَ والدي! وبكيتُ بصوتٍ أعلى، فاحتضنني، بكيتُ أكثر، فضمَّني أكثر، ثمَّ أحسَسْتُ شيئاً دافئاً يمشي على وجهي غيرَ دموعي، رفعتُ رأسي فوجدتُ حفرةً صغيرةً في صدرِ أبي، وشلَّالاً قرمزياً يندلقُ على البدلة الرسمية، ووجهاً أزرق، فَرَكتُ عينيَّ بفزعٍ، فلاحَت ليَ الجنازةُ العسكريةُ بهيبتها القاتمة، ألقيتُ نظرة أخيرة على النعش، قبلَ دفنهِ، وشعرتُ بحرارةٍ في خدي الأيمن كأنَّ صفعةَ والدي استيقظت الآن بعدَ كلِّ تلك السنينَ!!

أردتُ أنْ أبكي، ولكنَّ حِضنَ والدي كانَ بعيداً، أبعدَ من المسافةِ بينَ كلمةِ أبي التي أناديهِ بها في البيت، وكلمة سيدي الوزير التي أناديه بها في العمل، كما أمرني، أن أناديه، وألا أتحدثَ معهُ إلا في شؤونِ العمل، وألا أبتسمَ لهُ ابتسامتي الطفولية، وأنْ.. وأنْ... كلُّ تلكَ الأوامر التي نفذتُها لا تعني لي شيئاً الآن، فقدَ فشلتُ في مهمتي الأولى، وقد فقدتُ الشخص الذي أردتُ أن أنجحَ لأجله.

من أرادَ أنْ يُصبحَ رئيساً، ويحمي بلاده، عليه أن يبكي كالرجال على والده.

وبكيتُ أكثر.

الحزن!

ما هوَ الحزن؟!

سألتُ والدتي بعدَ أنْ تركتُ على فُستانِها الفيروزي بحيرةً مالحةً نتيجة ساعتينِ من البكاءِ، على ذلكِ العصفور!

قالت لي: هل يؤلمُك شيء؟!

أجبتها: نعم!

يؤلمُني الجانبُ الأيسرُ من صدري، من الداخل!

وضعت يدها على قلبي، وقالت: هُنا؟!

– نعم! ولكن من الداخل! لا يُمكنكِ الوصول إلى هُناك! إنَّهُ عميقٌ جداً يا أمي!

وقتها! أبعدت يدها عن صدري، وزمَّت فَمَها بريبة!

لم يكُن قلبي، بل كانت روحي التي تؤلمني، ووجع الروح أكبر بكثير، لأنَّه لا يستطيعُ إنسانٌ الوصولَ إلى روحِ إنسانٍ آخر.

لا أحد يعرف أينَ تقعُ الروح لا أحد!

كم مرةً انكَسَرت، وكم مرّةً سأنكسرْ أيضاً!

كنتُ وقتها قد جلسَتُ مع نفسي إلى نفس الطاولة في ذات الزاوية المظلمة من قفصي الصدري، وبدأتُ أتجاذب معها أطراف الحديث وأنا أحدِّقُ في الأسود الذي يَلبسُ والدتي! ويليقُ جداً بأسودِ عينيها، وحزنها الذائبِ زمناً في كُحلٍ لَم تُغيِّرْه يوماً.

هيَ لم تحبَّ والدي يوماً! كانَ بروتوكولاً إضافيَّاً على لائحة

«البرستيج»، الذي حفظتهُ عن ظهرِ قلب منذُ ألقتها أُمُّها على الشرشفِ الحريري، ولم تقبل إرضاعها حفاظاً على قوامِها، وهكذا كَبُرَتْ كأي أميرة، جدَّتي كانت أمَّها للصور والحفلات، وهيَ كانت ابنةَ كلِّ الخادمات اللواتي مررنَ على قصرِ والدِها، والتي كانت آخرهنَّ، من ساعدتها في حزمِ حقائِبها لتنتقلِ إلى بيتِ زوجها!

أبي!

هيَ لم تحبَّهُ يوماً، ولكنَّها كانت امرأةً مخلصةً، كسنديانةٍ عتيقةً، شرَّشت في الأرض، ونثرت ظلَّها الوارف على كل شيء يمرُّ قُربَها!

هيَ كانت أوَّل نبيِّةٍ أرسلها اللهُ إلى عيني، وهوَ كانَ قدّيسي الأزلي، وكنتُ أحبهما معاً!

وهكذا عشتُ في هذا المحرابِ خاشعَ القلب، راضياً، أعرفُ أنَّ عينَيهما لا تلتقي!

ثمَّةَ حاجزٌ زجاجيٌ بينهُما يمنعُ وصولَ الصوتِ والمشاعر، يريانِ بعضهما، ولكن لا تلتقي الأعينُ أبداً، شخصيتان متناقضتان تماماً، كأنَّ كلَّ منهما عاش حياتهُ على كوكبٍ بعيد، وفي لحظةٍ قدر محضة سقطا في نفس البقعة الجغرافية والزمنية، هيَ تحب الشعر، وهوَ يكره الشعراء، هوَ يحبُّ صوتَ المدافع، وهي تحب الموسيقى، عاشَ كلُّ منهما في جناحٍ مستقلّ عن الآخر ربَّما منذُ بداية تشكُّل الذاكرة الواعية لدي!

الشيء الوحيد الذي كانَ يربطهما، أنا، ومايا!! ونحنُ الآخران

مخلوقــانَ من طينةٍ مختلفة، وبالتأكيــد كلٌّ منَّا جاءَ من فصيلةٍ مختلفة من القرود، على رأي داروين! ووالدي المرحوم أيضـاً؟!

كانت لديه تلكَ القناعة الراسخة أنَّ أصلَ الإنسان قرد، وهذا شيء آخر يختلفُ فيهِ عن أمِّي، فهيَ تعتبرُ هذهِ النظرية من اللَّوثاتِ الفكرية التي تُفسدُ طهارة البشر!

البشر أصلهم بشر ولا شيءَ غيرُ ذلك..

فــي النهاية عشــنا جميعــاً، كانت أمــي الجنِّيةَ الطيبــة التي تحقق أحلامنا، وتنثرُ غبارها السحري علينا، وتلقي تعويذاتها على أرواحنا، وأفكارنـــا، وحياتنا، وقد تأثَّرتُ بهــا كثيراً، فقد كنتُ ذلك الآدم الرقيق الذي يربي العصافير، ويحبُّ الاعتناء بالحديقة، ويشبه والدتهُ كثيراً.

ولكن في مرحلة ما! سـيطرت عليَّ هيبةُ والدي، وزيرُ الداخلية! وشيئاً فشيئاً، أصبحتُ أتطلَّعُ إلى هذا الجبلِ البشريِّ ذي العين الواحدة، صوته، مشـيته، خـوفُ الآخرينَ منــه جعَلهُ تحفةً غيــر قابلة للمسّ، والنقد، وبدأتُ أشـبهه أكثر، وأقلدهُ أكثر، أرتــدي مثله، أتحدث مثله، وهــوَ قرَّبني إليه، نَسَــخني منه، ألقى عليَّ ختمــه الخاص، فأصبحتهُ لــولا تلكَ اللعنــة الوراثية التي جعلتني أصلع، وتلــكَ العينَ الإضافية على وجهي!!

أمِّــي كرهت تحوّلي هذا، واكفهرّ وجهها عندما قلتُ لها أنني أريد أن أدرس في الكلية الأمنية، أشــاحت بوجههــا عنّي، يومها لم تذرف ولا دمعة!

ولكنِّي متأكد أنِّي سمعتُ صوتَ بكاءٍ ما من الداخل!

الآن تستيقظُ الذاكرة على صوتِ المنبه الخاصِّ بها، تُطفئه بلطف! وتقومُ من نومتها، وتحضر أمامي بكاملِ عتادِها وأسلِحتها، وتشرعُ في تعذيبي يوماً بيوم، ولحظةً بلحظة!

وددتُ أن أقولَ لأمي أنَّني مهما تأثرت بوالدي إلَّا أنَّ تعويذاتها السحرية كانت أقوى من كل شيء، فلازلتُ رقيقاً جداً كفقاعةِ صابونٍ تستعدُّ للانفجار في أيِّ لحظة؟!

أتساءل غداً عِندما أقفُ أمامَ المرآة لأرتِّب ثيابي هل سأرى نفسي من جديد؟ لأنَّ الشخص الذي كنتُ أراهُ بها قد رحل!! أمْ أنَّني سأراه!!

ذلكَ الذي قَتَلَهُ، أيَاً كان! أصبحَ ثأريَ الخاص؟ وغريميَ الأزلي! لو احتاجَ الأمر أن ألحقَ به إلى ثقبِ إبرة سأفعل؟!

* * *

(6)
- الحيطان ليسَ لها آذان! -

كلَّما تذكّرتُ جثمانه الصامت، انطبقَ صدري كلوحينِ من الأسمنت، لو لا خيطُ العنبِ الذي كانَ ينسحبُ من وراءِ البدلة البيج، جهةَ القلب، بأَنَاةٍ وطمأنينة، لظنَنتُ أنَّه منحوتة شمعية متقنة، أنهاها نحَّاتُها للتوّ فقط، جسمهُ الذي لايزالَ دافئاً، ورموشه مبللة بما يشبهُ الدمع، وفمهُ لم يصبح أزرقَ بعد، ملامحهُ المسالمة، إغفاءتهُ المطمئنة، تدلُّ أنهُ كانَ مستسلماً جداً، وأنهُ انتظرَ هذهِ اللحظة طوالَ حياته.

لِماذا ماتَ في ذلك اليوم بالذّات! في تلك المرحلة؟! لا أدري هل أتعجبُ لمقتله المفاجئ، أم لمقتله عِندما أصبحتُ بحاجة إليه في تلك القضية؟!

عِندما قالَ رامي إنَّ وفاةَ شخصيةٍ مهمَّةٍ تعني أنَّ هُناكَ سرّاً كبيراً يحتضر! كانَ صادِقاً جداً.

عليَّ أن أبدأ الآن من الصفر، الصفر جيد كنقطةِ انطلاق، تتساوى عِنده كل الاحتمالات الموجبة والسالبة، وتختفي كل الكسور، تُصبحُ في قيمتها العَدَمية، وهكذا الإنسان عِندما يصل إلى تلك المرحلة التي لا يُريدُ فيها شيئاً من الدنيا، تتساوى رغبتهُ في الموت والحياة، وتنعدم عِندهُ كل المُتَع والشهوات، لقد وصلت لتلك المرحلة يوماً ما!

من الذي انتشلني من ضريحي، فاتن! أمِّي! أبي! ليست مايا بالتأكيد إنها تعيش بعيداً جداً في بلاد العجائب... ربَّما كانَ القدر من انتشلني من تلكَ العتمة، لأسقط في هذهِ اللُّجةِ الثقيلة!

المُهم أنَّني خرجت لأعلق في شِباكِ هذهِ المهمَّة، عِندما قررتُ الالتحاق بالمخابرات وساندني والدي، كنتُ أريدُ الهرب من آدم الذي قضى عاماً ونيف في إحدى المصحَّات النفسية، أردتُ الهرب من الثوب الرمادي المفتوح من الخلف، وإبر المهدئ التي كانت تندسُّ في جلدي كلَّما خرجَ ذلكَ الحيوانُ من أعضائي في نوبات الصراخ، والغضب.

أردتُ الهرب من رائحة الخوف! من أنفاسي التي تقطعُ الغرفة جيئةً وذهاباً في محاولةِ الوصول إلى ما بعد النافذةِ المغلقة! من الباب الموصد دائماً حتَّى بعدَ إبر المهدئ، حتَّى عِندما خرجتُ من هُناك ظلَّت قطعةٌ منِّي في تلك الغرفة، قطعة أعود إليها كلَّما احتجتُ للاختلاءِ بنفسي، وكلَّما تذكرتها!!

الآن أشعرُ بسطوتها عليّ، بالذات بعد مقتل والدي!

هل كانَ عليَّ أن أصرفَ السائق اليوم، قالت لي فاتن إنَّه من

الخطــر أن أقودَ لوحــدي وأنا في هذا الوضع، ولكنِّــي ركبتُ عقلي، الذي يركلــهُ الصداع من كل اتجاه، مما يفقدنــي التركيز في الطريق الخالية من المارة!!

البلد يســير إلى مــا لا يُحمدُ عقباه، قتلَ وزيــران، ونائب، فُجِّرت عدة مراكز للشــرطة، المظاهرات في كل مكان، والثورة تكشِّــرُ عن أنيابها من بعيد!!

المخبِــرون هُنا يواصلونَ الليلَ بالنهار بحثاً عن أســماء، وأرقام، عــن خيطٍ نحيلٍ يوصلُ لشــيء، عن طفلٍ يفكرُ فــي رمي حجرٍ على دورية شرطة! عن شاعرٍ يمسكُ ورقة بيضاء، ليكتبَ بها قصيدة عن الثورة وحب الوطــن، عن طالبٍ جامعيّ يُهرِّبُ قصاصَةَ بيانٍ ثوري فــي كتاب التفاضل! وعَن أمٍّ تحرِّضُ أولادها على تَجاهل تحية العلم، وهي تدسُّ لهم سندويشــات الجبنة الرخيصة في الحقيبة المســتعملة! عن شــيخٍ مسجد لا يتلو ما كتبناهُ له بالقلم الأحمر لخطبة يوم الجمعة، كلمةً كلمةً، وآيةً آيةً!

وعن أفعال المستقبل التي لم تحدث بعد...

وعَن وعَن...

كلَّما قيدناهم أكثر خافوا، هذا ما كنَّا نظنه! ولكن كلَّما قسونا عليهم ثــاروا، وخِفنا، نحنُ لا نفعل ذلك إلَّا لأننا خائفونَ منهم، نحنُ خائفون من ماضينا الأسود القادم مع أولِ قطار في المحطة لِيُطيحَ بنا جميعاً!!

هكــذا قالتِ ليَ الشــوارع الخاليــة، والمحالُّ المغلقــة، واللافتات

المكتوبة بالأحمر المتوهِّج عن الثورة، والإنسانية، وعن حرية عزيز لطفي الذي مســحوا اسمه من شريط الأخبار، لقد دخلَ أرشيفَ الدولةِ الآن، وحُجِزَ لهُ جناحٌ كاملٌ في فندق «ما وراء الشمس»، ولكنْ دائماً هُناكَ نُقطة ينهارُ عِندها أحدُ الطرفين!

من سينهارُ أولاً الشعبُ أمِ الحكومةُ!

في هذهِ الفترة أصبحتُ أنانياً جداً لا أفكرُ بالثورة، ولا بالدولة، فقط أريدُ أن أعرفَ من الذي قتلَ والدي ولماذا؟!

الأســئلة المبهمة تثيرُ فيكَ شهوةَ البحثِ والسؤالِ، تؤرِّقُ تفكيرك، تســجنُكَ فيها! فكيفَ لو كانت تلكَ الأســئلة عن شخصٍ عزيزٍ عليك! وكيفَ لو رحلَ هذا الشخص قبلَ أن يجيبكَ عنها!!

لقــدَ كانــت لديهِ إجابةٌ ما بالتأكيد وكنتُ أريدُ ســؤاله يومها، ولكنَّهُ اختار الموت! نعم!! أحياناً لا أستطيعُ إلَّا أن أحمّلهُ بعضَ الذنب على ما حدث!

فأنــا غارقٌ في هــذا الأمر وحدي الآن، لم أســتطع أن أقولَ لأحدٍ عمَّــا توصلتُ إليهِ تلكَ الليلة، كنتُ أحتاج دليلاً واحداً، ولكنَّ شــخصاً ما وضعَ رصاصة في منتصفِ جبهته، وترَكني أعود من الصفر!

صحيح الصفر ثانيةً..

عِندمــا وصلــتُ إلى المكتب أرســلتُ في طلب رامــي! كانَ وجهُ السكرتيرِ كلون البهارات الهندية أصفر وباهتاً، رفعَ السمَّاعة وضغطَ الأزرارَ ببــطء، جَعَلني أحدِّقُ فيه، وأنســى يــدي ملفوفة على مقبضِ

البـاب، الجميـعُ أضحى خائفاً بالـذات بعد مقتل وزيـر الداخلية، فقد أصيبـت الأجهزة الأمنية بالسُّـعار، تدفقوا إلى الشـوارع، والبيوت، والحارات، كأنهم جرادٌ منتشر، يشتمّونَ البشر في كلِّ مكان، يعتقلونَ هذا، ويضربونَ ذلـك، ويؤذونَ تلك، حتّى بدت،بعض المناطق كأنها خاوية على عروشـها، وقبلَ يومين، تمَّ فـرض حظر التجول في كلِّ الشـوارع المؤدية، إلى المباني الحكوميـة المهمة، ولكنَّ ذلكَ لم يمنعِ الشباب الغاضبين، من استهداف كل ما تفوح منه رائحة الدولة!!

حتّـى زرعـوا المتفجرات في السـيارات الحكومية، والأسـوار، والمباني التي اسـتطاعوا الوصول إليها، لا أستغربُ العيونَ المطوّقة بالذعرِ والريبة!

المكتـب كما تركته، الأوراقُ والجرائد ممـددة، هُنا وهُناك، مبعثرة كمقبرةٍ نُبِشَت حديثاً، النوافذ مغلقة، والضوء البارد أصبحَ شاحباً من قلَّةِ النوم! لقد أحسنَ الحرَّاس إذ التزموا بعدم لمس أي شيء فيه كما أمرتهم.

طُرقَ البابُ، وأنا أزيحُ السـتائر لتندفعَ الشـمسُ مـن النوافذِ بكلِّ الاتجاهات، لم ألتفت للطارق، تَركتُ الضوءَ يُشعِرُني بقوته، تملَّكتني تلـك الرهبة التي كنـتُ أحسُّ بها قبلَ رؤيةَ والـدي، علمتُ أنَّ رامي سـيأتي لي بفيديو الجريمة، كما فَعل في الجريمتين السـابقتين، وكنتُ غيرَ مستعدٍ أبداً لرؤيته في آخر لحظاتِ حياته!

وقـفَ رامي أمامي بثبات، قدَّمَ تعازيهِ مرة ثالثة، ونَظرَ إلى عينيَّ مباشـرة، الكثير من الكلام يكمنُ وراءَ العيون المشـرعة ككتابِ ألفِ ليلةٍ وليلة!

الكثيـر من الحقيقة أيضـاً، التي لا تخرجُ أحياناً من تحت الألسـنةِ الساكنة، والأفواهِ المطبقة!

لا أسـتطيعُ أن أتحمَّـل رؤيـة مقتله!! قُلـتُ ذلكَ فجأةً فانكسـرت نظراته، وأمالَ رأسـه بزاويةٍ صغيرة تجاه الأرض، ونظرَ إلى ركنٍ ما في الغرفة، إنَّهُ يُخفي شيئاً!

– ما الأمر؟!

– لا يوجد فيديو لمقتل وزير الداخلية!

– لماذا! أحسستُ أنَّهُ يشعرُ بالإشفاق عليّ، مَنِ الذي يريد أن يُرِي شخصاً فيديو لمقتلِ والده؟

حـاوَلَ أن ينظـرَ إلي، حـكَّ جبهتهُ بتصنّع وقال بهـدوء: لا يوجد فيديـو، لأنَّ وزير الداخلية أمـر بإزالة الكاميرات في مكتبه، وفي كل الطابق، بعد مقتل نائبه!

وكأنهُ سـكبَ عليَّ دلواً من صهير بركانٍ اشـتعلَ حديثاً، فارتفعت حرارةُ رأسـي فجـأة، وأصبحَ صوتي يخرج كريـحٍ تحتكُّ في مدخلِ كهفٍ فتصدرُ صريراً مبحوحاً، لا يُساعدُني على الصراخ...

– والدي فعلَ ذلك، لماذا! يا إلهي، ما الذي يحصلُ حولي سـوفَ أجنّ!!!

شـحنتُ يدي بقهرٍ مكتومٍ، وضربتُ الطاولة بهما، دارَ بؤبؤُ عينيَّ في دوائرَ عشـوائية مفرغة، ثمَّ توسَّـعَ فجأةً عِندمـا أضاءت الغرفة،

تزامنــاً مع اصطــدامِ الهواءِ بأذنــي بصوتٍ انفجــاريّ، جعلَ الأثاث يقفزُ في مكانه، والأرض تهتزُّ كأنها في بروفة لزلالٍ قريب، ســمعتُ صوتَ جســدي يرتطمُ بشيء صلب، وبعدها ســمعتُ صوتَ انكسارٍ ما! لم أعلم لماذا، ولكنني أمسكتُ بيدي من المنتصف!

بدأ الدخانُ ينفلتُ هارباً من الانفجارِ ويتجمَّعُ سحائب سوداً حولنا، حتَّى لم أعد أرى وجهَ رامي، ولا أبصرُ شــيئاً حولي، استعنتُ بفتاتِ الضوء المتناثر حولي للبحث عن هاتفي، وعِندما وجدته، لم أســتطع أن أحرِّك يدي، أحسســتُ بالقميــصِ يزدادُ ســخونة، واللحم والدماء يلتصقان به، ثمَّ شممتُ رائحةَ لحمٍ وشعرٍ مشويٍّ!

لم أعرف من الذي أخبر فاتن بالحادث، كما لو أنها أرسلت نفسها عبر الواتس آب، وجاءت إلى المشــفى، بالتأكيــد تبدو بحالة مزرية، هذا واضح من عدم تناسق ثيابها، قلتُ لها للمرةِ الألف ليسَ إلَّا كسراً فــي يدي، وبعض الحروق من الدرجة الأولى، لن تبقى كوشــمٍ أبدي على جسمي، للأسف!!

ولكنَّهــا تابعــت إخراج المناديل مــن حقيبتِها، وتغميســها في ماءِ عينيهــا، كنت متألماً جداً، ولكنَّ شــكلها أضحكني أيضــاً، إنَّها امرأة صلبة جداً في الحياة العملية، ولكنَّها حمقاء في الحب؟!

وفيمــا كانت ترجوني أن آخذَ أســبوعَ إجازة، كنــتُ أهاتفُ رامي الذي أصيبَ إصابةً طفيفة، جاءَني صوته غاضباً، لم يتوقَّع أن يزرع أحدٌ قنبلة بهذه القوَّة في مبنى المخابرات من الداخل، ذلكَ الذي وضع القنبلة، أصابَ جبهةَ المخابرات من المنتصف!

حاولتُ تهدئته، ولكنَّه كانَ غاضباً بتلك الطريقة التي تُشعِرني أنَّه في وسط تفاعلٍ كيميائي حرج لا يمكنهُ إيقافه، كما لا يمكنهُ إخراجُ نفسهِ منه، عليكَ فقط أن تنتظرَ حتَّى ينتهي الأمر، ويعثروا على المشاغب الذي فعل ذلك!

وكأنَّهُ تنقُصنا قضايا أخرى، قلتُ له!

عِندما قلتُ له ذلكَ انقطعَ صوته وكأنه تذكر شيئاً ما، سمعتُ صوتَ تنهيدةٍ تنسحبُ للداخل بحدّة، وصوتُ رامي عادَ ثابتاً كانَ يحاولُ أن يقولَ لي أمراً ما، أرادَ أن يقولهُ من الصباح، ولكنَّ الانفجار أجَّله...

شَعرتُ بالاشتعال فجأة، هبَّت نارٌ في صدري من حيثُ لا أدري، استنطقتُ رامي، فابتلعَ ريقه، وبدا أنَّ ثمَّةَ أخباراً أخرى على وشكِ الاندلاقِ من فمه!

– هناكَ، أمرٌ مهمّ!! قالها بسرعةٍ كطفلٍ يحاول التملصَ من التأنيب.

ازددتُ انقباضاً، وتوقفتُ عن التنفس كي لا يعقيني عن سماع الخبر!!

– لقد كنتَ مشغولاً بالعزاء، لذلكَ لم أخبرك، ولكنْ، ستكونُ الأيام القادمة، أكثرَ سخونة، لأنه... تلعثمَ كثيراً قبلَ أن يقولَ جملته، ثمَّ أطلَق سراحها من بينِ أسنانه.

لقدَ اعترفَ عزيز!!

– بماذا؟؟

اتســعت عينا فاتن عن آخرهما، وشهقت! عِندما سَقطَ الهاتفُ من يدي.....

بعدها بساعة عدتُ إلى المكتب، كانت مجرَّد خطوةٍ ارتجاليةٍ يقومُ بهــا حصانٌ جريح خرجَ من مضمار الســباق، تفقــدتُ الأوراقَ التي طوَّحَ بها الانفجار في كل مكان من الغرفة وحاولتُ أن أجمعَ أشــلاءَ ما توصلتُ إليه قبلَ مقتلِ والدي، قبلَ القيام بأي شيء....

نظرَ إليَّ رامــي، وأنا أبحثُ وألمُّ الأوراق وأضعُها فوقَ الجبيرة، ما الذي تستطيعُ حملهُ بيدٍ مكسورة! وكأنما قالَ ذلكَ بعينيه المشفقتين!

منــذُ ألقى في أذني خبر اعتراف عزيز بالتخطيط للتفجيرات وقتل الوزيرين والنائب!

وأنا أسـبحُ وحدي في دوارِ الدهشة! هذا العزيز أفلتَ مني مرَّتين الأولى عِندما خطط لكل هذهِ المصائب، ونفذَّها وهو سجين!

والثانيــة عِندما اعترفَ بما فعل، لقد أفقدني لذة الانتصار، نشــوةَ الانتقام! لقد أفسدَ عليَّ بهجةَ العثور عليه، وتسليمه إلى العدالة، وجرَّه إلى حتفه!!

لقد انتصــرَ مرَّتين، وهُنا انتهت مهمَّتــي، وانتهت رغبتي في كل شيء....

ليسَ كل شـــيء، بقيَ شـــيءٌ واحد، تلقَّفتهُ من رغبتي اللاواعيةِ في فعل شيء ما كديكورٍ نهائي كوني الضابط المسؤول عن هذا التحقيق!

ولحظتهــا وَضَعْتُ يديَّ على وجهي، لأمنعَ ضجيجيَ الداخلي من الانفــلات في وجهِ كلِّ شـــيء حولي، وكأنَّ الأقدارَ تمسِــكُ هراوتها، وتضربُنـــي على رأســـي ضربةً تلوَ الأخــرى، وعندما هبطَ صدري، قلتُ لرامي بهدوء: أريدُ أن أقابل عزيز!

رامي الذي كانَ يســتعدُّ لأي ردةِ فعلٍ غريبـــةٍ مني، رَفعَ يديهِ إلى جانــبِ رأســـه وحيَّاني بطاعة: أمــركُ حضرةَ الضَّابــط، ثمَّ انصرف بهــدوءِ بالونٍ يطفو على نهرٍ من الحمــم البركانية، لا يعرفُ كيفَ لم يتلاشَ إلى الآن!!

* * *

[7]
عزيز



كلُّ شـــيءٍ يبــدأُ مِــنْ هُنـــا، قُلْتُ لنفســي عندما وصلــتُ إلى مكانِ اعتقــال عزيز، ظلَلتُ أهزُّ قدمي، في توترٍ مُعلنٍ وأنا أنتظرُ إحضاره لـــي... بينَ جدرانِ هذا الســجن يتكــوَّم المئات من القتلـــة والمهرِّبين، والمغتصبين، والمســوخ البشــرية، والزومبي، والمثقَّفين والشــيوخ، والعلماء، والأبرياء أيضاً!

إنَّهُ ببســاطة الخــلَّاط الوطني العام، كل نائبــة تحدث هنا، تضفى عليهــا صفة الرســمية، تبهَّــر بالوطنية، وتنكَّه بالأمــن العام، وترشّ عليهــا زينة المصلحـــة الوطنية، المســاجين هنا نزلاء ســجن خمس نجوم وأعلى، لا زيارات، ولا مكالمات هاتفية، ولا ثياب، ولا طعام، النــزول هُنا هو النزول في أوَّل مراتب النار، والســجانون من خزنةِ جهنم، وكل يومٍ تســمعُ لهُ شــهيقاً وهوَ يفور، ويقولونَ له هل امتلأتَ؟ فيقول: هل من مزيد؟!

إنَّهُ المسلخ المركزي في الدولة، لم أفكر بدخوله قبلَ، كنتُ ولازلتُ أعتبرهُ علامة سوداء على جبين الدولة، والإنسانية، كالكثير من مؤسساتنا، كانَ أحد أهدافي أن أغلقهُ في المستقبل، وقلتُ ذلكَ لوالدي عدة مرَّات، وكانَ يعتبرُها إهانة! باعتباره مَعْلَماً أثرياً بسبب بنائه القديم جداً الذي يشبه الكهوف والمغارات، وبالطبع لا يُمكننا تفريغ قبائلَ البشر البدائيين منه إلى السجون المدنية التي تعج بالمجرمين الصغار، والأبرياء ذوي الجنح الصغيرة!

كانَ إحدى العقد المُحْكمة في حبلِ اتصالنا، وفي النهاية عزفتُ عن الحديث معهُ حولَ سجن الدولة المركزي، ولكنَّني اليوم جئتُ إليه بسببه، كانَ لدي تلكَ الرغبة الجارفة لرؤية قاتل والدي، لتفحُّصِ ملامحه، لقراءةِ وجهه، لأشمَّ رائحة دم والدي على يديه، ربَّما رغبتُ في إشباعه ضرباً! هل سأفعلُ ذلك؟

وسطَ هذا الغزو الذي يتعرَّض لهُ عقلي، بينَ ما يجب! وما حدث! بينَ السبب والنتيجة؟ أردتُ رؤيته مرَّة واحدة وأخيرة! قبلَ أن يُصدر بحقه قرار الإعدام، بحسب ما أكده لي رئيس القضاة.

ظلَّ كأسُ الشاي أمامي يُطلقُ زفيراً دخانياً متدرجاً، وكنتُ أنظرُ إليه في قلَّةِ صبر، حتى هدأ قليلاً، وصارت أنفاسه خيوطاً شفَّافة تتهادى فوقهُ بانسيابيَّة، سمعتُ حينها صوتَ سعالٍ متقطعٍ يأتي من حنجرةٍ مثقوبة، متزامناً مع صلصلةِ سلاسلَ تحتكُّ بالأرض، تشبهُ صوتَ امرأة تغني الأوبرا وسطَ عاصفةٍ هوجاء فيأتي صوتها منكسراً، مذبوحاً...

وبعدها عبرَ البابَ، جاءَني جراً بينَ يدي ضابطٍ فظٌّ غليظِ القلب رمى بهِ على الكرسيِ أمامَي، فلم تتغيَّر ملامحه، ولم يرفع رأسه! حاولتُ أن أشكّلَ لهُ صورةً، ولكنَّ الدماء والكدمات التي حوَّلت وجهه لتضاريس متهالكة منعت دماغي من تكوينِ أي شيء، لم يَكن يشبهُ الوسيم الذي رأيتُ صورتَهُ في الملف، بدا كجنينٍ مشوَّهٍ ولدَ في هذا السجن، وكبرَ على حينِ غفلةٍ من الإنسانيَّة!

أشفقتُ على ذلك الإنسان، ولكنني شمِتٌّ بذلك القاتل! وشعرتُ بالقرف من نفسي في الحالتين!!

قلتُ له أنَّني كنتُ أريدُ أن أراهُ في زنزانته، ولكنَّ الضابط المسؤول رفضَ بحجةِ أنَّ الزنزانة غير مناسبة.

ردَّ عليَّ ببسمةٍ عجفاء، كانت أوَّلَ تعبير بشريٍّ طبيعيٍّ حصلتُ عليهِ منه، بالرغم من أنَّه فقد عدداً لا بأسَ بهِ من أسنانه!!

بل إنها لا تتسعُ لشخصين، قالَ وقد رفعَ رأسه، وضيَّقَ عينيهِ محاولاً النظر إليَّ مباشرة!

كما أنّنا لن نرى بعضنا جيداً، لأنَّها معتمة، ولأنني فقدتُ نظارتي أو نظري أثناءَ التعذيب!

بدا ذلكَ واضحاً لأنهُ كانَ يزمُّ عينيهِ في ضيق بسبب الضوء القادم منَ النافذةِ، تأمَّلتهُ للحظة، لم يشبه ذلكَ الذي كانَ يغلي ويفورُ حماساً وشباباً في تلكَ الفيديوهات، يبدو كَمن أماته الله مئةَ عامٍ ثمَّ لم يبَعْثه!

أَمرْتُ بخروج الجميع وإغلاق الباب، وبعدَ لحظةٍ تردد خرجَ

رامي والضابط، في ريبة، ثمَّ قمتُ بإسدال ستارة النافذة، كخدمةٍ نبيلةٍ لشــخصٍ يقضمُ آخرَ لقمةٍ لهُ مِن خبزِ الحياة، عندها توســعت ابتسامتهُ بضعةَ مليمترات، وأفلتَ كلمتين بوهن: أنتَ فعلاً مختلفٌ عنهم!

– مَن قالَ لكَ ذلك؟

– ما الذي تريدهُ منِّي؟ أجابَ بمكر!

كتمتُ غيظي، صككتُ على أسناني الخلفية ثمَّ قلت: من الذي قتلَ والدي؟ أريد اسم الشخص الذي أطلق الرصاص مباشرة!

أخفضَ عزيز رأســهُ، وقــالَ كمن يتلو صلاةً في كنيســة: تعازيَّ الحــارة، لم أكن أعلم أنَّ الأمر ســيصل لهذا الحد، ولكن كما يُقال، أنا ومنْ بعدي الطوفان!

استعرَ صدري، انتفضتُ، وشــددتهُ من قميصه: هل تسخرُ منِّي؟ هل تظنُّ أنَّ الأمر حفلةٌ تنكريةٌ، لقد قُتلَ وزيران، ونائب، والبلد تعمّهُ الفوضــى، ولا أعلم من ســيلحقُ بِهم، المعتقلــون والقتلى في ازدياد، الانفجــارات في كلِّ مــكان، أريدُ أن أعلم من الذي حوَّل البلد لســوقٍ من القتلة؟!

أنزلَ يديَّ عنه بوهن، وقال ببرود: لا أعلم من الذي فعلَ ذلك! لقد كنت في السجن طوال الوقت؟!

أنزلتُ يدي عنه، كانَ ثمَّةَ شــعاعٌ حادّ ينفلتُ من عينيه، ألقاهُ عليَّ لثانيــةَ ثمَّ أشــاحَ بوجهــه عنِّي، وقد لفحتــهُ هالةٌ من تأنيــب الضمير، والشفقة!

لــم أعلم هل كنتُ المقصودَ بها، أم أنَّني ضغطتُ على أحد أزرار الذاكرة فشغَّلتُ الجزءَ المسؤول عن شخصٍ ما!!

ابتلعــتُ كتلةً رطبةً علقت في منتصف حلقي، وابتعدتُ عنهُ قليلاً، وسألتهُ بحزمٍ واضح: ما الذي اعترفتَ عليه إذاً!

ظــلَّ يتطلَّعُ إلــى النافذة بعطــش، وأطالَ الصمت قبــل أن يُخرجَ كلماته بصوتٍ خفيضٍ!

– يا سيد آدم لقد خطّطت للتفجيرات، والمظاهرات، وقتل الوزراء والنائــب وغيرهم أيضاً، ووضعت لكل ذلك مصفوفةً محكمةً لا خطأ فيها، أخذت مني ليالي طوالاً من السهر، والتفكير، ولكني لا أعلم من الذي نفَّذَ هذهِ الخطة!!

نظــرتُ إليه، وقد التقطتُ صوته بالكاد، وهوَ لايزالُ يعيرُ نظراته للنافــذة! كانَ صوتــه هادئاً، وأنفاســه منتظمة كوليد نــامَ للتوّ، لم يَكُن هناكَ شيء ليخسره! لقد كانَ صادقاً!

ولكنَّ رغبتي بعدم تصديقه كانت تأكلُ بعضَ لحمي!!

أتبعتهُ ســؤالاً آخر، لنفتــرض أنَّك تقول الحقيقة، مــا الدافع وراء ذلك!

هُنا التفت إليّ، رفعَ رأســهُ تجاهي، ولكنَّــهُ لم ينظُر بعينيَّ مُطلقاً، شَــبَّكَ يديهِ في منتصفِ صدره، ورفعَ رجلاً فوقَ الثانية، أقل ما يقال إنها جلسة زعيم!

ابتســم ببــراءة، أو بمكر لم أســتطع أن أحدد!! ولكنَّه ابتســمَ بثقة

هيأتني لأصغي السمعَ، لِما سيتبعُ هذهِ الابتسامة الساحرة التي تتوسط وجهاً مدعوساً!!

بالتأكيد سيقولُ كلاماً مُهمّاً، الدافع يا عزيز الدافع.....

ونطق دونَ أن ينظُر إليَّ أيضاً..

– حسناً ما المقابل؟!

تأهبتُ مندفعاً: سأخفّف عنكَ المحكومية، أستطيع أن أفعلَ ذلك..

هزَّ رأسه، وضحك، ثمَّ قال!

– لا تهمُّني المحكومية كثيراً، ولكن حسناً، الدافع هوَ المال يا سيد آدم! نعم لا تستغرب؟!

لقد ولدتُ في أسرةٍ فقيرةٍ جداً، وكأنني جئتُ من العدم، ولمَّا لمستُ أول رزمةٍ من النقود شعرتُ بالبهجة، لم أنم طوال الليل وأنا أتلمَّسُها، وأشمُّ رائحتها، وفي اليوم التالي وجدتُني أطلب المزيد من المال!

والناس يطلبونَ المزيد من النوم! والموت...

كبرت الشبكة وتوسعت، أصبحت جزءاً من المافيا العالمية، وعِندما شعرت باقتراب الوصول إليَّ، رسمتُ خطواتي، ووضعتُ تفاصيلَ خُطتي، نشرتُ الفوضى، والذعر....

صمتَ قليلاً، ثمَّ تركَ حنجرتهُ تُفسحُ المجالَ لضحكةٍ ساخرةٍ، وتابع!

هل تعلم ما الذي يُحدثهُ الخوف، شـيئان لا ثالث لهما، إمَّا الرغبة في الموت وإما الرغبة في القتل!

وهنا يأتي دور السـلاح والمخدرات، لن تقوم مملكتي إلَّا بخراب مملكتكم، أيها الفسدة!

لقد نشـرتم الفقر، والبطالة، والجوع حتَّى أصبحَ الناسُ سـكارى، خائفيـن، يبحثونَ عن رغيف، ومخدر، وزاويـةٍ ينامونَ فيها ليتابعوا أحلامهم!

لقد نجحتُ هنا لأنَّ الناس تريدُ أن تنسـى، وتحلم، ولا تريد شـيئاً آخر يا صديقي!

إنَّهم لا يستحقون الأكسجينَ الذي يتنفَّسونه، إنَّهم موتى من الداخل، والأكسجين ليسَ للموتى!

من الأفضل أن يستمروا في موتهم! هل فهمت...

ظلَّت عينـايَ تتابعانِ فمه، ضحكاته، نظرته الباردة وهوَ يشـرحُ سياسته المريضة!

من هذا؟ هل هوَ كائن بشري!!

هل نحنُ الذينَ جعلناهُ مجرماً! هل قتل والدي لسبب تافهٍ كهذا؟ هل علقت في معركة بينَ شياطين!!

وهل عَلِقَ الشعب في معركة بين سماسرةِ الدم، وأرباب السلطة!

ازدادت رغبتي في التقيؤ والبكاء!! اهتزَّت مشاعري وشعرتُ بالبرد يسبحُ في أنسجتي كلِّها، والقشعريرة تطوفُ في جلدي، وقفتُ مترنِّحاً وأنا أستحضرُ كلَّ تلكَ الدِّماءِ التي شربها البلاطُ والأسفلت، الجثث والأشلاء! فازدادَ دواري!! أردتُ الخروجَ من الغرفة بسرعة، وقبلَ أن أفعلَ قال لي كمن يُنهي جلسةَ نقاشٍ مع صديقه:

– بالنسبة للشخص الذي نفَّذ ذلك، أعتقدُ أنَّهُ يُمكنني أن أردَّ لكَ معروفَ زيارتي هُنا!

في تلك الليلة قضيتُ أكثر من ساعتين تحتَ الماء الساخن، كنتُ أشعرُ ببردٍ شديدٍ، وقرفٍ أشد!!

تمنيتُ لو أنني أستطيعُ أن أقشّر جلدي، وأغيّرَ لحمي، وأتقلَّص، وأعود لرحم والدتي مجدداً، أسوأ ما يحدث لنا عندما نتقدم في العمر أن أحجامنا تكبر على أحضان أمهاتنا وآبائنا، نصبح غيرَ قابلين للطي، والتكور في زواياهم الآمنة!

عندما لا تتسع لنا أحضانهم، تضيقُ علينا الدنيا بما رحبت، ولا يتسعُ حضنُ أحدٍ لنا مُطلقاً!

عِندما أويتُ إلى فراشي لم أستمع لكل ما قالته فاتن عن التحلِّي بالصبر وتجاوز الأزمات، والرضى بالقضاء والقدر!

أعتقدُ أنَّني سمعتها تقولُ شيئاً عن كوني قوياً، وقادراً على تجاوز

هذا المطب العسير بمساعدتها! لم أقف كثيراً عندَ هذهِ الجملة فقد كنتُ في أضعفِ حالاتي! لقد بدأتُ أفقدُ كثافتي كمادة فيزيائية، وأنقصُ رويداً رويداً، حتَّى تلاشيتُ تماماً في الهواء!

من السيئ جداً أن تكونَ في الجانب الخطأ في الحرب، ولكنَّ الأسوأ ألَّا تعرفَ من هوَ الجانب الخطأ أصلاً، والأسوأ من كل ذلك أن يكونَ كلاهما على خطأ!!

وأنا كنتُ في هذهِ النقطة بالذات!

واقفاً بينَ علامتي تنصيص، لا تنتميان لأيّ نص!!

في اليوم التالي اتصلتُ على رامي، أخبرتهُ أنَّني لن أحضر! بسبب الحمَّى المفاجئة التي أصابتني!

لقد سيطرت عليّ طوال الليل فعلاً، ولكنَّني تحسّنت في النهار، فاحتجتُ إليها ككذبة ليست بيضاء، لأكمل ما بدأتُ به!

تجاهلتُ رجاءاتِ فاتن، ودعستُ على صوتها المتوسّل إلي لكيلا أخرج في مثل هذا الوضع بدون حراسة، وركبتُ صهوةَ عنادي حتى أعلاها، وخرجتُ وحيداً إلى حيثُ لا أعرف، تقريباً!

كانَ العنوان الذي أعطاني إيَّاهُ عزيز لمرآبٍ قديمٍ لتصليح السيارات، يبدو أنَّه أغلِقَ من سنوات فتحوَّل إلى مقبرةٍ لهياكل السيارات القديمة، والشاحنات، رائحة زيت التشحيم تقودُ الهواءَ الثقيلَ إلى رئتيَّ، وقطع المعدن الحادة، تجعلهُ كمشرحةٍ للُّحوم النيئة، صورتي مكسورة في قطع المرايا الممددة هنا وهناك، وملامحي

ناقصة، ونظراتي مشروخة جداً، ووجهي نصفُ معتم!

ظللـتُ أسـيرُ فيه ببـطءٍ بالغ، وأنا أجعلُ المسـدسَ يشـمُّ الطريقَ أمامي، والمصباحُ يحاربُ الدهاليزَ كي لا يموت الضوء الأعمى الذي يدلُّنا على المكان..

سـر تجاه الأمام من حيثُ دخلت، واتبع الممرات التي على اليمين دائمـاً، حتَّـى تصل لزاوية تنامُ فيها جثةٌ معدنيـةٌ لدرَّاجة نارية، ارفع المقعد الإسفنجي، وستجدُ المعلومات محشوة في كتيبٍ صغيرٍ، مغلفٍ بعنوانٍ عن علم النباتات!!

هكـذا قالَ لـي عزيز، وقـد كانَ دقيقاً جداً في وصفـه، كما يكون المهندسُون!!

حانت آخرُ انعطافةٍ لليمين، واستدارَ الضوء، كانت الدرَّاجةُ نائمةً هناك، ولكنَّها لم تَكن وحدها، ثمَّةَ شبحٌ طويل يستوي عليها، ويتصفحُ شيئاً ما!

التقطهُ الضوء، تفاجأ بي! وتفاجأتُ به!! تسمّرتُ مكاني لم يَقل لي أنني سأرى أحداً هنا!!

هل يكون الفاعل؟!

– رفعتُ مسدَّسـي، والمصباحَ سددتهُ إلى عينيه مباشرة، وأمرتهُ أن يرفـعَ يديـه! رأيتُ نصفَ وجهه، تهيَّأَ لي أنَّنـي أعرفُ هذه العين المسـحوبة إلى الجانب، وهذا الأنف الممشوقَ، وهذا الفم الناعم، هل تهيأَ لي أنَّهُ مألوفٌ جداً!!

لا لا يُمكن، تمتمتُ في ذعر، بينما بدأ المسدسُ يشعرُ بالاختناق أكثر من ضغطي عليه، ظلَّ يُغطي نصفَ وجههِ بيده، ويُمسكُ الكتابَ بالأخرى، والخوفُ يصنعُ طبقةً من الزجاج اللامع على عينه المكشوفة، هل هو الخوف! أم أنها دموع؟! لم أعلمْ وقتها، كنتُ قادراً على إطلاقِ العنان لرصاصتين تطيحانِ بهذا الخيال الغريب، ولكنَّ شعوراً ما أوقفَ قلبي عن الخفقان، شيءٌ ما استيقظَ في داخلي عندما رأيته، ثمةَ كائنٌ قويٌ صحا في أعضائي، وأمسكني جيداً كي لا أطلقَ النارَ عليه، لقد فقدتُ السيطرة على حوّاسي، ومسدسي؟!

ظلَّ يتراجعُ ببطءٍ، وأنا أهزُّ المسدسَ في حركةٍ تخويفيةٍ آمراً إياه بالتوقف والاستسلام، لكنَّهُ كانَ خائفاً، ومرتبكاً، لدرجة أنَّهُ كانَ يُنفذُ الأوامر بالعكس؟!

إصبعي يلامسُ الزناد، وذاكَ الكائنُ يُمسكُ بي، كنتُ أصارعُ شيئين في داخلي الرغبة في قتله، والرغبة في إفلاته!!

كانَ كلانا مشدوداً، لم يَقل شيئاً، ولكنَّهُ أوشكَ على البكاء، صحيح أنَّني لا أعلمُ شيئاً عنه، ولكنَّ هذا الوجه أبرأ من أن يكونَ وجه قاتل!

شعرتُ بالعرَقِ ينزُّ من مساماتِ ثيابي، والملحِ يسيرُ ببطءٍ على جلدي فيثيرُ حرارتي، ويزيدُ جوعَ أظافري لحكّه!

وأنا أردتُ هذا الشخص! أردت أن أقتربَ منه! أن آراه! أن أسمعَ صوته! أن أعرفَ علاقتهُ بعزيز والكتاب!

وهوَ كانَ يغويني أكثر للاقتراب منه، بإخفاء وجهه عني،

وبصمْتــه، بعــدَ دقيقة كنتُ على قابِ قوســينِ أو أدنى منه، وجهَّتُ فمَ المسدس إلى جبهته مباشرة، وأمرتهُ أن يُنزلَ يدهُ!

فاستجابَ باستسلام؟!

الآن يُمكنني أن أرى وجهه بوضوح رفعتُ الضوءَ ببطء، وفوهةُ المســدس لازالت تحــدِّقُ في رأســه، وعندما لامسَ الضــوءُ وجهه، أغمضَ عينيهِ باستســلامٍ وارتخاء، ثمَّ نظرَ إليَّ مباشــرة، كانت نظرةً حــادةً، واثقــة هذا ما اســتطعتُ التقاطه فــي جزءٍ من الثانيــة قبلَ أن تهجمَ على مســامعنا أصواتُ سيَّاراتِ القوَّات الخاصة من الاتجاهات الأربعة!

تلــكَ اللحظة التي تشــتت فيها ارتباكي، كانــت كافية ليهربَ عبر نافذةٍ مكســورة، دونَ أن يتــركَ أثراً غيرَ الكتاب إيَّاهُ الذي ســقطَ منهُ لحظةَ هروبه؟!

التقطتُ الكتاب عن الأرض، ودسستهُ في جيبي!

* * *

[8]

!251011

لــم أقل لقائد الدورية أنَّني رأيتُ شــخصاً هُناك! ولــم أقل لهُ أنَّني وجدتُ الكتاب! ولم أقل لهُ عن سبب مجيئي إلى هُنا!!

لم يُصدِّق كلمةً مما قلته! عرفتُ ذلكَ من عينيه؟!

لقــد توقَّــعَ العثورَ علــى قطةٍ كبيرةٍ، هكــذا قالَ لهُ الــذي دلَّهُ على المــكان؟! ولكنَّهُ شــعرَ بالخيبــة عِندما وصل، ولم يجد ســوى ضابطِ مخابراتٍ وحيدٍ في مرآبٍ للسيارات!

كانَ عاقــلاً حينمــا لم يُلحَّ عليَّ بأســئلته، وكنتُ لبقــاً معه حينما لم أسأله عن سبب مداهمته لهذا المكان!

وفي هذا الوقت بالذات!

بدأتُ أغطسُ في العَرَقِ الأبيضِ المتوسط، وكانَ الغضب يُلقي عباءتهُ عليَّ فلا أرى شيئاً، ولكنني أردتُ الوصول إلى المنزل على وجه السرعة، لألتهمَ غنيمتي!

اتَّخذتُ زاويةً ظليلةً من الشرفة تجلسُ تحتَ صفصافةٍ ناعسةٍ، تعوَّدت أن توشوشني عندما يزروني الأرق، في تلكَ الليالي... نزعتُ الجاكيت والقميص الداخلي، وتركتُ جلدي على مقربةٍ من وريقاتها، كي تتلمَّسهُ كلَّما ترنَّحت بأيدي النسيم، بعدَ أن أطبقتُ فمَ البابِ بالمفتاح، تجنُّباً لزائرةٍ متوقعةٍ!

ولكنَّ المحمولَ نزعَني من باكورةِ عزلتي، رفعتهُ بقلةِ صبر كانَ رقماً غريباً، أصبحتُ أتشاءمُ من الأرقام المعروفة والغريبة، ومن كل شيءٍ يرن!! أجبتُ أنينه.

أتاني صوتٌ ضاحك: كيفَ حالك يا آدم، أتمنى أن تكونَ بخير، تعازيَّ الحارة، وتمنياتي لك بأن تعثرَ على القاتل! ثمَّ أغلقَ الخط قبلَ أن أُكملَ شتَيمَتِي....

خفقَ قلبي، مَن هذا السَمج؟!

تجاهلتُ المكالمة، وعدتُ إلى الكتاب، ابتلعتُ كلَّ اللَّعابِ الذي سالَ في فمي قبلَ فتحه، واستعرتُ نَفساً طويلاً من الصفصافة، ثمَّ أعدتهُ لها على مقاطعَ نغميةٍ مُتَوتِّرة! كانَ سيشعرُ بها أي كائن حي لا يعرفني!

فكيف بتلكَ الصفصافة، إنَّها رفيقة الليالي، وقِبلةُ البوح الأولى،

ولا يوجد مكان أفضل من هنا لأكشفَ فيه الحجاب عن قاتل والدي!

هـا أنا أعـود لأنانيَّتي، أصبحتُ أقول والدي، وأسـقطُ عنه صفتهُ الرسمية!

وأنسـى أيضاً أنَّنـي أفتشُ عمَّن قتلَ صاحبهُ وزيـرَ العدل، ونائِبهُ أيضاً!...

ليسَ المهم الصفة التي أبحثُ بها، طالما أنَّ العمل سـيخرجُ كاملاً على المسرح! فلا داعي لذكر الكواليس؟!

علَّلتُ لنفسي ما أفكِّر فيه؟!

وبسرعة فتحتُ الكتاب، وبدأتُ بقراءته!

بعدَ عدة صفحات بدأت تفورُ أعصابي، وتتأجَّجُ النَّارُ في أطرافي، كانَ الكتابُ جريدةً يومية، توضعُ فيها تحرُّكاتُ والدي؟!

سـاعةَ استيقاظه، سـاعةَ خروجه، لونَ ثيابه، نوعَ السيارة التي يذهب بها للوزارة....

والكثير من الأمور، في الحقيقة بعض الأمور لم أكن أعرفها!

كلُّ شيء مرتب، ومعنون بالتاريخ والساعة..

يقـول الكتاب «إنَّـهُ أصبحَ مضطرباً جداً بعـد مقتلِ وزير العدل، وأصبـحَ منعزلاً بعد مقتلِ نائبه، بل بدا كأنَّهُ كانَ خائفاً من شـيءٍ ما، فقـد أمرَ بإزالةِ كلِّ الكاميرات، وطلبَ ألا يدخلَ إليهِ أحد حتَّى لو كانَ ابنه!».

«في الخامسِ من تمُّوز، كانَ يراجعُ الكثيرَ من الأوراق، بارتياب وذعر، وفي الساعة الثامنة، أحسَّ بالتعب، فقام حاملاً بعضَ الأوراقِ التي كانت أمامه، وألقى بها في المدفأة التي أشعلها في تلكَ الظهيرةِ الحامية!! وظلَّ يراقبُ لحظاتِ موتها، حتَّى تلوَّى رمادُها الأسود بينَ أنياب النار، فأطفأها!

ثمَّ قرَّبَ كأسَ الماء إليه، ورفعَ الرقعةَ عن عينه، وغسلَ وجههُ جيداً، ثمَّ وقفَ أمامَ المرآة، وعينهُ المشوَّهة عارية للضوءِ الأبيض، نظرَ إلى وجهه المشروخ لدقيقة، وبصقَ عليه في المرآة بقوة!

وبعدها أعادَ الرقعة، مسحَ مكان البُصاق بحذر على زجاج المرآة، أغلقَ زراً منفلتاً من الجاكيت، ومسحَ على طرفهِ لإزالة شذرةٍ من غبار، ثمَّ شدَّهُ، ورفعَ رأسهُ، وعادَ إلى كُرسيه، أغلق كلَّ الأوراقِ أمامه، وجلسَ على كرسيه، مثبِّتاً عينيهِ على البابِ في وضعيةِ انتظار صامت، وتأهبٍ مطلق!».

عندَ هذهِ الكلمة تنتهي الصفحةُ الأخيرةُ في الكتاب، كأنَّني لا أعلمُ ما حدثَ بعدَ ذلك، لقد وجدتهُ مقتولاً الساعةَ التاسعة من ذلكَ اليوم.

ولكنَّني قلبتُ الصفحة، باحثاً على آخرِ لعقةٍ في الصحن، كانت الصفحة فارغة تقريباً، إلَّا من آثارِ كلمتينِ، ممسوحتين، إنَّها مربطُ الخيل، أخرجتُ قلمَ رصاص من الجاكيت الرطب بجانبي، ومررتهُ على الآثارِ بسرعة، وعِندما لاحت الكتابة، رفعتُ القلم، فَبدت أرقامٌ باهتة على استحياء، «251011»، تمعَّنتُها،

اثنان، خمسة، واحد، صفر، واحد، واحد!

إنَّهـا مألوفة، هل هيَ رقم هاتف! ولكن ينقصُها رقمان، ربَّما ذهبَا مـع المسـح القديم، كلُّ الاحتمالات، تلعبُ بـي الآن على طاولةِ قمارٍ كبيرةٍ!

حتَّى لو كانت لهاتف ما، علي أن أضع كل الفرضيات وأبحث عن أصحابها، لن تكون مهمة صعبة على أجهزة الحاسـوب التي تتجسس على هواتف الفضائيين لو وجدت؟!

ولكني قررتُ ألا أستعينَ بأحد في هذا الأمر!

حسناً، لأركِّز أكثر، ذاكرتي البصرية تقول إنني رأيتُ هذهِ الأرقام مـن قبلَ، أغمضتُ عينيَّ، وبدأتُ أتخيلُ مصفوفة الأرقامِ أمامي، بكل الألوان والخطوط والأحجام!

ربَّما كانت بخط صغير بالأسـود في زاويةِ صفحة ما! صفحة في مجلد أو ملف أو جريدة أقرب للتخمين!

جريدة!

دائمـاً هناكَ تلك الكلمـة التي تدلُّك على زر الإضاءة الصحيح، أو أنهـا تدلُّـكَ على مكان الباب الـذي لم تكن تراهُ أصـلاً، لو أنها كانت الكلمة الصحيحة فأنا أقترب جداً!

أطلقْتُ العنانَ للسيارة، وأنا أمتطيها على الطريق السريع، ومؤشر السـرعة يهلوس أمامي، والمحركُ يشفطُ القطراتِ الباقية من الوقود،

وثيابي مشبعة بالملح والرطوبة، والهواءُ يقتحمُ النافذة فيثيرُ الارتباكَ حولي.

هل عليَّ الآن أن أبرر لرامي سبب عودتي للمكتب في منتصف النهار، إذا صادفتني عيناه الماكرتان!!

ربَّما لن أحتاجَ لذلك فقط سآخذ رزمة الأوراق التي جمَّعتُها، وأخرج قبلَ أن يراني، تمنيتُ أن يحصلَ ذلك، ولكنَّها الرياح التي تسير عكسَ ما تشتهي السفن يا آدم!

في هذا الوقت من النهار يأخذُ المبنى قيلولَتَهُ المعتادة، صعدتُ الدرجاتِ بحذر، وأنا أطلقُ بصري في كلّ الاتِّجاهات، وصلتُ إلى جهتي من الرِّواق، فتحتُ الباب، وما إن دخلتُ إلى هناك شممتُ رائحةً خانِقةً، ورأيتُ وهجاً أحمر ينطلقُ من المكتب!

اقتحمتُ المكتب بمجرد أن التقطتُ رائحة النار، وأنا الذي تفاءلت عِندما لم أجد السكرتير، وظننتُ أنَّ الجوَ خالٍ!

لماذا يحدثُ شيءٌ ما كلَّما عثرتُ على فتات حل؟ كانت فكرة ساذجة أن تخطر على بالي في الوقت الذي تلوِّحُ فيهِ النارُ بأجنحتها من كل مكانٍ حولي، والدُّخانُ يصطادُ آخرَ ذراتِ الأكسجينِ من قصبتي الهوائية، لم أفهم من أينَ ولدت هذهِ الأجمة الحمراء العظيمة، في مكتبي!

واليوم بالذات، ثمَّةَ أقدارٌ تسيرُ في عكسِ اتجاهي، لا أعلمُ كيفَ أَصطدمُ بها في اللحظات الحرجة!

بدأ السقفُ يتخلَّى عن أجزاءٍ منه بفعلِ جبروتِ الحرارة، ويقذفُ بها على رأسي، والهواءُ يتمددُ، ويرتفعُ، فيصيرُ صُهارةً غازيَّةً تلفحُ وجهي، وثيابي، كلُّ ما أردتهُ الوصول للدُّرج السفلي في المكتب حيثُ أودعتهُ، تلك الأوراق.

لففتُ يدي بالجاكيت بعدما خلعتهُ عني، وأدخلتها في الدرج فالتقطتُ رزمةً ساخنةً تلتهمها النار على عجالة وتمضغُ بواقيها، أسرعتُ بوضع الجاكيت الثمين عليها ولففتها به جيداً، احتضنتها واستعددتُ للركضِ وصولاً إلى فتحةِ البابِ التي آراها بالكاد! ولكنَّ رأسي أصبحت كالسندان، ولا يُمكنني تحمل النار التي تهبُّ من عينيّ، رقصت من حولي جنِّياتُ اللهبِ، واقتربت مني أكثر، وأنا أحتضنُ اللفة أكثر، ورئتاي تغمّسان آخرَ خلاياهما بأول أكسيد الكربون، وفي تلك اللحظة بحثتُ عن شهيقٍ واحدٍ فلم أجد، توهَّجَ كلُّ شيء حولي فجأةً ثمَّ انطفأ، وكانَ ثمَّةَ يدٌ تنتشلُني بعنفٍ شديدٍ إلى حيثُ لا أعلم!

شعرتُ بجسدي يُجرّ، كنتُ أسمعُ صوت جرِّي على الأرض، ولا أراني، ولا أرى شيئاً، ولكنَّ صوتَ فحيح النار كانَ يبتعد!

ولم أعِ، إلَّا والماء الباردُ على وجهي يشهدُ عودتي للحياة، فتحتُ عينيّ، كمن يفتحُ صفحتينِ ملتصقتينِ بصمغٍ قوي، قالَ لي: أنتَ بخير!

لوحتُ برأسي كالسكران!!

فألقَمني فمَ الزجاجةِ جرعتُ بعضها، وصببتُ الباقيَ على صلعتي ووجهي! ثمَّ رفعتُ رأسي عالياً، وسحبتُ من الهواء، ما هوَ فوقَ قدرة رئتيَّ على الامتلاء!

واحتضنتُ السـرَّة الساخنة أكثر، وأشـرتُ بعينيَّ بامتنـانٍ بالغٍ لرامي، وصمتُّ بعدها طويلاً!!

لولا أنَّهُ اقتحمَ الغرفة، وسحبني من هناك لأصبحتُ القتيلَ الرابع!

ولكنني نجوتُ بما لا يمكن تسميتهُ أعجوبة، لقد كانَ أكبر من ذلك! وكنتُ مصرّاً جداً جداً، على ألا تعلم فاتن، ووالدتي بهذا الأمر!

استجابَ رامـي لطلبـي على مضـض، كانَ يـودّ لـو يخبرهما بتهوّري، وحماقتي، ولكنه أشفقَ عليَّ كما كانَ يفعلُ دائماً، يشفقُ على هذا الغريق الذي يتمسك بقشة، ليصفعهُ الموجُ أكثر، بدلاً من أن يسبحَ لليابسة القريبة!!

كانَ ينظـرُ إليَّ بعتب وخوف، وكنتُ غارقاً في كل شـيءٍ حولي، قُتلَ والدي، واحترقَ مكتبي!

وفقدت ثقتي في كل من حولي، بالبداية كنتُ أشـكُّ بشيءٍ ما، كانَ قلبي يلتقطُ إشـاراتِ الريبة، ولكنّني الآن تأكدت أنَّ هناكَ من يراقبُني ويسعى لعرقلتي، لسببٍ ما!

يومها قلتُ لفاتن أنَّني سـأبيتُ عند والدتي لأسـبوعٍ، كي أعوّضها عن وحدةٍ لم تضايقها يوماً، فصدقتني، ورجتني أن أنتبهَ لنفسـي، لأنَّ قلبها مقبوض منذُ الصباح، وكانت تشـعرُ أن شـيئاً سـيئاً سيحدثُ لي اليوم!!

أتسـاءلَ هل يحتوي قلـبُ المرأة على خلايا متطورة لم يكتشـفها العلم بعد، تسـتطيعُ اسـتقراءَ المستقبلَ، واستشـفافَ القادم! هل يوجدُ

لها خلايا بصرية عالية تقرأُ ما وراءَ الزمن، إنها كائنات مخيفة على أيَّةِ حال!

كانَ عليَّ أن أكذب أمامَ رامي لأدَّعي له أنَّني سأقضي بعض الأيام في المشفى، بعيداً على مجس المراقبة البشرية الذي يسمى فاتن!!

* * *

(9)
في الطريقِ إلى قَلبي

أكــوامٌ مــنَ الرماد، وقطــعٌ متفحِّمة هَو ما تبقى مــن أثاثِ المكتب الفاخر، وبالنســبة للأوراق والجرائد التي كدتُ أودي بحياتي لأجلها، فقــد اســتطعتُ بصعوبة أن أنتشــلَ قصاصــةَ ورقةٍ بحجــمِ الكفّ من الصحيفــة التي قرأتُ بها ذلــك الرقم، وقد كانت جزءاً من ذلك المقال الذي أردتهُ، ولكنِّي لا أستطيعُ قراءةَ جملةٍ مفيدةٍ منه سوى اسمِ محرر المقال، الذي لعقت النارُ آخرَ حرفٍ منه!

شــيءٌ على الأغلب لن أســتفيدَ منه، ولكن لا بأس بإرســالِ اسمه إلى قســم البحث! كانَ لي صديقٌ هناك، وكنتُ يائساً لدرجةِ أن أطلبَ المساعدة من أحدٍ أخيراً، مع التأكيد على عدم إخبار أحدٍ أبداً!!

الرقــم الــذي عثرت عليه لم أجد لهُ أثراً علــى متصفّحاتِ البحث، حتَّى غوغل بكلِّ إمكاناتهِ الموســوعية خرجَ لي بخيبةِ أملٍ كبيرة بعد

كل محاولةِ بحث، والجريدة الأخرى التي ظننتُ أنّي لمحتُ بها الرقم انتحرت عن آخرها في النار، مع الأشـرطة، والجرائد الأخرى التي علمتُ أنها النسخ الوحيدة!!

لـولا تلك القصاصة التي بعثها اللهُ من وسـط النـار! لظننتُ أنني كنتُ أقرأُ غباراً وتبعثر!!

ذلـك الحـادث كانَ تاريخاً مهماً، ولكنَّ أحداً صـادرهُ وأخفاه، أحدٌ لديهِ تلك القدرة على محوِ إنسـان من تاريخ البشـرية، ومحوِ يومٍ من التقويم الكوني!

فيما بعد، اسـتأجَرتُ غرفةً في أحد فنـادق النجمة الواحدة، حيثُ النوافـذ صغيـرة الحجم، والضـوء يفتحُ عينيهِ بصعوبـة في زواياها خلفَ شِـباك العناكب – السـكان الأصليين للمـكان، والطعام مطبوخٌ بلحمة مُعاد تدويرها، كانت نقلة نوعية لحذائي، وهاتفي النقَّال!

لـم أعطِ العنـوان لأحد، ولكنَّ تلكَ السـيارة التـي أراها من حافة النافذة في الأسفل تتبَعُني بلا شك!

بعـدَ حريق المكتـب، والمكالمـات الهاتفية التـي أتلقاها من ذلك الشـخص المزعج بشـكل يومـي، تأكـدتُ أنّ عليَّ الاختفـاء لبعضِ الوقت، غيَّرتُ شريحة الهاتف، ولم أعطها سوى لشخصٍ واحدٍ!

لم أسـتطع النـوم على السـرير، كادَ جسـدي أن يُلامسَ الأرض عِندما نمتُ عليه للمرة الأولى، وظلَّ الشبَكُ المعدني يتأوَّهُ طول الليلِ بما يشبهُ صوتَ مريضٍ مثقوبِ الحنجرة!

فـي النهاية رفعتُ الغطـاء ومددتهُ علـى الأرض وتمددتُ عليهِ، وبقيتُ ثابتاً بفعل الجاذبية الأرضية أحدِّقُ في إحدى الحشـراتِ وهي تدورُ في مداراتٍ عشوائيةٍ، حتَّى انفلتُّ من سطوةِ الصحو أخيراً!!

بالنسـبة للطعامِ لم أفكِّـر في طلبِ تلكَ النفايـات العضوية أصلاً، كنتُ أنزلُ في الصباح إلى أحد الدكاكينِ، وأعبئُ أحد الأكياس بكل ما رخصُ وتوفَّرَ من الأطعمة الاسـتهلاكية المعلَّبة، ولا أنسى أن أطيلَ النظر في ركن السـجائر منخفضةِ النيكوتين، وأبتلعَ ريقي في عطش وأمضي في سبيلي!

فـي اليـوم الثالث وجدتُ البائعَ يدسُّ لي إحـدى العلب في الكيس، ويغمزُ لي: هذهِ على حسابنا اليوم يا مدير!

إذا كنتَ تحتاجُها فلا داعي لأن تمنعَ نفسك عنها!!

وفـي الجولة اللاحقـة دفعتُ له ثمن علبتيـن الأولى التي وضعها لي، والثانية التي وضعتُها طوعاً في كيسِ مشترياتي، وفي تلكَ الليلة تربَّعـتُ باحترام ووضعتُ العلبتين المغلقتيـن أمامي، لم أرد أن أفتحَ تلـكَ التي وهبَني إيَّاها شـفقة علي، أردتُ أن أكـونَ مقتنعاً تماماً، أن أشعلها تحتَ رغبةٍ كاملة، وشهوةٍ محضة من داخلي!

لقد طلَّقتُ السجائر من أكثر من عام، وقد طلَّقتُ معها أشياءَ كثيرة، ولكن عِندما تسـتعيدُ رائحةَ شيء ما، تسـتعيدُ معهُ كلَّ الحِقبِ الزمنية التي عاشت فيه.

هكذا! منَ النَفَسِ الأول تسـتيقظُ الفصولُ كلُّهـا وتتربَّعُ أمامك، لا

تمرُّ سـريعاً بل تتعرَّى بشـكلٍ بطيءٍ جداً ورقةً ورقة، ودمعةً دمعة، حتَّى تكشِفَكَ أمامَ نَفسك، وتفضحكَ أمامَ ذاتك!

منذُ أن لامسـت اللفافةُ شـفتيَّ، ووصلَ إليها لُعابي، تسرَّبت نكهةُ التبغ في شُـعيراتي الدموية، عادَ كل شـيء، تجسَّـدَت أمامي اللحظةُ الأولـى باذخـة ناصعة، رَقصَ الدخـانُ أمامي، تحرَّكَ في مسـاراتٍ منتظمة، دقيقة، تمايلَ بأناقةٍ وهدوءٍ، رفرفَ كسـربِ فراشاتٍ رمادية فملأ الغرفة، ودخلتُ في غيبوبةٍ زمنيةٍ كنتُ أفرُّ منها زمناً!!

أكثر ما أشعرُ بهِ الآن هو تأنيب الضمير، لأنَّها كانت تكره السجائر، تمقـتُ رائحتها! أخبرتني ذلكَ فـي لقائنا الأول، وقتها أخرجتُ اللفافة من جيبي الداخلي، وأنا أسـبحُ في فيروزِ عينيها الداكن، وأقلِّبهُ تحتَ ضوءِ القمر على مهلٍ في الشـرفةِ التي تطلُّ على حديقةِ بيتها، فعلتُ ذلك بشـكل لاإرادي، التدخيـن كانَ أحد طقوس التركيز والتأمل، وقد وصلتُ وقتها لمرحلة متأخرة منهما!

بالرغم من أنها كانت سارحة في كلِّ شيء عداي! إلَّا أنها انتبَهَتْ عِندما أشـعلتُ السيجارة فقالت لي ببسـاطة: لا أحب التدخين، أرجو منك ألا تُدخن في وجودي؟!

قالتها كأنَّها تتحدث مع زميلها في العمل، وليسَ مع خطيبها!!

عِندما رأيتُها المرَّة الأولى، اكتشـفت أنَّهُ يمكن للإنسـان أن يبقى على قيد الحياة دون تنفُّس لعدة دقائق! وهوَ يحدِّقُ في شيءٍ جميل؟!

كانَ عشـاءً مملاً وصلتُ إليهِ متأخراً، وقـد دعا إليهِ والدي عائلة

أحد أصدقائه القدامى من ضباط المخابرات، وهيَ جلست في زاوية متطرفة على الطاولة، كوردةٍ تبحثُ عن ضوئها الخاص بعيداً عن زحمةِ المزهرية، كانت تحدِّقُ في العوالمِ الموازية لهذا العالم، ولم تسمع شيئاً غيرَ رنَّة هاتِفها، حملتهُ ولمست الشاشة، أتصور أنَّها كانت رسالة من ملاك، لأنها جعلتها تبتسم تلكَ الابتسامة التي تُغيِّرُ المزاج، وتُرخي الأعصاب!

والدتي هيَ الأخرى أحبَّتها من النظرةِ الأولى، قالت إنَّها شيءٌ شفاف لا ينتمي لعالمنا الملوَّن، وعندما تقول والدتي ذلك فهيَ تعنيه، فهيَ لم تحبَّ أحداً يدورُ في فلكِ أبي سوانا!!

يقولون في كيمياء الحب أنَّ الإنسانَ عندما يقعُ في حبِّ شخص آخر فإنَّهُ يكون خاضعاً لتأثير مجموعة من الهرمونات، وكل هرمون منها يفسر أحد الأعراض الغريبة التي لا نجدُ لها تفسيراً، السيرتونين مثلاً، هو الهرمون الأحمق الذي يقود كل تصرفاتك المجنونة عندما تحبّ، رغبتك في حملها عالياً، رغبتك في القفز من أعلى قمة شلال نياجارا وأنت تُمسكُ بيدها، وبالنسبة للزيادة في دقات القلب، التعرُّق، الارتباك، التلعثم والخطأ في تهجئة الحروف، فهذهِ المتعة الخاصة لهرمون الأدرينالين! نعم إنَّهُ ذات الهرمون الذي يفرزهُ الجسم في حالات الكر والفر، والتعرض للهجوم من قبل حيوان مفترس؟!

في البداية تساءلت ما العلاقة بين الحب، والخوف!

كلاهُما مجسّ لاستشعار خطر كبير على منظومتك النفسية! كلاهُما شعرة محكية تفصلُكَ عن بدءِ حياة جديدة! أو الموت؟!

بالنسـبة لي كانت الهرمونات كلُّها موضوعة في كأسٍ واحدة وقد شربتُها دفعةً واحدة، فدخلتُ إلى برزخٍ لانهائي، وهلوسةٍ خالدة؟!

كيمياء الحب كلام علمي فارغ أمام ما أشـعر به، إنها تقول لك ما يحدث، ولكنَّها تعجز تماماً عن تفسير السبب!!

كانـت الفتاة الأولـى والوحيدة التي أحببتها حقـاً، كلُّ تلكَ المرات التـي قلتُ فيها لفاتن إنَّني أحبُّها كانت كذباتٍ مُتقنةً جداً، لم ولن أحبَّ امرأةً بعدها، كانت الزمن الاستثنائيَّ في عمري.

عِندما هاتَفنا صديقُ والدي، وأبلغنا بموافقته على الخطبة! صعدتُ فوقَ طاولةِ الطعام تلك التي شَهِدت رَعشتي الأولى، وصرختُ بأعلى صوت: واااااااااااااااااااااااااااااااااو!!

ضحكَ والدي ووالدتي ومايا من هذا العاشق الطائش، كانت المرَّة الأولى التي نجتمعُ فيها كعائلة، ونضحكُ بصدق!

أردتُ من تلكَ اللحظة أن أمنحها عُمراً كاملاً، رائعاً! لم تكن تحلُم به!

أن أمسـكَ بيدهـا ونركضُ على قـوسِ قزح حتَّـى تنتهي الألوان والضُّوءُ من الفيزياء، أن أسـحبَ روحي وأعبئَها في زجاجةٍ صغيرةٍ وأعطيهـا إيَّاها لتشـرَبَها علـى مهل كلَّما عطشـت، أن أفتحَ صدري بمشرطٍ سحري، وأدخلَها في قلبي لتتمدد في حجراته الأربع وحدها!

لقـد أحببتها لتلكَ الدرجة، لقد منحني حبُّها جمالاً لامحدوداً، جمالاً لا يَفنى ولا يُستحدث من العدم!

فَهل أحبَّتني لهذهِ الدرجة أيضاً!!

عِندما جلستُ معها للمرة الأولى، تلكَ الليلة التي أخبرتني بها أنَّها لا تُحبُّ السجائر، ألقَتْ نظرة خاطفة على وجهي، تلكَ النظرة أسقطتْ بها قوسَ قزح، وحطمـت الزجاجة الصغيرة، وهدمت حجراتِ قلبي الأربع!!

لَـم تكن نظـرةَ حبٍّ أبداً، بل إنَّهـا لم تكن لتحبَّني فـي أيِّ يومٍ من الأيام! لقد قرأتُ ذلكَ بسهولة كما أقرأُ رسالةً إلكترونية عاجلة...

وقتها أطفأتُ السـيجارة بهدوء واستسـلام، وقطعتُ عهدين على نفسي الأوَّل ألا أدخنَ بعدَ اليوم لأجلها، والثاني أن أجعَلها تُحبُّني بأيِّ طريقة!!

تلـكَ المُضغةُ العميقة جداً في داخلي قالت لي: إنَّها لن تحبَّني أبداً، ولكنَّ عقلي وقلبي تمردا على هذا الشعور القاتل، ولم يقبلا بهِ أبداً!!

دائماً ما يكون الإنسان الثائر هوَ أكثرُ الناس صدقاً، كذلكَ أعضاء جسـمك، أكثرها تمرداً وثورة هوَ أصدقها، وأقربها للفطرة الطبيعية، وهكذا كانت هذهِ المضغة المنفية في أعماقي!

كلُّ الهدايا الخرافية التي جمَّعتُها من أقطارِ المعمورة، والتي كانت تَصلُنـي في طلبيات خاصة، على متن الدرجة الأولى من الطائرة، لم تكن تُقابل سوى بكلمة شكر خجولة، وابتسامة مزيفة، لكنَّها لطيفة!

في كلّ المرَّات التي أتيتُها ملهوفاً، مولَعاً، مُشـتعِلاً، قابلتني بِذَاتِ الابتسامة، كانت تحاول أن تكونَ لطيفة معي، ولكنَّها شفافة جداً، تشبهُ

قنديلَ البحر الذي يُمكنكَ رؤيةُ أعضائهِ وهو يسبحُ تحتَ الماء، كلاهُما من الصعب عليهِ إخفاء ما في داخله!

كانت خائفة من أن تعترفَ لي! وكنتُ جباناً جداً لأسألها؟!

أو أنَّني كنتُ أنانياً للغاية، كالعادة، أردتُها لي، حتَّى لو لم تُحبَّني؟! أردتُ أن أمتلَكها حتى لو لم ترغب بذلك؟!

أعتقدُ أنَّ حبَّها الذي علَّمني كيفَ أكونُ رائعاً ورقيقاً في البداية، هو ذاتهُ الذي علَّمني كيفَ أصيرُ وحشاً فيما بعد!

في هذهِ الفترة بدأتُ أشبهُ والدي أكثر فأكثر، تابعتُ إحضار الهدايا لها، تابعتُ تأمَّل وجهها الطفوليَّ المسلوبَ من فرحته، تابعتُ عبادةَ حُزنها، وابتسامتها الزائفة، ونظرتها الخائفة على الدوام، وكلَّما اقتربَ موعدُ العرس كنتُ أنفصمُ على نفسي لآدَمين، ذلكَ الوحش الذي يريدُها بالرغم من كل شيء!

وذاك الذي يجلدُ نفسهُ في زاويةٍ مظلمة، وهوَ ينظرُ إلى آدم الأول!!

ولكنِّي مضيتُ، أنكِرُ كلَّ تلكَ الإشارات التي تُرسلُها إليَّ بصمتِها، وأنكرُ تلكَ المضغة التي تصرخُ بصوتٍ عالٍ في أعماقي السحيقة!

في يوم العرس، طلَبَت رؤيَتي، كانَ علينا أن نذهب للاستوديو لأخذ مجموعة من الصور الفوتوغرافية الجميلة، لتبقى علامةَ ميلادِنا الأزلي!

وللمرَّةِ الأولى لم تَكن ابتسامَتُها زائِفةً، ولم تكن خائفة من شيء!

نَظرت إليَّ نظرةً مختلفة، في البداية ظننتُها نظرة حب! ولكنَّها كانت أقرب إلـى نظرة الذنب! اقتربتْ منِّي، وأعـادت ترتيب ربطة العنُق برقَّة، وأنا كنتُ متشـنِّجاً بينَ يديها، أغوصُ أكثر في هذهِ السـاندريلا الباهرة باللون الأبيض، لم أسـتطع أن أنبسَ ببنتِ شـفة حتَّى انتهت! وطلبت خروجي لترتيبِ تفصيلٍ ما...

وقبلَ أن أخرجَ من الغرفة قالت لي ولأوَّل مرَّة: آدم..

أجبتُها بلهفة: لبيكِ!

ضحكت بنعومة وقالت بنغمةٍ لا يمكن لأكبر موسـيقار أن يُقلِّدَها: آدم، أعتذر عن كلِّ شـيء! لقد آذيتُكَ كثيراً، وأعدكَ لن أفعلَ ذلكَ بعدَ اليوم، هلَّا سامحتَني!

كنتُ مستعداً لأستغفرَ الله بدلاً من البشر أجمعين، عن كلِّ خطاياهم، مقابل تلكَ الجملة وحدها..

أغفـرُ لك يا حبيبتـي كلَّ ذنوبك التي فعلتِها والتـي لم تفعليها بي! أغفر لكِ ما تقدم من حبك وما تأخَّر!

قررتُ أن أفتحَ سـجلاً جديداً لنا، وأغسـلَ بلاطَ قلبي بماءِ الغفران لم أكن لأحمل حقداً تجاهَ مخلوقةٍ مثلَها،

قبلَ أن تدقَّ ساعةُ خروجِنا كانَ قلبي صرحاً أبيض ناصعاً، يستعدُّ لإدخالها من جديد!

اقتـرب عقـربُ الثوانـي من الموعد، ولـم تخرج! قلقـتُ عليها،

أنــا خائــفٌ الآن أكثر من أي وقت مضى، لو هبَّت شــعرةٌ واحدةٌ من شعرِها على وجهي لأماتتْنِي وأعادت إحيائي، ظلَّ بابُ غرفتها مغلَقاً، والليموزين جالســة تحتَ شــرفتها تنظرُ أن تطــرقَ الأرضَ بكعبِها، ولكــنَّ الباب ظــلَّ موصداً، وصلتْ والدتها، حرَّكــت قبضة الباب فلم ينفتح، عرفتُ حينهَا أن شيئاً ما قد حدث؟ ركضتُ بكلّ قوَّتي وكسرتُ الباب....

حسناً ما حدثَ بعدَ ذلك اليوم ليسَ مُهماً كثيراً، تلكَ البدلةُ التي لمَسَتْهَا بأصابِعِهَا، لاتزالُ مطوية بعناية في كيسٍ ســميك، وعليها آثارٌ من دَمِها الذي تمسَّــكَ بي عِندمــا احتضنتُها، وبكيتُ طويلاً وأنــا أضمّها، كانت ممدَّدةً على الأرض كباقــةٍ غاردينيا ذابلة، والدم ينبجسُ جدولاً صغيراً مــن فمها وأنفهــا، فيختلطُ بالمســاحيق التي وضعتها، ثمَّ يســيرُ مروراً برقبتهــا، وصولاً إلــى طرفِ الحرير الأبيض الــذي كفنَّاها به، وجهها كانَ ســعيداً جداً، وصافياً، وابتسامَتُها لم تكن زائفة، وفي ذات اليد التي ألبستُها خاتم الخِطبة، احتضنت علبةَ السم الذي شربتهُ يومَ زفافِها!!

ذلــكَ اليوم، هو الفاصل التاريخي الخاص بي، فأنا أقسّــمُ حياتي، إلى ما قبلَ الحادث، وما بعد الحادث!

أمَّا الحادث فأقف أمامُه كناسكٍ في محراب لا يستطيعُ دخوله، ولا يستطيعُ تركه.

فــي الحقيقة لم يُلقِ أحــدٌ اللَّومَ علي، ولكنَّني كنــتُ قاتِلها، ربَّما لم أضعَ لها ذلك السم في العصير، ولكنَّني سمَّمتُ قلبها ومشاعرها حتَّى لــم تقوَ على الحياة، كانت صادقــة عِندما قالت لي أنَّها لن تؤذيني بعد

ذلكَ اليوم، فقد قتلتني، لا يُمكن لأي شيء أن يؤذيَ شخصاً بعد موته!

كلانــا كانَ القاتل والضحية، ولكنَّها تخلَّصت من ذنوبها الأرضية أمَّا أنا فلا!!

في البداية كنتُ أســتحضرُها في الليل، قبَّةُ الفستانِ المغمسة بالدم كانت تطوِّقُني كلَّما أغمضتُ عيني، صوتها الموسيقي الذي لا يتوقفُ فــي أذنــي الداخلية، هداياي المغلقة التي لم تفتح شــيئاً منها، والبطاقة المطوية فوقها، مكتوبة بخط يدها: «سامحني»، وعلبة السم! وشفتاها القرمزيتان، وابتسامَتُها!!

أيُّ إنسانٍ يستطيعُ تحمُّلَ كلَّ هذهِ السياط...

لم أذق طعماً للنوم بعدَ وفاتها، حتَّى رقَّ قلبُ أحد الأطباء، وأعطاني دواءً منوّماً بدلاً من أن يقنَعني بأن أتخلص من ذنبٍ لم أرتكبه!

كانَ الأذكى بينَ الأطباء الذينَ عرضتُ عليهم حالتي!!

أصبحَ المنوِّم تأشيرَتي الوحيدة للنوم، وللخروج من نفسي!

كنتُ أتناولُ عدةَ حبَّاتٍ منه، وأعاندُ النومَ، وأقاتلُهُ حتَّى تصرعَني حبَّــاتُ الــدواءِ بينَ يديــه، فأنامُ تاركاً فوقَ الوســادةِ بركــةً رطبةً من الملح!!

توقفــتُ عن الذهاب للعمــل، ترَكني والدي، كانت أمي تدخل عليّ وتحضرُ ليَ الطعام، وعِندما أخرج، أســمعُ صوتَ بُكائِها المكتوم من وراءِ الباب الموصد!

بعدَ عدة أسابيع رفعتُ السمَّاعة واتصلت على أحد أصدقائي المقرَّبين قلتُ لهُ جملةً واحدة: أريدُ شيئاً يُنسيني ما أنا فيه، أيَّ شيء!! وبكيت...............

عِندما دخلتُ تلكَ الجزيرة المسوَّرة كانَ البحرُ يمورُ خلفي والأمواجُ تنتصب للأعلى وصولاً إلى السماء، فلا أرى شيئاً غيرَ الأزرقِ الصاخب، عِندَما غمرتني المياه بالهلامِ الشفاف، اكتشفتُ أنَّ لدي القدرة على التنفس داخلها والتحرك بسهولة، بدأتُ أنتقلُ بينَ الأزرقِ السماويِّ والأزرقِ البحري، بخفَّة، ومساماتِ جلدي تتفتحُ وتكبر والماءُ يدخلُ عبرها من يديَّ، وقدميَّ، وصدري، وبطني، ثمَّ بدأَ الجلدُ يتحلَّل ويتفكَّكُ إلى أجزاءَ أصغر، فأصغر حتَّى ذبتُ في الوسط السائل، وتلاشيتُ فيه، وأصبحتُ أرى كلَّ شيءٍ من كلّ مكان، كأنَّ رأسي يدور وأنا داخِله، وجسمي داخلي، ورأسيَ الأول داخلَ جسمي، ففقدتُ خوَاصي الماديَّة، وتحوَّلتُ، لمجموعة من الفوتونات الواعية، التي تنتشرُ في كلّ الأسطح بسهولة، عِندها فقدتُ شكليَ البشري، وارتقيتُ لشكل أكثر تطوراً، وخفة!! فيما تأرشفتْ كلُّ ذكرياتي التي تخصُّني والتي تخصُّ غيري..

في صباح عِندما استيقظت، تهيأ لي أنَّ رأسي سيسقط ويدورُ بعيداً عنِّي كما حدث في الجزيرة، ولكنَّ رقبَتي التقفتهُ في آخرِ لحظة، فتحتُ عينيّ بصعوبة وكانت الألوانُ حولي تعودُ إلى أبعادها الفلكية النائية، بدأت تتشكلُ حولي معالمُ الغرفة، وتستقرُّ عيناي على قطعةِ الحشيش التي سافرت عبرَها إلى هُناك!!

الآن وقد وصلتُ لهذهِ المرحلة، لم يَكن هناكَ أيُّ طريقٍ للعودة، لقد

سـدت كلَّ أبواب الرجوع، لا أذكرُ تماماً كم مرَّة بكت والدتي أمامي لتمنَعني مما أخوضُ فيه، ولا أذكرُ تماماً كم مرَّة هددتُ بقتلِ نفســي، إن منعوها عنِّي!

كم مرة دخلت مايا إلى غرفَتي، ونظرت إليَّ باشمئزاز، وكم مرَّة رفعَ والدي المسـدس وقالَ لي: سـأقتُلكَ، إن لم تَعد لرشـدك.... فأردُّ عليهِ بضحكةٍ طويلةٍ حتَّى تدمعَ عيناي، وعيناه!!

نُشرت الكثير من الشائِعات حولَ المفتش العام للشرطة، ابن وزير الدَّاخلية، الذي انتحرت خطيبته يوم زفافها، واختفى بعدَ ذلك؟!

ولكنَّ أحداً لم يكن يعرف الحقيقة! بقيتُ في العزل المنزلي مُحاطاً بالحراســة، أصفعُ الأبواب والنوافذ، وأطلقُ حنجرَتي للريح صراخاً وعواءً، عندما لا أستطيع النوم! وعِندما تُمنعُ عني المخدرات!!

عامٌ كاملٌ! كما قيلَ لي قررَ بعدها والدي إرســالي لمصحةٍ نفسيةٍ، تعنــى بالمدمنين والمرضى النفسـيين، خارجَ البلاد، بأقصى ســرِّية ممكنة، وقيلَ للإعلاميين الجوعى إنها رحلةُ ترفيه....

هل كانت كذلك؟!

لا أحد يُصدِّقُ ما يقوله الإعلام، دائماً هناكَ خبران: واحدٌ حقيقيٌ، والثاني مزيف يتم إعلانه لإخفاء الخبر الحقيقي!!

الحياة في المصحة كانت أصعبَ المواسـم في عمري، في البداية عليَّ أن أمتلك تلكَ الرغبة الجادة بالشفاء، بالخروج من مستنقع الطين الذي أستقرُّ بقعره!!

عليكَ أن ترغب بالعلاج، والحياة!

ضحكت عِندما قالَ لي الطبيب ذلك وقلت: ما الذي ستفعلونه بشخص لا يرغب بذلك! ما الذي ستفعلونه بشخصٍ ميتٍ! لقد جئتُ إلى هنا مُكبَّلاً، مُرغَماً!!

إذاً سنُرغمكَ على العلاج، قالَ ذلك، وأغلقَ ملفي بهدوء! ما الذي كتبوه فيه؟ أتساءل الآن؟!

ألا يذكرني هذا الكلام بنفسي عِندما قلتُ: إنَّني سأرغمها على حبي.. وماذا كانت النتيجة؟

في الحقيقة لقد حاولت الانتحار عدة مرَّات، ورفضتُ العلاج، والطعام، وكسَرْت الطاولات والنوافذ، ورفضتُ الحديث مع أحد، وضربتُ الطبيب والمرضى الذينَ حولي، وعُزلت عن الجميع، وأخذتُ الكثير من إبر المهدئ ما يكفي لتهدئة قطيع من الثيران الهائجة، ولم أهدأ أبداً، لقد كنتُ رقماً صعباً جداً، أصعبَ من كلِّ الذينَ مرُّوا عليهم..

وفي النهاية تعبت ....

واستسلمت، أردتُ أن أنامَ ليلةً واحدةً بسلام، بدون أن أتذكَّرها، وبدون علاج، رجوت الطبيبَ أن يَقتُلَني، قلتُ لهُ أريد الموت بسلام لقد تعبت!!

نَظر إليَّ الطبيبُ وقد هدأت ملامحه، وارتخى وجهه وقال: بل لقد

تحســنت، أنتَ الآن تطلب الموت! هذا يعني أنَّك تعترفُ بكونك على قيد الحياة؟!

أو أنَّ شيئاً بداخلِك يعترفُ بهذهِ الفكرة، وهذا تحسّن كبير يا آدم!

آآآدم! من يكون؟!

إنَّهــا المرَّة الأولى التي لا يناديني فيهــا برقمي، لأنَّ والدي أصرَّ على ألا يعرف أحدٌ اســمي ولا وصفي، ولا يناديني به حتَّى نسـيته، لأشهر وأنا لا أسمعُ هذا الاسم، الذي صنعتهُ، وكبرت به، وأصبحتهُ، متى نسيتَه يا آدم!

في تلكَ الليلة، أخرجَ الطبيبُ من جيبه إبرةً وأنبوباً مغلقاً، وسحبَ ما فيهِ بالإبرة! قالَ لي إنَّ ثمَّةَ سماً قوياً فيه يُمكنهُ أن يَقتُلكَ بدقائق، إذا أردتَ أن تموت ســأخرج من الغرفة، ويمكنكَ حقنُ نفسك به، سأقولُ أنَّك سرقتَهُ من العيادة.

شــعرتُ بالامتنان والعرفان لهـذا الرجل الرحيـم، رفعتُ الإبرة وقرَّبتها مــن وريدي، وتأمَّلتُها جيداً، عليَّ أن أكونُ شــجاعاً لأفعلها، كما فعلتَها هي!!

وكمــا حدث مــع كلِّ الذينَ يقضونَ نحبهم، ركضَ شـريطُ عمري في تســجيلٍ ســريعٍ أمام ناظــري، بحلوه ومرّه، ضحــكاتٌ ودمعاتٌ، وفي النهاية رفعتُ الإبرة بهدوء، واستسلام، وكسرتُها على الأرض، وبكيت، بكيتُ عن ألفِ عامٍ مرّت على أرضٍ جدباءَ عطشــى، جاءها المطرُ أخيراً!!.....

اللحظة التي يُقرر بها الإنسانُ أن يعيش هيَ لحظةُ الولادة الحقيقية، وكلُ ما مرَّ سابقاً من عمره، ما هوَ إلَّا مَخاضٌ طويلٌ، قال لي طبيبي الهولنديّ الطويل القامة، المتوَّرد البشــرة: عشْ يا آدم، واحلمْ، وأحبَّ ثانيةً! دائماً هُناك فرصةٌ ثانيةٌ طالما أنَّك لم تمت، هناكَ فرصة طالما أنَّك تتنفَّسُ الأكســجين، هذا يعني أنَّك حي، الأكسجين ليسَ للموتى يا آدم، إنَّه للأحياء!!

كانت المرة الأولى التي أسمعُ بها تلك الجملة...

في الذكرى الثالثة للحادث كنتُ قد أكملتُ علاجي عند أحد الأطباء في الوطن، بعدما قطعتُ الأشواطَ الصعبة في ذلك المصح....

وفيمــا بعد تعرَّفتُ إلى فاتن، وقررتُ الارتباط بها، كأنَّهُ جزءٌ من إكمال العلاج، وقررت الانتقال إلى المخابرات، وشراء فيلا في مدينة أخرى...

وهكــذا عدتُ للحيــاة، امرأة جديــدة، وعمل جديــد، وبيت جديد، وذكريــات لا يمكــن أن تمحى، ولكنَّها تظلُّ كامنــة كالبراكين التي لا يعرفــ أحدٌ متى تقرر الانفجار، وإطلاقَ حممها على العالم!

تابعتُ حياتي، ولكني لم أنسَ، ولم أحبَّ ثانيةً كما قالَ لي!

عرفــتُ حينَها أن الحبّ كالموت لا يكــونُ إلَّا مرَّةً واحدة في حياة البشر!!

* * *

[10]
البداية

«لقد وجدنا شخصين بالاسم الذي كانَ مكتوباً على الورقة، أحدُهُما متوفًّى منذُ فترة قصيرة، والثاني يعملُ في صحيفةٍ توقَّفت عن الصدور منذُ مدَّة، سأعطيكَ عنوان منزله لتذهبَ إليه».

قالَ لي صاحبي هذه المعلومات، قبلَ سيجارتي الصباحية، وكنتُ قد أمضيتُ ليلةً هوجاء وأنا أبحرُ في أرشيفِ ذاكرتي، دونَ أن أصل لبرِّ الأمان!!

فركتُ عينيَّ بصعوبة، أجبتُ مكالمتهُ بلهفة، وبعدما دوَّنتُ المعلومات التي أريدُها على وجه الدفتر، أخرجتُ الشريحة الجديدة وكسرتُها، ووضعتُ واحدة جديدة لا يعلَمُها أحد...

أخذتُ زوادةً سريعةً، علبةَ سجائر، وكوب قهوة من الحجم الكبير،

واســتقلَلْتُ سيارة تاكسي للمكان، سيارات التاكسي هُنا تماماً عالخبز، الجميع يعرف أنَّه مغشوش، وفاسد، ولكنَّهم يشترونه، ويأكلونه!!

لا يموتَ أحدٌ من فســاد الخبز، ولكنَّ الجميع سيموت جوعاً إذا لم يأكلْ، هكذا أقنعوا أنفسهم!

عِندمــا يصبحُ الخبز هوَ أوَّل ما يفكر فيه الناس عِندما يســيتقظونَ من النوم، فاعلم أنَّ أغلبَ السكان يعيشونَ تحت خط الحُلم!!

الخبز أمنية الجياع، والحلم لمن يشبعُ أوّلاً!!

وصلتُ إلى المكان بســرعة، لأنَّ الشــوارع كانت شــبه خالية من المــارة، لقــد زاد عدد أيام الإضرابات في الأســبوع، في البداية يوم، والآن وصلت لأربعةِ أيَّام!!

عِندمــا يصلون لسـبعة أيَّام ستُشــلُّ الحيــاة، من يعــرف ما الذي سيحدثُ لاحقاً؟

متعــةُ الأقدار أنَّها تســتترُ عن الناس، تظلُّ كامنــة تنتظرُ اللحظة المناســبة، وعندَما يســمحُ لها الله تقفُ في وجهنا، لتراقبَ ردة فعلنا، الأقدار لا تنتظر أن تتشــكل، إنها موجودة منــذُ الأزل، ولكنها تنتظرُ لحظة نزولها!!

وصلــتُ إلــى المنزل، المختبئ فــي زقاقٍ قديمٍ، ظننــتُ أنَّ البابَ كانَ مفتوحاً، ولكنني انتبهتُ أنّ القفلَ مكسور، مع ذلك لم أجرؤ على الدخول!

كنتُ خائفاً من شيء ما!!

أزعجتُ سكونَ البابِ بطرقهِ عدة مرَّات، وفي المرة الأخيرة، سمعتُ صوتاً غليظاً يسمحُ لي بالدخول.

شفتان سوداوان، وعينان غائرتان في تلالٍ من الجلدِ المترهِّل، ربَّما كانَ في الستينياتِ من عمره، ولو أنَّ وجهه يوحي بأكبر من ذلك!

ألقيتُ التحية! مرحباً يا عم، صباحُ الخير!

لم يرد تحيَّتي، فقد تابعَ تفحُّصي بنَزَق، وبعدَ دقيقة من العبوس المقصود أخرج صوته الغليظَ ثانيةً:

ما الذي تريده؟!

أشعَرني متعمِّداً بعدم الترحيب، تجاهلتُ الأمر، بدا كعجوز يرتِّبُ رزنامةَ أيَّامهِ الأخيرة، يجلسُ وراءَ طاولةٍ تطلُّ بصعوبة على أكوامٍ من الجرائد والصور القديمة، وهوُ يدفنُ جسدهُ بينَ هذهِ التضاريس الورقية، ويسترخي ببلادة، وكسل على الكرسي، يُطالعُ شيئاً ما، ولا يستقبلُ الضيوفَ كثيراً، فلا توجد غيرُ كأسٍ يتيمة جافة تقفُ على طرفِ الطاولة بِحيَرة!!

سعلتُ متعمِّداً، وقدَّمتُ نفسي، سالم أسعد! ضابط مخابرات من الوحدة الخاصة...

أظهرَ بادرةَ انتباهٍ، بأن رفعَ رأسهُ عمَّا يقرؤه، وحرَّكَ نظارته، مظهراً ابتسامةً طويلةً امتدت لتصيرَ ضحكةً ساخرةً!!

- حسـنـاً، يا سالم أسـعد، يا ضابط المخابرات، ما الذي تريدهُ من محرّرٍ عجوز، ماتَ أغلبُ قرائه، والبقيةُ أصيبوا بالزهايمر، تفضَّل!!

رفعَ نظارتهُ، وأشـار إلى كومةِ جرائد تجلسُ على كرسـي قديم، أزحتُها وجلسـت، ثمَّ سـألتهُ عن «معروف الغريب»، اسـم الصحفي الذي انتشلناهُ من وسط النار!!

الاسم أثارَ اهتمامه، رأيتُ ذلكَ في بريق عينيه: إنَّه ابنُ عمِّي، لدينا نفس الاسم، ونفس المهنة، ولكنَّهُ اختار القسم السياسي، وأنا علقت في القسم الأدبي، لقد ماتَ منذُ فترةٍ وجيزة!!

- نعـم أعلمُ ذلك، لقد أردتُ أن أسـأله عن أمـر، قلت ربَّما يمكنكَ إفادتي...

أدخلـتُ يدي فـي الجيب الداخلـي وأخرجتُ القصاصـة الناجية، وناولتهُ إيَّاها، أعاد نظارته، وقرَّبَ عينيه وقلَّصهما ليرى ما كتب، ثمَّ هزَّ رأسهُ بأن «نعم» هذا المقال له.

- حسناً يا سيد معروف، أبحثُ عن مقالٍ كتبَ في هذهِ الجريدة في نفس الطبعة، يتحدث عن محاكمةٍ ما، برقم 251011، شـيءٌ لهُ علاقة بوزير العدل المقتـول، ووزير الداخلية، الحقيقة لا أعلم بالتحديد عن الأمر، المعلومات كانت شحيحة وغير مرتبة، ولكن......

قبلَ أن أكمل وجدتهُ يرسـلُ نظرهُ بعيداً، شـعرتُ بصوتِ تنفّسـهِ أبطأ، وبملامِحِهِ تنكمش!

ثـمَّ قامَ من مكانه فجـأةً، وأغلقَ الباب واضعاً كومـةَ جرائد كثقلٍ

وراءه، ثمَّ واربَ النافِذة، تاركاً خطاً ضئيلاً يفصلُ الضوءَ عن العتمة، وعاد وراءَ طاولِته، ولكنَّهُ قرَّب كرسيَّهُ تجاهي، وقال لي وقد أخفضَ نبرةَ صوته بوضوح: ما الذي تريدُ معرفَتهُ بالضبط، حتَّى أساعِدك؟!

– كل شيء يا سيدي، أنا بحاجة للمعلومات الصغيرة قبلَ الكبيرة!!

تنفَّس بروية وقال: هل تعلم لماذا أريدُ أن أخبرك؟ ليسَ لأنَّك ضابط مخابرات!!

ضبَّاط المخابرات لا يأتون إلى بيوت الناس، ويطلبون منهم معرفةَ الحقيقة بلطف، أنتَ تعرفُ كيفَ يعصرونَ المعلومات من أجساد الناس، ولكنَّني مريض جداً، أُغلقت الصحيفة التي أعملُ بِها، وزوجتي ماتت، ولحِقَ بها ابنُ عمي الذي كانَ صديقي المقرب، وأولادي كلُّهم هاجروا بحثاً عن وطنٍ يعيشون فيه، لم يبقَ لي شيءٌ لأعيشَ لأجله، إلَّا بعضُ الأسرار، والأحلام التي تصرخُ في الشَّوارع!

اسمع يا سالم، أو أيّاً كانَ اسمكَ الحقيقي، أو عملك!

أنتَ تبحثُ عن الحقيقة، والكثيرون كانوا مثلك، والعبرة ليست في العثور عليها! العبرة هي فيما ستفعلهُ بها بعدَ معرفَتِها!

كلُّ الذينَ عرفوا الحقيقةَ قبلكَ، اكتفوا بإشباع رغبتهم في البحث والمعرفة، وحتَّى بعدما اكتشفوها أصبحوا جزءاً آخر منها، حملوا سرَّها كغيرهم، ليأتي جيلٌ آخر ويبحثَ عنها مثلهم وتعادَ الدائرة!!

لم يفكِّروا في تغيير شيء ما، كلُّنا نريدُ معرفةَ الحقيقة لأجل المعرفة فقط، فإذا كنتَ من هؤلاء، أنصحُكَ بأن تخرجَ من هذا الباب

حـالاً فأنا لا أعطي المفاتيـح لمن يريدونَ الوقوفَ علـى عتبةِ البابِ بعـدَ فتحـه، أنا أعطي المفاتيح لمـن يريدونَ تجـاوزَ الأبواب إلى ما وراءها!! فأيُّهم أنتَ؟

كنـتُ أقفُ في منتصفِ عقلي تمامـاً، مرتدِياً ذلكَ اللباس الصوفيَّ الطويـل، وأدورُ أدورُ بحثـاً عن التوازن، والتنورة العريضة تشـكِّلُ صحناً دائرياً يلفُّ بلا توقُّف، ثمَّ ألقى إليَّ بعصاه!

وسألني: أيُّهم أنتَ؟ لِماذا أريدُ معرفةَ الحقيقة؟!

لا أعرفُ حقاً، لم أفكِّر بسبب المعرفة، كنتُ أريدُ استقلالَ القطار والوصول، ولم أفكِّر أبداً فيما سأفعلهُ بعدَ ذلك! ما الذي سأفعلهُ عندما أجدُ قاتلَ والدي؟ لا أعلم!

أنا أيضاً أريدُ المعرفة، لإشباع رغبَتي وحسب...

– نعم يا سـيدي، أريدُ أن أعرفَ الحقيقة، لأكشِـفَها للعالم! لأغيّر هذا الوضع، وتقعَ الأقنعة، وتنكشفَ الوجوه!!

قلتُ لهُ ذلك بهدوء تمثيليّ باهر، لا أعرفُ كيفَ فعلته!!

نَظَـرَ إليَّ بطرفِ عينه، وكأنمـا اقتنع أو لم يقتنع!! لا أعلم، المهم أنَّهُ أعطاني ثقتهُ وأعطاني شيئاً مفيداً..

قال لي، كأنَّما يشاهد فيديو بالأبيض والأسود:

في تلك الفترة قبلَ خمسـةٍ وعشرينَ عاماً تقريباً، كانت البلادُ على «كفِّ عفريت» كما يُقال، سمِّيت بأحداث الكساد العظيم، حلَّقت أسعارُ

السلع الاستهلاكية فوقَ أسقفُ متوسط الدخول، والحكومة أمطرت المواطنين بالمزيد من الضرائب الموسمية، أصبحت الرشى والواسطة عِلكةً للمسؤولين، الشركات الكبرى قامت بتسريح موظفيها وسحب أموالها من البنوك، قيم الأسهم، والعملة، والبضائع المحلية، تدحرجَت إلى القاع، أصبحَ رغيفُ الخبزِ غنيمةَ حرب، ومياه الشرب صارت تباع بأسعارٍ عاليةٍ، كلُّ ذلك كانَ بسبب الفساد الإداري والاقتصادي الذي وصلت لهُ الحكومة، فالمسؤولون وأصحاب الشركات يكنزونَ أغلب رؤوس الأموال، والفتات الباقي الذي يُلقونهُ لأفواه الناس، لا يسدُّ رمقهم، ولا يربطُ بطونهم الخاوية، وكلَّما خرجَوا مطالبينَ بحقِّهم، ألجموهم، وقمعوهم، واعتقلوهم، بلغت أعداد المعتلقين أرقاماً لم تعرفها منظمات حقوق الإنسان قط!

أذكر تماماً كيفَ قامت جماعة صغيرة من الشباب، بعمل اعتصام مفتوح في مركز العاصمة، مطالبين بإسقاط الحكومة أو حل الأزمة التي تسببوا بها! لم يأخذوهم على محمل الجد!! انشغلوا بقمع المظاهرات المتناثرة في المدن، ولكنَّهم صمدوا، وثاروا، واستأسدوا، وانزرعوا هنالك كالنخيل الذي لا تكسرهُ الرياح، فقد قاموا بعمل سور حولهم، من الطوب، والأثاث، والخشب وكل شيء استطاعوا حمله وإحضاره إلى الساحة العامة، حتَّى أَصبحت مستعمرةً صغيرةً، وعِندما انتبه لهم الإعلام، انتبه لهم الناس والسلطات، أذكر تماماً كيفَ زحفت الشَّوارع، والأحياء كالسيول تجاه العاصمة، وانضموا إليهم، عِندها هدّد الأمن بفض الاعتصام بالقوَّة إذا لم يتحرَّكوا بعدَ يومين فقط!!

وعلى بعد شارعين من الاعتصام، كانَ ثمَّة محاكمةٌ سريَّة تجري، حولَ إحدى القرى التي تسمَّى «عين الغَزال»، مُختار القرية هوَ صاحب هذهِ القضية على ما أذكر!

والمتهم كانَ المدير العام لمراكز الشرطة في منطقة الريف الجنوبي.

قالَ لي ابنُ عمِّي يومها، إنَّ هذهِ القضية لو خرجت للإعلام فإنَّها ستكشفُ عورةَ المسؤولين أمامَ العالم!

وتفضحُ سوآتهم، بالذات في هذا الوقت، لقد انتهى زمانُهم! وسقطت جميع أوراقهم، وانكسرت كلُّ كؤوسهم؟!

إذا انتشرت هذهِ القضية، ستنكّسُ أعلامُ هذهِ الطغمة الفاسدة للأبد، وسينجح الاعتصام، وتسقط هذهِ الحكومة، نعم إنَّها نهايَتُهم...

لقد قالَ لي ذلك، وأضواءُ الكونِ كلِّهِ تتجمَّعُ في عينيه.

المحرر المسؤول كتبَ المقال الأوَّل الذي كانت بهِ معلومات مبهمة عن القضية 251011، بعض وسائل الإعلام المعارض تحدثت عنها باستحياء واضح بسبب قلة المعلومات، الاعتصام بدأ يمتد، والمسؤولون بدؤوا يختبئونَ أو يهاجرونَ من البلاد، لقد عَرَفوا أنَّ الشعب الغاضب لو وصلَ إليهم، سيأكلهم لحماً نيئاً، ويشربُ دمهم ساخناً في جماجمهم!!

بعدَها بيوم أصيبَ الرئيس بجلطة حادة في الدماغ، ونقلَ على إثرها للمشفى....

كانـــت علامات احتضـــار الحكومة، أكثر توهجاً مــن كلّ أكاذيب الإعلام الرسمي، كانوا في النزع الأخير..

قبلَ أن تصل المعلومات النهائية حول القضية إلى الصحيفة، قامت الأجهــزة الأمنيـــة باعتقال محرر المقال، وجميـــع من بالصحيفة، من محررين ورســـامين، ورئيس تحرير، كذلك اقتحموا محطات الإعلام المعارض، وعاثوا فيهِ فســـاداً، صادروا الأشرطة، والمجلّات، وكل ما لهُ علاقة بفساد المسؤولين، ومن ضمنه تلك القضية!!

تلـــكَ الطبعة مــن الجريدة كانـــت الإصدار الأخيـــر، والمعلومات الوحيـــدة حـــول القضية هـــي التي ذكـــرت فيها، وفي بعـــض الجرائد الأخرى، ونشرات الأخبار، وقد تم مصادرة أغلب النسخ والأشرطة، ولا يعلم أحدٌ ما الذي حدث هناك، الذي أعرفه أنَّ القاضي المســـؤول عـــن تلك القضية أصبح فيما بعد وزير العدل، والضابط المتهم أصبحَ وزيراً للداخلية!!

بعدَ أنِ انتهى، وجدتُ نفسي متوقفاً عن التنفُّس لمدة ليس باليسيرة، فاستعجلتُ نفساً سريعاً من الهواء، فلم أجد!! شعرت بانسدادٍ يأتي من الداخـــل، ويمتدُّ وصـــولاً إلى حلقي فأعجزُ عن الـــكلام، لقد أردتُ أن أسألَ والدي عن الأمر يومها ولكنَّهُ مات، ووزير العدلِ أيضاً!

عزيز أراد مني الوصول إلى هُنا لماذا! وما الذي حدث بعدَ ذلك؟! ما الشيء المهم الذي أخفاهُ والدي عنا، ومات معه؟!

كم عدد الأســـئلة التي يجب أن أجلدَ بها نفســـي لأعـــودَ قادِراً على

التنفُّـس، من أينَ أبدأ، وكم خطوة سـأعود للوراء حتَّـى أرى اللَّوحةَ بوضـوح، أليسَ هذا ما يفعله من يريدُ رؤية الصورة كاملة، الرجوع للخلف، لأنَّ الاقتراب كثيراً يقلل من مدى استيعاب العين، ترى جزءاً فقط، الابتعاد قليلاً يجعلنا نرى الكل!!

أردت الفرار بما قالهُ لي، أستطيعُ الآن أن أبدأ من مكانٍ ما، الكثير من الأسـئلة احتشدت في حلقي، إضافة لذلك الانسداد، فأصبح وجهي أزرق، وقفتُ مسـرعاً ودفعتُ النافذة بيدي، فصفعني الضوءُ من كلِّ مكان، فاستعدتُ رئَتي، وتنفَّست...

قبلَ أن أغادر سألتُ الرجل:

ما الذي حدث للاعتصام يا سيدي؟!

* * *

[11]
الحقيقة ولا شيءَ سواها!!

الآن لا أريدُ شيئاً سوى معرفةِ الحقيقة!

الحقيقة في بلادِنا هيَ الأشـياء التـي لا يقولونها في الإعلام، ولا يضعونَها في المنهاج المدرسي!!

وهيَ ذات الشـيء الـذي وضَعهُ والدي في المدفـأة، وأحرقهُ عن آخره، هو الشيء الذي جعلهُ يتأهب للموت بكل خلاياه، وروحه!!

الحقيقـة هي الصـورة اللامرئية للخوف البشـري، عِندما يضمنُ الانسانُ أنَّ الحقيقةَ ستموتُ معه، فإنَّ خوفه يختفي، ويموتُ مرتاحاً!!

أتمنـى لو أنَّهُ تركَ لي علامةً لأتحرى عنها، إشـارة بعيدة لألحقَ بها! شـعرة واحدة بينه وبيني لأتمسّـكَ بها في هذا الطوفان الذي يكادُ يودي بعقلي مني!!

قالَ لي ذات يوم أنَّهُ سيظلُّ واقفاً كالجبل لا يخافُ شيئاً، ولا تؤذيه الرياح، سيظلُّ الوتدَ الضاربَ في سابعِ أرض، لن يقتلِعهُ شيء، وأنَّني سأصبحُ مثله، صدَّقتهُ وقتها، لأنَّني عِندما سألتهُ عمَّا يُخيفه قالَ لي: صدِّقني إن قلتُ لك إنَّني لا أخافُ سوى شيءٍ واحد..

ما هو؟ المرتفعات، الأفاعي، القنابل النووية...... ماذا؟!

كانَ وقتها قد سافرَ بعينهِ بعيداً، إلى حيثُ لا يُمكنني اللحاقُ به، ولمّا سمعَ نداءاتي قالَ لي:

عينا والدتِك!

ثمّةَ شيءٌ في عينيها يلاحِقُهُ كلَّما نظرَ إليه، عيناها تطارِدانه دائماً، ذاك الشيء الذي يسكنُ عينيها هو ما يخيفُه!

يا للتناقض العجيب، أن أكثر الأشياءِ رقةً في حياتي، تخيفُ أكثرَ الأشياءِ قوة!!

استسلمتُ لهذه الحقيقة، بالذّات وأنهما يعيشانِ منفصلينِ في نفس البيت، ربَّما لم ينالا الطلاق الرسمي، ولكنهما في طلاقٍ روحيّ وجسديّ منذُ الأزل!!

بالرغمِ من ذلك لم تهتز صورتهُ أبداً، ظل بَطلي الوطني، ورجلي الثوريّ الأوّل..

ولكن الآن، كذبَ علي! ثمةَ أمرٌ آخرُ يُخيفه أكثر من عينيْ والدتي، أمرٌ أخافهُ حتى الموت، ما هو؟

مجرد الشعور بخوفه ذلك اليوم، باقتراب الموت منه، باستسلامه له، يَجعَلُني أقعُ من سمائي على حقلِ ألغام، فأنفجرُ، وأنتشرُ في كل مكان، ثم أعودُ للحمي، وعظمي، وأسئِلَتي؟!

الحقول الجافة، والبيادر العطشى، ممتدة على طول الطريق، تُشعرِ الناظر بالفراغ، واللامكان، أصبحَ من الصعب العثور على مناطقَ خضراء، لقد تركَ الفلاحونَ أراضيهم للفزّاعات، والجفاف، ورسائل الضرائب التي تملأ صناديق البريد، البارحة على التلفاز قالَ أحد الفلّاحين والدموعُ تلوحُ في مقلتيه: خذوا أراضينا كلها، وأعطونا رغيفَ خبزٍ، وكوبَ ماء لنحيا للغد فقط!!

ظننتُ أنهم يبالغون، ولكن ما أعرفهُ أن الريفَ الجنوبي هوَ أحد أجمل المناطق، وأكثرها خضرة، وحياة في البلاد، ولكن ها هوَ أمامي قفرٌ مسطح، تخرجُ من بينه بعضُ الأشجار العارية كندوبٍ مؤذية، والحشائشُ المنتّفة تئنُّ هُنا وهناك!

حتى القطار الذي أستقلّه فارغٌ تقريباً، إلا من بعضِ المسافرينَ الغرباء الذينَ يشيحونَ بوجوههم عنكَ كلّما نظرتَ تجاههم، خوفاً من أن ينفلتَ شيءٌ من رذاذِ عيونهم، فيشاهدَ أحدٌ شريطَ أحزانِهم!

تمنّيتُ لو أنني أستطيعُ العثورَ على ذلكَ المحامي المسؤول عن القضية، ولكنَّه سافرَ تهريباً من البلاد بعدَ تلكَ الحادثة، لذلكَ يمّمتُ عزمي إلى القرية التي حدثت بها القصة!

وصلتُ المحطة، ولم يكن هناكَ أحدٌ بانتظاري! لماذا سينتظرُني أحد؟!

لطالمـــا أحببت الريــف، والريفيين، ولكن هذا ليسَ ســبباً منطقياً، ليحبَّني الريف، أو ينتظرَنـي!!

على الرصيف ثمَّةَ فتاةٌ تحملُ سلَّةً مغطاةً، وتنتظر! من يا ترى؟! ظلَّــت ترفعُ عُنقهــا الأبيض، وتلوي رأســها يميناً ويســاراً، وعيناها ترفرفان في كلِّ الاتجاهات..

المسافرونَ قلَّة، ولن يَخرجَ أحدٌ بعدنا!

قلتُ لها، بلطف! كي لا تخاف، ولكنَّها خافت...

أعلمُ ذلك، ولكنِّي ســأتابعُ الانتظار، شــكراً لك!! ردَّت عليَّ وهيَ تتابِعُ تصوُّفها في البحث!....

ظللتُ واقفاً، وظلَّت واقفة، حتَّى خلا الرصيفُ من البشَــر، فالتفَّت عائدة، وهي تزمُّ شــفتَيها، إنَّها تشبهُ كلَّ البشر، كلُّهم يحملون سلالهم، وينتظرونَ شيئاً ما، يقفون على محطة القطار، ويتابعون الانتظار مع علمهم أنَّ ما ينتظرونه لن يأتي أبداً!

اقتربــتُ منها: عفواً يا صغيرة، هــل تعرفين الطريق المؤدِّي إلى قرية «عين الغزال»؟

نعم، تعالَ معي، ولكن لا تسألني من الذي كنتُ أنتظره!

كانــت لطيفة جداً، حينما قالت لي ذلك، عرفت أنَّني أريدُ ســؤالها بشدَّة، ولكنَّها أذكى مني، سبقتني بخطوة!!

القرية لم تكن بعيدة عن المحطة، لذلك كانت الفتاة تســتطيعُ سماع

القطار قبلَ وصوله فتأتي لتنتظرَ زائِرها الذي لم يأتِ!

سألتُها عن مختار القرية، قالت لي إنَّهُ توفيَ منذُ أيَّام، لقد ماتَ قهراً لأنَّ آبارَ القرية جفَّت، والدوابَّ نفقت، والأشجارَ ماتت، لقد امتلأ الريف بالمصانع التي أفسدت المياه، والتربة، اشتكى الناس للحكومة، ولكن ماذا يفعلون والقاضي والجاني، واحد!!

تجاهلوهم، تابعت الشركات امتصاص أراضيهم، ومياههم، حتَّى ماتت القرى، ظلَّ المختار صامداً، في وجههم، وسعى بكل جهدِهِ لتبقى الأراضي حيَّة، لكن عِندما مات الشجر في أرضه، مرضَ ومات!!

الآن لا أستطيع أن أسألَ المختار، ولا أستطيعُ أن أقولَ لهم أنَّني من المخابرات، أيضاً!!

قلتُ أذهب لزوجة المختار، هوَ مختار القرية منذُ خمسينَ عاماً، لا بدَّ أنَّها تعرفُ ما أريد...

عرَّفتُ نفسي، بأنَّني صحفي، من جريدة معارضة، أريدُ فضحَ الشركات الحكومية، هكذا قلتُ للفتاة، فنشرت الخبر!!

رحَّبَ بي الجميع، استقبلوني كفاتحٍ عظيمٍ، وعلى رأسهم ابن المختار، عِندما صافَحني شعرتُ بالدفء، كأيدي كلِّ الذينَ صافحوني، بعكس اليوم الأول في المخابرات، كلُّ الذينَ صافحوني كانت أيديهم باردة، كأيدي الموتى!

هل للأمر علاقة بمكان العمل، لقد قرأتُ ذات مرة أنَّ سريرة

الإنســانِ تظلُّ نقية كلَّما كانَ عملهُ قريباً من الأرض والشــجر، وكلَّما صعــدَ عملهُ لأعلــى، وصولاً لتلكَ الأبــراج العاليــة والمكاتب، كلَّما تلوثت سريرته، وبردت عواطفه!

لــو صحَّ هذا الأمر، فأنا مصابٌ بالتلــوث من أخمصِ قدمي حتَّى رأسي!

فيما بعد، قادني ابنُ المختار في جولةٍ إلى قلاعِ الصفيح التي تلفُّ القرية، التقطــتُ مجموعة من الصور بهاتفــي النقال، ودونتُ بعضَ المعلومات غير المهمة، والتي ســألقيها فــي القمامة بعدَ خروجي من هُنا، أعدتُ عرضَها عليه بحماســة، وألــم، وطلبتُ منهُ أن نجلسَ في المضافة قليلاً، لأســأله بعضَ الأســئلة، وكنتُ أرتِّبُ بعقلي كيفَ أجدُ ثغرةً أعبرُ بها إلى ما أريد!!

قلتُ لهُ بصوتٍ هامس: عزَّام! هل يوجد شخص قريب من المختار أستطيعُ أن أسألهُ عن بداية هذهِ المشاريع...

أجابَني: أنا..

– لا لا يا عزَّام، شــخص بعمر المختار، عايَشَــه، وكانَ معهُ منذُ بداية هذهِ الأحداث!!

أمالَ رأســه، وهمهمَ مستغرقاً في التفكير، وأنا بدأتُ أتوتَّر قبلَ أن ينطقَ بشيء:

حســناً، سأســألُ والدتي، إن كانت تعرفُ شخصاً! إنها تعرفُ كلَّ أصحابه ومعارفه..

تظاهرتُ أنّي أستمعُ إليهِ باهتمام، ثمَّ صمتُّ للحظة وقلتُ لهُ بتردّدٍ واضِح: ربّما تستطيعُ والدتُكَ إفادَتي بشيء!

هزَّ رأسهُ بسذاجة، وقام مسرعاً وهوَ يصرخ: نعم ربّما، سأناديها!

في الوهلةِ الأولى التي شاهدتُ فيها تلكَ المرأة انسلبتُ من جسدي، وهبطَ قلبي في أمعائي، بينما هيَ وجمت لثوانٍ، وامتقعَ وجهها وانكمشَت نظرتُها، كانت المرَّةَ الأولى التي نلتقي فيها، لكنَّ قشعريرةً ما عبرت خلالَ نظراتِنا، هي بدت كأنَّها التقت بشبح، وأنا خفتُ فجأةً منها!!

عِندما انتبهت لغيمةِ الصمت التي سقطت علينا، رمشتْ عدة مرَّات، ورحّبت بي بارتباك، في حين أن نظرتَها ظلَّت تتعَقَّبُني، فيزدادُ شعوري بالاختناق..

وجهها كانَ رقيقاً، شاحباً ككلِّ من يحملونَ هويةً في هذهِ البلاد، حزيناً كالريف، وصامتاً كالشجرِ العاري من أوراقه، شعرتُ بأنفاسِها هادئة كبحرٍ يتأهبُ لتسونامي بعيد!!

لم تقل شيئاً، حاولت ألا تنظرَ إلى وجهي، أن تعانِدَ فضولَها في تفرّسِ ملامِحي، ولكنَّ رغبتها غلبَتَها!

عيناها كانتا مزيجاً من الشفقة، والألم، والغضب!

كيفَ يمكنُ لهذهِ المشاعر أن تجتمعَ معاً في عينٍ واحدة، وتبقى سليمة! تمسَّكت دموعُها بجفونِها بقوَّة، حاولت أن تكبِتها، ونجحت!

غيرَ أنَّ ملامِحها بقيت في وضعية البكاء المترقِّبِ في أيَّةِ لحظة...

ابنُهــا لم يلاحظ ذلك، وكأنَّهُ حبَســنا في صنــدوقٍ زجاجيٍّ ووقفَ يحرُسنا من بعيد، كانَ يعيدُ تفحُّصَ الصور، وأنا تمنيتُ لو يحرّكُ يديهِ بقوَّة فيكسر الزجاج، أو يصدرَ صوتاً عالياً، لأشعرَ بحركة الهواء من حولي.

بعــدَ دقائقَ، تدفَّقت قوَّةٌ ما إلى عينيها، فسَــحَبَت الهاتف من ابنِها، وأمرتهُ أن يغادرَ المكان، لم يســأل عن الســبب، فقــط وقفَ مذهولاً، وغادر!!

ثمَّ أدارت ســهامَها تجاهي! شعرتُ بكهرباءٍ قويَّة، وتمنيتُ لو أنَّها تقولُ أيَّ شيء.....

– قلتَ أنَّ اسمكَ سالم سعيد؟!

– ن... ن... نعم!

قلَّصت عيناها، لم تُصدِّق، إنَّها تعرفُ شيئاً..

– «غريب! هذ الشــبهُ غريبٌ حقاً؟!» ســمعتُ جملَتها الهامســة، فاشتعلَت أسئِلَتي؟!

– أيُّ شبه؟! عمَّا تتحدَّثين يا خالة!

– لا شيء! صدفةٌ غيرُ سارة وحسب، ما الذي تريده؟

ارتشــفتُ بعضَ الماء، وقد أحسستُ أنَّها تكشِفُني، أكثر ما أكرههُ في النساء أنَّهُ لا يُمكنكَ الكذبُ عليهنَّ، سيعرفنَ ذلكَ بسهولة، لقد أفلتُّ من ذلك الصحفي العجوز، ولكنِّي لن أفلتَ من هذهِ السيدة!

قلتُ في نفسي، وقد وضعتُ يدي على رقَبَتي، وابتلعتُ ريقي...

لاحظت ذلك، قالت لي: قل الحقيقة! ولن أفعلَ لكَ شيئاً، هل أنتَ صحفي حقاً؟

أنزلتُ يدي باستسلام، وتنفَّستُ براحة: حسناً سأقول الحقيقة، الحقيقة ولا شيءَ سواها!

صحيح أنَّني صحفي، ولكنَّني لا أحقق بموضوع المصانع التي دمَّرت الريف، أحقّق بقصَّة غابرة، عثرتُ على بعضِ معلوماتِها في جريدة قديمة، ولكنَّها احترقت من مدة، وأريد بشدَّة أن أتابع هذهِ القصَّة!

ظلَّت نظراتُها مرتابة، ولكنَّها اطمأنتْ بعضَ الشيء، وهدَأَ وجهها، سألتني أن أكملَ حديثي، وقد ألقت نظرةً سريعةً إلى باب المضافة لتتأكد من عدم وجود أحد...

أخرجتُ القصاصة من جيبي ومددتُها لها، إنَّها تتحدَّث عن قضية قديمة في إحدى المحاكم في العاصمة، رفَعها المختار على.. على أحد رجال الشرطة!

تأتأتُ قليلاً، وأنا أمدُّها لها، تلمَّستها بيد، ووضعت اليد الثانية على فَمِها، أصدرت شهقةً مُختنِقةً، وبكت، دَمعتينِ ساخِنَتينِ سحَّتا من عينيها، رفعت حرارةَ الغرفة لدرجة كافية لشوائِي!

هل وضعتُ يدي على الجرح الذي خيَّطَهُ الزمن، ففتحتُ فيهِ هوةً تتسعُ لكوكبٍ من الألم، لماذا تبكي النساءُ بتلك السهولة!

ولماذا لا نبكي بتلكَ السهولة!

وضعتُ يدي على يدِها، وقد هيَّجتْ دموعُها كلَّ ذراتي الحيَّة والميتة.

أعتذرُ لأنَّني جعلتُكِ تبكين، ولكنَّني أحتاجُ إلى أيِّ شيءٍ يُساعِدُني في بحثي!

لقد وصلتُ لتلك المرحلة الوسطى بينَ الأنانية والشفقة، أصبحَ من السهلِ عليَّ أن أواسي إنساناً حزناً عليه، وبنفس الوقت لا أتركُ ما أتيتُ لأجله!

لو أنَّ السماء قررت أن تبكي هكذا فجأة، لانتهى الجفافُ في الريف، قلتُ لها ذلك، ومددتُ منديلي: فابتسمت، وظلَّ الدمعُ، يراوِحُ مكانهُ، وفي النهاية قررت أن تمسحَ المسطَّحات المائية عن وجهها بثيابِها، وعادَ المنديلُ إلى جيبي مرفوضاً، لاتزال خائفة منِّي!

إلَّا أنَّها رفعت رأسها أخيراً، وفتحت فمَها بغير النحيب....

لقد أقسمتُ أن أغلقَ ذلكَ الكتاب على ما فيه، ولكنَّني فشلت، ظللتُ أبكي في كلِّ ليلةٍ، لخمسةِ وعشرينَ عاماً، جفَّت كلُّ الحقولِ في الريف، ولم تجفَّ عينيّ، لاتزال طاقَتي في البكاء كاملةً كأنَّها أوَّلُ ليلةٍ أدفِنُها فيها...

– تدفنينَ من؟!

شرَدَ الضوءُ بينَ رموشِها المبتلَّة، رحلَ على مهلٍ إلى حيثُ تتعطَّلُ الساعاتُ، ويتوقفُ الوقت عن كينونته!

غزال!

إنَّها ابنتي الوحيدة التي وهبَني اللهُ إيَّاها في ليلةٍ باردة، كانَ الشجرُ يتلوَّى تحتَ سياط الريح، عِندما جاءت غزال إلى الدنيا قطعةَ قُطنٍ بيضاء، لفَّتَها والدتي، وألقتها في صدري، وكأنَ اللهَ قد خلقَ لي قلبينِ في جسدي، الأوَّل لأحبَّ الناسَ كلَّهم، والثاني لأحبَّها وحدها، ولم يكن ليكفي!

إنَّها أميرتي التي لم تكتبها القصص، قَطَعَها اللهُ من ذلكَ الضلع الأعوج الذي يُحيطُ بقلبي، فكانَ قلبي يخفقُ بطريقةٍ مختلفةٍ كلَّما كانت قربي، كبرت وعيناي تتبعُها، وروحي تظلُّلها، ولمَّا نضجت كحبَّاتِ التوتِ على أغصان الشجر، أحبَّت ابنَ عمِّها، وأحبَّها، كنتُ أتجسّسُ عليهما، وهما يتبادلانِ الرسائلَ في الحقل تحتَ شجرة التين العملاقة، أزجرُها عن فعلَتِها، فتضحكُ وتلقي جسدها في حضني، كأنَّها قطعةُ لحمٍ تعودُ للحمِها، وتقرأُ رسالتهُ بصوتٍ عالٍ، فنضحكُ سوية.

ولمَّا أن كبرت قليلاً خطبَها، فذاقت بقربه أوَّل سعادةِ الدنيا، كنتُ سعيدةً بها، بسعادتِها، بضحكَتِها، تخيَّلتُ نفسي، أزيِّنُها ليومِ عرسِها.

ولكن في ذلك الوقت حصلت أحداث الكساد العظيم، شحَّ الغذاء، وجاعت الأرض، وفي إحدى الليالي بينَما كانَ الشباب ينقلونَ بعضَ مخزون القمحِ هجم عليهم رجالٌ من القرية المجاورة، كانَ بيننا وبينهم ثارات ودماء قديمة، وكانوا جوعى، سرَقوا أكياس القمح، واختطفوا الشباب، وأعطونا مُهلة ثلاثة أيَّام، لإعطائهم كل مخزون القمح في القرية، وإلا قتلوا الشباب!

خُيِّرنا بينَ الموت جوعاً والموت قهراً على أبنائنا!!

حارَ المختارُ في أمره، أيسلِّمُ مؤونَتنَا التي تُبقينا على قيدِ الحياة في هذهِ السنين العجاف، أم يسلِّمُ فلذةَ أرواحِنا للموت، أم يُحاربُهم بالسلاح والشباب، فيستيقظُ العهدُ القديم بيننا من الحروب والدماء، كلُّ الخياراتِ كانت ممكنةً ومستحيلةً في نفس الوقت، كانت أيَّاماً حالكةً، قضتها غزال بالبكاء على خطيبها المختطف، وقضيتُها بالبكاء على غزال!!

ذات ليلة فكَّر المختار بأمرٍ جنوني، لم أوافق عليه، ولكنَّه كان الحل الوحيد، وعندما جاء الصبح فقدتهُ في سريره، كان قد توجَّه إلى المركز الرئيسي طالباً العونَ من رجال الشرطة في الوقت الذي كانَ الأمنُ فيه مشغولاً بالمظاهرات التي بدأت تتسرَبُ إلى الشوارع، ولكنَّهُ اقترحَ أن يكونَ عملاً بأجرة، سيدفعُ لهم ثمنَ إعادة الشباب للقرية، دونَ دماء!!

دونَ المال لم يكونوا ليستَجيبوا لأي طلب لَنا، مهمة الشرطة حماية الحكومة، وليسَ الشعب، في تلكَ الفترة أصبحت الشرطة مؤسسة مرتزقة، يحمونَ من يدفعُ لهم أكثر، حتَّى لو كانَ إبليسُ نفسه.

وفعلاً جاؤوا في اليوم التالي، كتيبة كاملة، على رأسِها رئيس مخفر القرية، والضابط المسؤول عن الريف الجنوبي، أذكر أنَّهُ جَلَسَ في هذهِ المضافة واضعاً رجلاً فوقَ رجل، وظلَّ يحدِّقُ ببابِ المضافة، دونَ اهتمام لما يقولهُ زوجي عن الحادثة، وعندما التَفَتَ قال له:

حسناً سوف نحرر الشباب، ونحمي القمح كما اتفقنا! ولكنَّني أريدُ طلباً خاصاً، اعتبرهُ أجرةً شخصية!

قالَ المختار بلهفة: ما هو؟ قل ما تريد وسأعطيك؟!

لحظَتَهـا رفعَ إصبعهُ السـبابة تجاه الباب وقال: أريـدُ تلكَ الفتاة، الواقفة بقرب الباب!

قالَها كأنَّهُ يشيرُ إلى حَمَلٍ تاه من أهله ووصل بالخطأ إلى حظيرته فأصبحَ ملكه الشخصي..

ألقى المختار بصره إلى الباب فإذا بغزال، تقفُ بقرب الباب باكية قالَ له: ابنَتي!!

– ابنَتُك! وليكُن..

إمَّـا هذا أو يُلغى كلُّ الاتفاق، وتعـودُ الكتيبة من حيثُ أتت، وأنتَ تعلم تركنا مشاغِلَنا وجئنا لنحلَّ مشكِلَتكم!

أصابَنا سهمُ الصدمة، فصمتَ الجميع، وحملقَ المختار في غزال، ثمَّ قال: ابنَتي، إنَّها مخطوبة يا سيدي!

كيفَ تكون لك....

عندها وقفَ الضابط وقال لمسـؤول المنطقة: حسناً، أعطِ الأوامر بعـودة الكتيبة وأدارَ كتفيهِ وسـارَ تجاه البـاب، حتَّى وصلَ إلى مكان وقـوفُ غزال، التـي ازدادت بكاءً عِندما اقتربَ منهـا، وقبلَ أن يمرَّ

عنها صرخت: أقبل يا أبتي! سـأكون لـه، ولكن أعيدوا «قيس» حيًّاً، وأوقِفوا هذهِ الحرب قبلَ أن تبدأ، ولا أريد شيئاً من هذهِ الدنيا!

لـم أعلم وقتَها كيفَ كبـرت هذهِ الفتاة فجأة، كبـرت دفعةً واحدة، واتَّخذت هذا القـرار الخاطئَ تماماً، وضحَّت بحبِّها، وأحلامها، وكل شيء، لنعيش!

لقـد نفخت اللحن الأول في نـايٍ موتِها، وعلى وقعِ أجراسِ البكاء رقصت رقصتها الأخيرة.

في الليل هاجمت الكتيبة القرية المجاورة، أعادوا الشباب، وتركوا دورية صغيرة لحراسة المخازن.

في الصباح التالي، اقتحمَ قيسٌ الدار، صرخَ فينا، سألَ عن غزال!!

كنتُ أبكي بشدة عِندها لأنَّها الليلةُ الأولى التي أقضيها بدونُ ابنَتي، لقد سَـبَاها منَّا، ولم نستطع أن نفعلَ شيئاً، لقد ضحَّت بنفسها لتنقذَك يا قيس....

خرجَ قيس من بيتِنا مُهلوِساً، شتَمَ نفسهُ، والحكومة، ورجال الأمن الفاسدين، وفي النهاية شتم القريةَ والبلادَ كلَّها!

ليســت بلادنا تلكَ التي تحرمُنا من أحبابنا، إنَّها منفانا الذي أعطانا الجنسيةَ وعذَّبَنا بِها..

لا عاشت أوطانُنا، تموتُ أوطانُنا وتعيشُ غزال!

تحيا غزال ويموت الوطن!!

ظلَّ أسبوعاً كاملاً يهلوس، ولا ينام ليله، ولا يأكلُ نهاره، حتَّى كادَ أن يُجـنّ، وفي الصباح التالي، حمَل سـلاحاً، وتوجَّهَ إلى البيت الذي يبيـت فيهِ الضابط في أطراف القرية، كانَ سـكناً مؤقتاً أعطيناهُ إيَّاه، حتَّى يرتبَ أموره!!

خرجت القريةُ وراءَ قيس، شـباباً، ورجالاً، قالـوا نعيدُ ابنَتنَا ولو على جثَّتِنا، وليحدث ما يحدث، الدم ولا الذُّل!!

وقـفَ أمامَ الحرَّاس، وصـرخَ فيهم، ليخـرج زعيمُكم الآن، لديَّ كلامٌ معه، جاءَ رئيس المخفر، وحثَّهُ على الرجوع، فرفض، وصرخَ ثانيةً وثالثةً ورابعةً، حتَّى خرجَ الضابطُ من البيت...

قـالَ له: أعد لَنـا غزال، واخرج من قريتِنا، وعـد من حيثُ أتيت سنحرسُ قمحَنا بسلاحِنا.....

نَظر الضابط للشـرطي المسـؤول، وضحكا: حقاً، وإذا لم أعدها، ولم أخرج!

الفتاة لي، والقرية لي أيضاً!! فماذا أنتم فاعِلون؟!

عِندهـا اسـتعرَ الـدمُ في عـروق قيس، فرفـعَ سـلاحه وصوَّبَ رصاصَتيـن تجـاه الضابـط، الأولى أصابـت كتفَ رئيـس المخفر، والثانية أصابت عينَ الضابط!!

ذلـك اليـوم اشـتعلت معركة بينَ شـباب الريف العـزَّل، ورجال الشـرطة، لقد سـمعتُ صوتَ الرصاص يعوي فـي كلّ الاتجاهات، ورأيتُ الدماءَ والجثثَ تصنعُ بساطاً أحمر بينَ حقول القمحِ الباهتة!

عادت لنا غزال هاربة، ذابلة، مسلوبةً من روحِها، كأنَّها سقطت من عليائِها إلى غيابة الجب، سألتُها عن حالِها: فذرفت دموعَ الكون في شهقةٍ واحدة، تلكَ اللحظة شعرتُ بطعنةٍ في قلبي من الخلف، وأحسست أنَّ أحداً انتزعهُ ووضعهُ في مفرمةٍ للّحوم!

تلك الليلة عادَ جسد غزال فقط، ولكنَّ روحها لم تعد أبداً، كذلك قيس! والكثير من شباب القرية!!

بعدَ ثلاثةِ أشهر، سمعتُ صوتاً قادِماً من غرفةِ غزال، كانت قد حبست نفسها عن البشر منذُ تلكَ الليلة.

دخلتُ إلى هناك ومرَّغتُ عينيّ بمنظرِها، لقد كانت تحاولُ طعنَ بطنِها، وعندمَا فشلت حاولت قطعَ شرايين يدِها، الدمُّ الشاهد كانَ يضيءُ لوحده، والجدران تتفرَّجُ عليها وتنتحب!!

لم تَعد القضية، مسألة شرف، ولا دم! ولم ينطفئ دمُ القتلى، ولن يموتَ ذلكَ الإثمُ الذي ينمو في بطنِ ابنَتي..

قالَ المختار وقد ابتلَّت لحيته، وهاجَ صوته، فيما ظلَّت قناديلُ أهلِ القرية مضاءة كلَّ تلكَ الليالي حولَ بيتنا حداداً على القتلى، وحزناً على غزالتِنا التي تذوي شيئاً فشيئاً،

هذهِ الشَّوارع التي تخرج، لتُسقطَ آلهةَ الخبز، والدولارِ عن عروشِهم، تنتفضُ لأجلِ كلِّ فمٍ جائعٍ، وكلّ لحمٍ عارٍ، وكلِّ عينٍ مُحترِقةٍ، سآخذ بحقِّ ابنَتي بالقانون أو بالدم، وليكن ما يكُن!!

ربَّما كانَ رقمُ ذلكَ المحامي عشرين أو أكثر، لا أذكر تماماً،

أذكرُ أنَّه وضعَ أصابِعهُ في شعرهِ الأبيض، وحدَّق ببطنِ الفتاةِ المنتفخِ كقربةٍ صغيرة، تنذرُ ببعثِ مصيبة!

قالَ لنا: هل قالَ لكم أحدٌ أنَّني مجنون لأقبلَ بهذهِ القضية؟

صمتنَا كلُّنا، وهوَ وقف وقال: سأكونَ المجنونَ الذي يقبلُ بها وليحدث ما يحدث!

إمَّا أن نسقطَ أو يسقطوا، لقد تعبنا من الوقوفُ على الحافَّة والاهتزاز حتى الموت، هذا الزمن سينتَهي، وهذا الجنين هوَ الذي سيُنهيه، هذهِ قضية العمر، وهذا العمر قد انتهى منذُ أن دخلتم مكتبي.....

أنا منذُ هذهِ اللَّحظة في الوقت الضائع من عمري، اضبطوا ساعاتكم من الآن، واحسبوا ثوانيكم المتبقيَّة لأجلِ قضيتكم!!

قالوا لَنا إنَّ رئيس المخفر، والضابط صُعِقا عِندما علما بالقضية، لم يتوقَّعا أن نفتحَ أفواهَنا، وقد أغلقاها بأشلاءِ شباب القرية القتلى، ولكنَّنا فعلنا.

تململَ القاضي عِندما وصلنا إلى منصته، أغلقوا القاعة، ومنعوا الإعلام، ولكنَّ زوجي اتَّصلَ على أحدِ الصحفيين المعارضين، وأخبره بالأمر..

في الجلسةِ الأولى، طلبَ رئيس المخفر للشهادة، مدُّوا لهُ المصحف فحلفَ عليه بخشوع، ولمَّا سألوه، وقفَ بكلِّ شجاعةٍ وقال: إنَّ الشرطة لم يتعرَّضوا لأحدٍ من القرية، وإنَّ القتلى كلَّهم كانوا بسبب الثأر القديم بينَ القريتين!

والفتـــاة، كانت تعمل خادمة في بيتِ الضابط الريفي، وقد ارتكبَت جنحةً ما، فسترَ الضابطُ عليها!

قال الضَّابط كلاماً مطابِقاً لما قالهُ رئيس المخفر!

طلــبَ المحامي فحص، أبوَّة مســتعجل للجنين، ذلــكَ الجنين كانَ الشــاهد الوحيد على جريمة والده، وكانَ الوحيــد القادر على إثباتِها، وافق الضابط ووافق القاضي، وتأجَّلت الجلسة لوقت النتيجة!

كانَ قد مرَّ على حملِها ســبعةَ أشهرٍ غمَّستها بالدموع والدم، أخبار قيس في اللوح المحفوظ وحده!!

وقلبُها يتحوَّلِ لقطعةِ فحمٍ كلَّما أكلَ ذلكَ الجنينُ من جســدِها شــيئاً، كلَّما مضغَ من روحها لُقمة، كلَّما امتصَّ من دمِها رشــفة، لقد كرهتهُ، تمنت أن تتقيَّأهُ كطعامٍ فاسد، وتلقي بهِ في أنابيب الصرف الصحي.

في اليوم الموعود لوصول النتيجة، رأيتُ البشــر يتدفَّقونَ كســيلٍ ســماويٍّ، إلى مركــز المدينة مــكان الاعتصام الذي أقامه الشــباب، أطلَقــوا حناجرَهــم للريــح الغاضبة، اســتَعاروا شــمعدانات الأرض وأضاؤوا بها أرواحهم، ضربوا الأســفلتَ بأرجلِهم، هزُّوا الشوارع، والمباني ظلَّت ترتعشُ لســاعات وهم يمرُّونَ تحتَها، والرصيفُ يقرأُ فاتحةً جديدة للحرية، السماء كانت تُخفي الشمسَ عنهم، لأنَّه لا ضوءَ يسطعُ فوقَ ضوءِ الثورة، والجوع، والألم، والغيوم كانت تفردُ نفسها لتشاهدَ الحدثَ العظيمَ، وتنشرَ اللون الرمادي بكلِّ درجاته في المشهد.

كنَّا ندخلُ وقتَها لقاعة المحكمة، ونســتعدُّ لأخــذِ ثأرنا من أعينِهم،

الأبــوابُ تغلقُ من ورائِنــا، والأصواتُ الهادِرة تتلاشــى، والضبابُ يتنفَّسُ عبرَ أبصارِنا في الممر الذي نسـيرُ فيهِ إلى القاعةِ الرئيســية، ظللنا نتعقَّبُ بأسـماعِنا صدى الكرنفالِ الخافتِ في الخلفية، ونتحسَّسُ أصابعَ الضوءِ العجوز الذي يتعكَّزُ على الجدران، غزال كانت تتمسَّكُ بيدي، وتصدرُ موسيقى مذبوحة، وهيَ تشدُّ على بطنِها بتجلُّد!

وَقَفنا جميعاً كشــواهد القبــور أمامَ المنصَّةِ الكبيرة، ننتظرُ نعشــاً آخر، أو نعوشــاً لم نكن نعلم بالتحديد، وَرَقَــةُ النتيجة كانت ماثلة أمامَ القاضــي، لكنه لم ينظــر إليها، قالَ أنتظرُ تأكيداً مــن المعمل الجنائي وسنعلن الحكمَ فورَ وصوله.

تشبثتْ غزال بيدي، شعرتُ بأظافرِها تنغرزُ في جلدي، ومجسَّات الألم كانت تعبرُ من خلالِها إلى أعصابي، فأوشكُ على البكاء، والدُها ظلَّ واقفاً، بجانب المحامي كبرجٍ مشـدودٍ إلى الأرض، وإلى السماء في لحظة واحدة!

رئيــس المخفر وقــف هناك، بجانــب الضابط الذي أصبــحَ بعينٍ واحــدة، والبابُ انفتــح، وصلَ أحد رجال الشــرطة راكضــاً، وألقى الورقةَ بينَ يدي القاضي، تأهبنا كأضرحةٍ معدَّة للهدم، ونطقَ القاضي بِحكمه، وضربَ المطرقة!!

حســب البيانات التي وردتنا من المعمــل الجنائي، فإنَّ هذا الجنين ليــسَ ابنَ الضابــط، لذلكَ فقد حكمت المحكمــة حضورياً على المتهم «عدنان آدم الحافي» بالبراءة من التهم الموجَّهة إليه، رُفِعت الجلسة!

لمَّــا وصلنا إلى باب المحكمة شــبهَ ســكارى ســقطت غزال على

الأرض، وصرخت حتَّى سقطت صاعقةٌ من السماء أضاءت الشارعَ أمامنا، كانَ القاضي والضابط ومن معهما يفرُّونَ في جيبٍ أسود، والأرتال الحربية تتدفَّق من كل المنعطفات تجاه مكان الاعتصام، العشرات من الرجال المصفَّحين، والدبَّابات، سمعنا شخيرَ الهواء في السمَّاعات، ورأينا المطر يندفعُ من الأعلى مذعوراً، وحينَ يصل إلى الأرض يُصبحُ نقاطاً قانية، وينتشرُ تحتَ أقدامِنا، رأينا الموتَ يُصفِّقُ لهم من بعيد، والأشلاءَ تتقافزُ لأعلى، فتتداخلُ في المياهِ التي تسكُبُها السماء، لتحاولَ غَسلَ الخطايا التي ستعلقُ على ثيابِ التاريخ للأبد.

بينَ أوركسترا الصراخ والبكاء، كنتُ أسمعُ صوتَ غزال تدفعُ كأنَّها تُخرجُ قارةً من جسدِها، تفرَّع الدم على قدميها في ممراتٍ متشابِكة، وصولاً إلى الأرض المبتلَّة، ظلَّت واقفة، ثبَّتت جسدَها على الحائط، واستمرت تموجُ في سَكَرَاتِها، تطلقُ حممَ صوتِها بينَ زخَّات المطر، فينفَلِتُ النحيبُ من كلّ الأشياء الحية والجامدة، والجنينُ متعلِّقٌ بأحشائها، متشبثٌ بالظلماتِ الثلاث، تحاولِ أن تخرجهُ وهوَ يعانِدُها، ويقودُ ثورتهُ بكلّ طاقة الكون التي أعطاهُ اللهُ إيَّاها، وفي الصرخةِ الأخيرة توحَّد الوجود لينتزعَ ذلكَ الطفلَ من أحشائِها، من الأمان والشبع والدفء، إلى الضباب والخوف والجوع.

كلُّ الأصوات تآمرت عليه لتقتَلِعهُ من حضنها وتلقي به إلى مخالبِ الحياة، وجاءَ الدنيا صامتاً، لم يصرخ، ولم ينبَس ببنت شفة، ولم ترهُ غزال، ولم يرَها، لقدَ انتزعَ روحها معهُ عِندما خرج!

وتركَ روحهُ في بطنها.

* * *

[12]
ابنُ القاتل وابنُ الوزير!



بعـدَ أن أنهيتُ يوماً ممتعاً من العمـل في المكتب، عدتُ إلى بيتيَ الدَّافئ، اسـتقبلتني فاتن بوجهها الجميل، وصوتها الموسيقي، تناولتُ مأدبَتي على ضوءِ عينيها، وأويتُ إلى فراشـي كطفلٍ سعيد جائع إلى النوم بعدَ يومٍ لعبٍ شاق!

ترررن، ترررن، رنَّ المنبِّه!!

أسـكتُّ المنبهَ بفزعٍ، واستيقظتُ فجأة على عينيْ أم غزال، خمسة وعشـرينَ حُزناً بسـطوا عباءاتِهم أمامـي، ووقفوا حولـي كجداريَّةٍ مـن الموتـى، 220 فولتاً من الكهرباء تتسـرَّب خلالَ جلدي وتُشـعلُ مفاصلِـي حـدَّ الذَّوبان، وجرعـةٌ عالية من الأدرينالـين، كافية لألفِّ الكرة الأرضية في طرفةِ عين أو ليتيبَّسَ الماءُ في عينيّ، وقلمٌ يتلوَّى

بألم بيـنَ أصابعي، تاركاً بقعةً زرقاءَ من الحبرِ تمتَّصُ بياض الورقة التي تظاهرتُ أنّي أمسـكُها لأدوّن قصة امرأةٍ تعيدُ بعثَ نفسها أمامي كطائرِ فينيقٍ من رمادِ ذكرياتِها!

تلـكَ اللحظة أدركـتُ فيهـا أنَّ أخطاءَنا البريئة أجمـل بكثير من قراراتِنا الصائبة التي اسـتغرقنا وقتاً كبيراً في التفكير باتخاذِها، لأنَّ تلك الأخطاء نتذكرها ونضحك على أنفُسنا، أمَّا هذهِ القرارات فنتذكرُها ونعضُّ أصابِعنا ندماً عليها، لأنَّها كانت الأسوأ على الإطلاق!

ثانية!!

ما الذي جاءَ بي إلى هنا!

قدماي...

لماذا أطاعتني قدماي، وأتت بي إلى هُنا؟

لماذا عزمتُ على معرفة القاتل، لأكتشفَ قاتلاً آخر!!

فـي اللحظةِ التي تكتشـفُ فيها أن الصورة الجميلة التي رسـمتها لشخصٍ ما، ما هيَ إلَّا خداعٌ بصريّ، تتمنّى لو أنَّكَ ولدتَ أعمى!

وفي اللحظةِ التي تكتشفُ فيها أنَّ السيمفونية التي تسحَرُكَ كلَّ ليلة ما هيَ إلَّا نحيبُ بلبلٍ محترقٍ، تتمنَّى لو أنَّكَ خلقتَ أصم!

وفي اللحظة التي تكتشفُ فيها أنَّ ذلكَ الإنسان الذي أحببتهُ من كل قلبك، ما هوَ إلا مجرم، تتمنى لو أنَّك ولدتَ من غير قلب!

ولكن لا شيءَ من هذا يحدث! فقط تسمعُ صوتَ المنبِّه ذاتَ صباح،

وتصحـــو من حياتِـك الوردية، إلى الواقع، وإلـــى الحقيقة، وعليكَ أن تكونَ شجاعاً لتتقبَّلَها كاملة وتعيشَها!

أو جباناً لتعودَ إلى النوم، وتطفئَ المنِّبه!

وربَّمـــا في ذات اللحظة تقررُ أن العيش في كذبة جميلة كانَ أصح ألفَ مرَّة من العيش في واقعٍ بائس!

لمَّا حاولتُ أن أعودَ إلى جســدي الأرضي، إلى اتزاني الطبيعي، إلـــى قوانين الجاذبية، فشــلتُ بشــدَّة، ظلَّ قلبي ينســلُّ خيوطاً رفيعة، وروحي تتســرَّبُ من فتحات الثياب، حتَّى اســتطعتُ أن أرى جسدي من أعلى الســقف، نادت عليه الســيدة عدة مرَّات لكنَّ ذلك الجسد ظلَّ ساكناً، وعِندما هزَّتهُ بقوة، سحبَني، فدخلتُ إليه!!

ما الذي حدث للطفل؟!

لقــد مات! لم يصرخ صرخةً واحــدةً، تدلُّ على رغبتهِ في الحياة، دفنــاهُ بعيداً عن غزال لأنَّها لم تكن تريدهُ مطلقاً، قالت لنا: عِندما يولد سأرميهِ على باب قصر والده، دونَ أن أنظرَ إلى وجهه....

أردتُ أن أســألَها عــن مــكان قبــره، ولكنَّنـــي خفتُ أن تشــكَّ بي لإصــراري، تمنيتُ لــو أرى قبره، أن أجثو عندَ ترابه، وأبكي وحدي على ما لا أعلم، وما لا أطيق!!

ذهبتُ إلى قبر غزال، كانَ قد مُســحَ حديثاً، بجانِبه حوضٌ صغيرٌ مرتَّــب مــن النعناع لاتــزال أوراقهُ مبلولــة، وعلى القبــر ثمَّة ضمة «توليــب» غافية بأمان تحتَ اســمِها، ملفوفة بشــريطة وردية بعناية

تامَّة، ذلك النوع من الأزهار الذي لا ينمو إلَّا في أحواضٍ خاصة في محـالّ الأزهار فـي المدن الكبيرة، بعيداً عـن الريف والقرى، قرأت الفاتحـة، وقررتُ الفـرارَ بوجهي الذي يشـبهُ صدفـةً وجه الضابط المجرم، كما قالت السـيدة لي، يكفي أن تنظرَ إليَّ نظرةً أخرى تحتَ ضوءِ الشمس، لِتمسِكني من رقَبَتي وتضغطَ عليها بقوَّة، لتريحَني من رؤية هذا الوجه ثانية في المرآة، أو في أيٍّ مكان!!

وجاءَ اليوم الذي أكتشـفُ فيهِ أنَّ تلكَ اللعنة الوراثية التي كرهتُها طوال عمري هيَ التي أنقذتني من الشك.

في النهاية صحيح أنَّ الشـبه بيننا كبير، ولكنَّني أصلع، هذا يجعلُ الأمر بعيداً قليلاً....

أعدتُ ضبطَ حواسي، ورفعتُ الهاتف الذي يومضُ برقمٍ مألوف! بينَما القطار يطلقُ سحائِبهُ فتتجمَّعُ في نسقٍ متتابعٍ وتسيرُ وراءَ بعضها ببطءٍ جنائزي واضح، إنَّهُ يودعُ هذهِ الحقول الصفر، التي تلوِّحُ لهُ من بعيد وهيَ تترنَّحُ تحتَ سياط الجوع!

استغرقتُ في التفكير ولم أنتبه للشخصِ وراء الهاتف، كيفَ حصلَ على رقمي ثانيةً؟! لا أعلم..

كنتُ في حالةِ سُـكْرٍ كاملةٍ، ذلك النوع من السُّـكْرِ الذي تدخل فيه بدون ولا رشـفة كحول، يكفي أن تصدمَكَ شاحنةُ الدهشة، فتقذفَكَ في الهـواء بضعة أمتار، ثـم تعودَ للأرض قطعاً موزعــة في كل اتجاه، ذلك الوقت الذي تسـتغرقه في لمِّ أجزائك وإعادَتِها لموقعها الصحيح

هو ذاته مرحلة السُّكْر التي أتحدث عنها، وخروجك منها يعتمد على سـرعتكَ في تجميع قطع اللوغو المتناثرة من جسـدك، وقد تفعلُ ذلك في لحظة، وقد تسـتغرقُ فيهِ سـنوات، وقد لا تسـتطيعُ إعادة نفسـكَ مطلقاً!!

نعم! من معي؟

رددتُ متأخراً جداً، ولكنِّي لازلتُ أحسُّ بخشخشـةِ أنفاسـهِ قربَ ثقوب السمَّاعة...

– مرحباً آدم، قل لي ما شعورك الآن؟!

هوى قلبي وصرخت: ما الذي تعنيه!

إنَّه ذلك الحقير، الذي لا يكفّ عن إزعاجي من أين يأتي برقمي....

– تعلمُ ما الذي أعنيه، ها قد عرفت حقيقةَ سُـقراطكَ المزعوم، ما الذي ستفعله الآن؟!

شـعرتُ بالخجل من نفسي، شـعرت بالبرد فجأة كأنَّني عارٍ تماماً أمامَ عاصفةٍ ثلجيةٍ!

تلفَّـتُ حولي فلم أجد سـوى بضعةِ أغراب، يتكـوَّرونَ في زوايا المقاعد الفارغة، ولا يستمعونَ لأحدٍ خارجَ أجسادِهم المعزولة!

شـعرتُ بشـيء من الطمأنينة، فهمسـتُ في الهاتف: من أنت وما الذي تريدهُ مني؟

– أريدك أن تغيِّر شيئاً، وأن تصحح تلك الأخطاء الفادحة التي ارتكبها من حولك!

– للأسف لقد فاتَ الأوان!

قلتُ له، فسمعتُ تأفّفه قبلَ إغلاقِ الهاتف!

لازلتُ لا أعرفُ من هوَ، وكيفَ يعرفُ كلَّ شيء فورَ حدوثه، ولكنِّي لا أشعرُ بالخوفِ منه؟ كما لا أشعرُ بالأمان! أنا هُنا في المنطقة الوسطى بينَ الجنة والنار، فلا أنا مطمئنٌ للأولى، ولا خائفٌ من الثانية!!

ولا أعرفُ ما هوَ شعوري تحديداً!

تشدُّني رغبة شيطانية في العودة للفيلا، وأخذ حمَّام ساخن، والغطس في القطن المخملي المعطر، ونسيان كل ما حدث، وكل ما سمعته!

ولتذهب البلاد، والقضية للجحيم، عِندما تدركُ أنَّ القتيل كانَ قاتلاً، يتولَّدُ لديكَ ذلكَ الشعور بتأنيب الضمير، لأنَّكَ نوعاً ما! تراهُ يستحقُّ ما حدثَ له، إنَّها عجلةُ العدلِ الإلهي التي لا تكملُ دورَتها إلَّا وقد خلَّصت حقوقَ العبادِ من بعضِها.

فقط في بلادِنا القاضي الذي حكمَ على مجرمٍ بالبراءة يُصبحُ وزيراً للعدل!

والضابط الذي قامَ بعمل مجزرة في إحدى القرى، يصبحُ وزيراً للداخلية!

وشاهد الزور يصبحُ نائباً لذلك الوزير!

ويقتلُ ثلاثَتُهم برصاصةٍ موجَّهة بدقَّة من مسدِّس القدر الإلهي...

لقد اســتحقَّ والدي أن يبصقَ على نفســه! وأن يُخفي حقيقتهُ عنَّا، وأن يخافَ من عينيْ والدَتي، وأن يخافَ من ماضيه!

صحيــح أنَّني أشــعرُ بشــيءٍ من القــرف من نفســي، والكثير من الدهشــة التي لا يمكنُ شــربُها على جرعةٍ واحــدةٍ، ولكنَّ رغبتي في معرفةِ القاتل تبدّدت كسحابةِ ضبابٍ خفيفة مرَّت بعاصفةٍ قويَّة!

أو هكذا أريدُ أن أقنعَ نفســي، في الحقيقة لاتزال هنَاك تلكَ الشهوةُ الطفوليــة في النظر من خلال فتحاتِ الباب الصغيرة، لرؤية ما وراء الجــدران، ووضــع أذني على النوافذ المطبقة لســماع مــا يحدث في الغرف المغلقة!

بينَ هذا وذاك، وجدتُني أدخل الفيلا الســاعة الثانية عشــرة بعدَما تحوَّلت الســماء إلى قماشٍ كحليٍّ قاتمٍ، موشّى ببعضِ النجوم المتناثرة كدموعِ طفلةٍ صغيرةٍ تركضُ أثناءَ بكائِها، فتتركُ في كلِّ زاوية دمعةً جافةً ضعيفةَ البريق!

اشــتريتُ باقةَ وردٍ من محلٍّ تعثرتُ بهِ أثناءَ تسكُّعي في الشوارع المعتمــة، كانَ المحــل الوحيد المضاء، تنهَّدتُ بألــمٍ حينما عرفتُ أنَّه محل للــورود، لماذا لاتزال محــالُّ الورود مفتوحة فــي الوقت الذي تغلق فيه المخابز؟

لماذا يبيعون الورد بينَما يموتُ الناس جوعاً؟!

يبدو أنَّ شــراء الورود شهوة نفســية، تجتاحُ الإنسانَ فجأة، قرأتُ هذهِ الجملة في عيني البائع عِندما نظرَ إلى المســافر الأشعث المترنِّح الذي دخلَ إلى محلِّه ليلاً، ســألته أن ينسِّــقَ لي باقة من وردِ التوليب، ويلفَّها في شــريطة وردية، من يسـمَعُني يظنني عاشقاً شَغِفاً عادَ إلى محبوبتــه بعد ســفرٍ طويلٍ، في الحقيقة عِندما تكون نفســيةُ الإنســان ســوداء، فإنَّ الألــوان التي يختارُها لا تعني شــيئاً على الإطلاق، لقد حاولــتُ أن أنســخَ الباقة التي رأيتُها على قبــر المرحومة غزال، منذُ تلك اللحظة وأنا أشعرُ أنَّ شيئاً قوياً يربُطني بها، شيئاً مزمناً كالشعور بالذنب، والخطيئة!

لففتُ الباقة بيــدي ولما تأكدتُّ أنَّها تماثل تلكَ الباقة، دفعتُ للبائع، وقبلَ أن أخرج سألتهُ إن طلبَ أحدٌ باقةً مثلَها من أيام، فقال لي إنَّ ثمَّةَ شــاباً طلبَ نفس الباقة، سألتُهُ هل تعرفُه؟ أجابَني: لا لا أعرفه، ولكنَّهُ كانَ مثلك، مسافراً وحزيناً ومشتاقاً، كأنَّهُ سيضَعُها على قبرِ حبيبته!

هل يكونُ قيس؟ فكَّرتُ وأنا أدوّرُ الباقة، قيس الذي اختفى يومَها؟ هــل انتقمَ لحبيبته؟ ولمَّا انتهى عادَ ليضعَ الورودَ على قبرِها، إن كانَ هو! فليكن بخير! ليكن بخير!

أنــا الآن فــي قمَّة تصالُحي مع قاتلِ والــدي، لأنَّه رحِمني من تلكَ اللحظة التي أكتشــفُ فيهــا، حقيقته، وأقفَ أمامــه، وأبصقُ في وجه المبادئ، والقيم، والوطنية التي علَّمني إيَّاها!!

فكَّرتُ ألا أتصل على فاتن! لأخبرَها بعودَتي، فقط سأفاجِئُها بباقةِ ورد، وضمَّةٍ طويلة أغســلُ بها وَهني، وأخبرَها كم اشتقتُ إليها، كانَ

هذا السيناريو المنطقي الذي يجب أن أقوم به، بالذات بعد كل هذا الغياب غير المبرر!

لا أتخيلُ ردةَ فعلِها، ولكن كل شيء متوقع من فاتن!

قد تلقي عليَّ مصباح الإنارة فتشجَّ رأسي، وقد تستقبِلُني بابتسامةِ رضىً وادعة بعد أن نشربَ جرعتين من الزهايمر لننسى كل ما حصلَ سابقاً!!

زادَ ارتباكي عندَ دخولي غرفة النوم، تحسّستُ السرير، فلم أعثر على جسَدِها، أضأتُ الغرفة فكانت فارغة، بحثتُ في الصالة وبقية الغرف فلم أجدها، ولما انتبهتُ في النهاية أنَّ هاتِفها غير موجود أيضاً، اتصلتُ بها، رنَّتينِ ونصفَ الرنَّة انتظرتُ لتجيبَني، لم يكن صوتُها ملهوفاً عليّ، ولا غاضباً مني، كانَ مصاباً بشيء آخر من اللوعة والألم، كأنَّها جفَّفت دمُوعَها حديثاً!

انخلعَ قلبي من مكانه، حينما قالت لي إنَّ والدَتي بالمشفى في وضعٍ صحيّ حرجٍ!

لتأتي صاعقةٌ وتشقّني إلى نصفين وتريحَني، كنتُ أبحث عمّن قتلَ والدي، وأتركُ والدَتي لقاتلٍ آخر، قاتلٍ لا أستطيعُ ملاحَقتهُ ولا الإمساكَ به!

رأيتُها ممددةً على السريرِ الأبيض كحوريةِ بحرٍ ألقاها الموجُ إلى الشاطئ، فاختنَقَتْ بهواء البشر، كانت تتنفَّس بالكاد، وهيَ تفتحُ فمها، وتتركُ خطاً نحيلاً من الضوءِ يتراءى تحتَ رموشِها الذابلة وعينيها شبه المُغلقتين؟

مايا تمسكُ بيدِها، وفاتن تبكي وهيَ تتوجَّه إليَّ مشهرةً دموعَها اللَّاهبةَ في وجهي، لم أقل شيئاً؟

أشرتُ بعينيّ إليها، والتبسَت عليَّ اللغة!

غرقتْ عيناها في ضبابٍ شتويٍّ، وخرجَ صوتُها مذبوحاً من مغارةٍ حادةِ الصخور...

أحْياناً نكونُ في طريقٍ مزدحمٍ فتعترِضُنا إشارة مرور حمراء، نوقفُ سيارَتِنا وننتظر أن تتغير الإشارة، ولكنَّنا بعدَ عدةِ ساعات من الانتظار، نكتشف أنَّ الإشارة علقت على اللَّون الأحمر، وأنَّ الجميع اكتشفوا ذلك وعبروا الشارعَ مسرعين، إلَّا أنتَ!!

لاتزالُ متوقِفاً في مكانك، يدُكَ متخشِّبة على المقوَد بنفس الوضعية الأولى، وعيناكَ تحدِّقانِ في العَدَم، هذا كانَ قلبي الذي خلفَ المقود!!

في موقفٍ آخر تكونُ في منطقة جبلية هارِباً من وحشٍ جائعٍ، تركضُ بكلّ هرموناتكَ وإنزيماتك، وعِندما تصلُ الحافَّة تقرر القفزَ للحافة الأخرى، وفي منتصفِ الطريق، وأنتَ في الهواء تتجمَّدُ اللَّقطة، تتوقفُ نقاطُ العرقِ في الهواء، ويتلاشى الصوتُ، وتصبحُ كلُّ الأصوات ساكنة، كما لو أنَّ أحداً ضغط على زر تجميد الصورة في التلفاز، فعلقتَ في صورةِ ديجيتال ملونة، ولو أنَّكَ قرّرتَ أن تعود لذلكَ الوحش فلن تستطيع، لا أنتَ على الأرض، ولا أنتَ في الهواء، ولا أنتَ في الصورة، أنتَ في زمنٍ منسلخٍ عنك وراء الكاميرا، وتنظرُ إلى نفسكَ العالِقة هُناك!

هذه كانت روحي التي بينَ منحَدَرين!!

هل يوجد أمل يا دكتور؟

إنَّهـا جملة درامية حفظناها من المسلسـلات القديمـة، وقلنا ربَّما سنحتاجُها يوماً!

صمـتَ الطبيـب، وأطالَ النظر فـي صورةِ الأشـعة المعلَّقة أمامَ الشاشةِ المضيئة، وكانَ الورم يبدو كتفاحةٍ صغيرةٍ في منتصفِ رأسِ والِدَتي، لقدَ اختارَ السـرطانُ رأسَ امرأةٍ عجوز، عاشـت كلَّ حياتها في عذاب، ليتسَلقَ خلاياهُ ويرفعَ رايَتهُ منتصراً بعدَ هزيمَتها، الآن يا آدم لا يمكنُكَ أن تقولَ أنَّها تستحقُّ ذلك، ولا يُمكِنُكَ أن تكونَ متصالِحاً جداً مع السرطان!!

أذكـى الأعداء هو الذي يهـزمُ روحَك أوَّلاً، وأمهرُ القتلة هو الذي يقتُلـكَ من الداخـل أولاً، عِندما تموتُ من الداخل يصبـح موتُ بَدَنِكَ تحصيلَ حاصلٍ، وإجابةَ حتمية عن كلّ أسئلتِك!

متَى آخرُ مرَّةٍ قلتُ لهَا أنَّني أحبُّها!

لا أذكر تماماً، ربَّما في الروضة عِندما قالت لنا المعلِّمة إن واجب اليوم هو كتابة كلمة أحبك لوالِدَتك، ووالدك، وشكرُهما على ما يفعلانه معنا، يومهَا أحضرتُ ورقةً ملوَّنةً، وكتبتُ فيها..

أحبك يا ماما لأنَّكِ تغيرينَ ثيابي عندما تتسخ!

أحبُّكِ يا ماما لأنَّكِ تُطعمِينَني شوكولاتة!

أحبُّكَ يا ماما، لأنَّكِ تغنينَ لي حتَّى أنام!

أحبُّكِ لأنَّك تقلِّدينَ صوتَ غراندايزر عِندَما يهزِمُ أعداءه!

أحبُّـكِ يا ماما لأنَّكِ تحمِّمِينَّني بالمياهِ السـاخنة والصابون برائحة الفراولة!

أحبُّكَ يا ماما كثيراً!!

وعِندمـا بدأتُ كتابةَ ورقة أخرى لوالدي، لم أعرف لماذا عليَّ أن أحبَّه، عصرتُ دماغي، وأجهدتُ تفكيري يومَها، ولم أجد شيئاً لأحبَّه لأجله، وفي النهاية كتبتُ له..

شكراً يا بابا لأنَّكَ دفعتَ ثمنَ العصفور الذي أحضرتهُ ماما لي!

منذُ تلكَ اللحظة بدأتُ رحلةَ البحث عن والدي، واقتربتُ منه لتلكَ الدرجة التي نسيتُ فيها، «أحبُّكِ ماما»..

ما الذي يُمكنُني قولهُ لها الآن؟

أحبُّكِ لأنَّكِ اخترتِ العيش مع والدي حتى تبقي بجانبي!

أحبُّك لأنَّ الدنيا منفاي وحضنُكِ وطَني!

أحبُّكِ لأنَّكِ أحببتِ هذا الابن العاق والأحمق!

كانت نائِمة، مسـافِرة إلى سـمائِها الأبدية، وجهُهـا بحيرةٌ جليدية راكـدة، عيناهـا بجعتانِ غافِيتانِ بسـلام، وفمُها هلالٌ شـاحبٌ، يخطُّ ابتسامةً دافِئة، وكلمة أحبُّكِ تبدو بدائيةً جداً، حتَّى إنَّني شعرتُ بالخجلِ

من نفسي، أن أقولَها أمامَ هذا السديم اللانهائي من المشاعر والحب.

الأيــام المتبقيَّة لها قليلة، لا تســتحقُّ أن أقولَ لهــا إنَّ عينَيك كانتا اللعنة التي يخافُها أبي، يخافُ أن تفضَحَا سوأته، وتكشفَا عورَته!

لا داعي أن أخبرَها أن الرجل الذي عاشت معه، والذي اقتنعتُ أنَّهُ بطل، ما هوَ إلَّا مجرم، ككلّ الرؤوس الكبيرة!

لا داعي أن أخبرَها أنَّها ولدت وحيدة، وعاشــت وحيدة، وستموت وحيدة، ســأقضي أيَّامــي القادمة بجانِبِها، أغســلُ خطايــايَ بعينيها، وأطلبُ غفرانَها، فهل تسامِحُني؟

قلتُ لَها أنَّها ستتحسن، وأنَّ عليها أن تأخذ العلاجَ في وقته، وعليها أن تتناولَ طعَامَاً جيداً لتتحسن من وعكَتِها الصحية، وتعودَ إلى البيت، ابتسمت وقالت لي في ذلك الصباح: أريدُ أن تكونَ قربي عِندما أموت!

تظاهرتُ بعدم الفهــم، وخرجتُ من الغرفة غاضباً، ووراءَ الباب تذكرت ذلك العصفور وبكيت!

تناوَبنا أنا وفاتن ومايا على البقاء بجانِبِها، أعود للبيت ســاعةً في كل يوم، أســتحم وأغيرُ ثيابي، وأرجعُ مســتعجِلاً إلى المشفى، لم أكن أتحدَّث مع فاتن حولَ أيِّ شــيء، لم تُعاتِبني على غيابي، ولا هجرها، وقفــت معي في محنَتــي كأيِّ زوجةٍ مثالية، مســحَتْ دموعي، وبكَتْ بجانبــي، وظلَّت الحائــط الوحيد في الخراب الــذي يُمكِنُني أن أختبئَ خلفهُ هرباً من القذائف!

في أحد الصباحات وصلتُ إلى المشفى، أوَّل ما أفعلهُ بعدَ تجاوزي

سور المشفى هوَ النظر إلى غرفةِ والدَتي في الطابقِ الأرضي المطلَّة على حديقة المشــفى، أستطيعُ أن أراها من النافذة تتأمَّلُ شجرة الكينيا العجوز في منتصفَ الحديقة، ولكنَّها اليوم لم تكن تتأمل شجرة الكينيا، ثمَّةَ شخصٌ معها في الغرفة، شخص غريب وليسَ في موعد الزيارة، دقَّقــتُ النظر وأنــا أقترب من النافذة، ثمَّةَ شــابٌّ جالِــسٌ بقربِها على الســرير، وهما ينظرانِ إلى بَعضِهما بصمت، وخشوع، أمسكَ بيديها وقبَّلهما طويلاً، ثمَّ مالَ عليها واحتَضَنَها برقة، كما لم أفعلَ منذُ زمن!

ونســيَت نفسها في حضنه، ظللتُ ســاهِماً، مشدوهاً، أتأمَّل اللوحة التي أمامي، فركتُ عينيَ من الدهشة، فلم يتغير المشهد!

أســرعتُ الخطى نحــو غرفَتِها، وحيِنَما اقتربتُ منها بدأتُ أســيرُ ببطءٍ شــديدٍ، كأنَّني لصّ، وضعتُ أذني على الباب، فســمعتُ صوت غناءٍ دافئ، نفس الأغنية التي كانت تغنِّيها لي قبلَ النوم، ولكن بصوتٍ ذكوريٍّ دافئ!!

أمسكتُ بمقبضَ الباب فانقَطعَ الصوت، ولمَّا فتحتُ الغرفة، كانت أمِّي تتأملُ شــجرة الكينيا من النافِذَةِ المفتوحة، وتبتســمِ بســحرٍ خالد، بينَمــا الهواءُ البارِدُ يرفعُ خصلاتِ شــعرِها عــن جبينِها فيبدو وجهها الطفوليُّ أكثرَ براءة، وأقربَ للموت.

سألتُها هل كانَ أحدٌ في الغرفة: قالت لا، أنا وفقط!

مايا غادرت قبلَ قليل، مشــغولة ببعض الأمور، لم تقل لي ما هيَ ولكنَّها تخطط للسفر غالباً...

قالت ذلك وابتسمت أكثر، ظللتُ جالساً بجانِبها وهيَ تردد تلكَ الأغنيةَ طوال الليل، وللمرة الأولى في حياتي أدركتُ أن أغنيات ما قبلَ النوم تصلح لما قبلَ الموت أيضاً!!

كانت تغنِّي بكلِّ رغبَتِها في الرحيل عن هذا العالم، وكنتُ صامِتاً أراجِعُ ذلكَ المشهد الغريب في رأسي،

لعلَّني كنتُ أتخيَّل!!

* * *

[13]
باقة التوليب!

مرَّة أخرى، ذات الرقم! لم أحدِّق طويلاً بهِ كالعادة، فتحتُ الخط! وأجبتُ كمن يتحدَّث إلى صديق قديم:

ماذا عِندك!

– كم منَ الوقت تبقَّى لو الدَتِك!

ضحكت بمرارة: تفاجِئُني دائماً، أتساءل من منَّا الذي يعمل في المخابرات! كيفَ تعرفُ هذهِ الأمور!

– ليسَ المهم كيفَ أعرِفُها، المهم ما الذي ستفعلُهُ بعد، هل ستخبر الإعلام بما توصَّلتَ إليه!

ضحكتُ أكثر، حتَّى اختنقت، فأغلقَ الخط بغضب..

نحـنُ لا نضحكُ إلَّا في حالتين، الأولى أن يحدث موقفٌ يسـتحقُّ الضحـك، والثاني أن يحدث موقف لا تعرفُ كيـفَ تتصرَّفُ حياله، والثاني يُضحككَ حدَّ الاختناق، وأكثر!

لأنَّهُ يشعرَكَ بعجزك، وجهلك، وضعفك، كما الآن!!

ما الذي سـأفعله؟ سـؤالٌ سـخيفٌ، أنا حالياً متوقـفٌ عن العمل، كجهاز بطَّاريتُهُ فارغةٌ، كحاسوب غير قابل لإدخال أي بيانات!

أنا صفر مستدير على الشمال، رعشة مجمَّدة في العروق، ودمعة متكلِّسـة في مقلَتِها، لا يسـعُني شيء سـوى أن أقفَ في أعلى برجي العاجي، وأنظرَ للمعركةِ في أسفل، وفي النهاية سأنزل وألمُّ الغنائم!!

رامي يتَّصلُ عليَّ بيـن وقتٍ وآخر، ويطمئن على أرملةِ الوزير، أشـعرُ بصوته ذابلاً مُختنقاً، ويَشـعرُ بصوتي تائِهـاً، غائِباً، نصمتُ طويلاً قبلَ أن أشكرهُ على اتصاله وأغلقَ الخط...

أصبحتُ أمرُّ بشـكلٍ يوميٍّ على محل الورد، وأشتري باقةَ توليب كتلك، وأضعَها بدل الباقةِ القديمة في المزهرية في غرفةِ والدَتي، في البدايـة كانَ الأمرُ لفتـةً لطيفةً، ولكن فيما بعد أصبـحَ عادةً مزعجةً، وهوَساً يومياً لا فائدة منه، لم أستطع أن أميِّز إن كانت ابتسامة والدتي وقتهـا ترحيباً بهذهِ الهدية المتأخرة، أم ابتسـامةَ مجامَلة، ظلَّ وجهها يزدادُ شـحوباً حتَّى لم أعد أفهم لغةَ ملامِحِها الغائمة في حليبِ وجهها المعكَّر!

ولكن في تلكَ الليلةِ عِندَما ذهبتُ لقضاءِ وِرْدِي اليوميِّ من شـراء

الــورد، بَدا البائعُ مرتَبِكاً وهــوَ يعطيني باقَتي المعتادة، ظلَّ يُحدِّقُ في وجهي، ويغمغمُ بصورةٍ غريبةٍ، أفقدَتني صبري!

سألتهُ عن سبب تشتّته، فظلَّ يفتحُ فمهُ ويقولُ حروفاً غير مرتَّبة ثمَّ يتراجع، وفي النهاية قبلَ أن أخرجَ من المحل قالَ بتردد: لقدَ جئتَ قبلَ قليل واشتريتَ باقةَ توليب، فَلِماذا أتيتَ مرَّة ثانية لشراء نفس الباقة؟!

بعثَرَني سؤالهُ حقاً، وما أثارَ ريبَتي أكثر أنَّه قرَّب وجههُ كثيراً من وجهــي ليتفحَّصَ ملامِحي، لاحظتُ أنَّــه لا يرتدي نظَّارَتهُ هذهِ الليلة، ربَّمــا لذلكَ هو لا يرى جيداً، ربَّما خلطَ بينــي وبينَ زبونٍ آخر، وأيُّ زبونٍ هذا الذي يشتري نفس باقة التوليب خاصَّتي؟!

هذا السؤال، كانَ عليَّ ألا أطرحهُ على نفسي بالذَّات في هذهِ الليلة، فقد كانت حالكةَ الظُّلمة، محاقُها غاطسٍ في القطران السماويِّ الأسود، ونجومُها تضيءُ على اســتحياء بما لا يشــبهُ التوهَّــجَ المعتاد، وقلبي يمــارسُ عملهُ في الخفقــان بطريقةٍ أقربَ للنشــازِ المؤذي للأذن منه للدقَّات المنتظمة، وأنا أســيرُ في الشَّــوارعِ المظلمة، البيوت المطفأة، والنوافذ النائمة، والمحالّ المختومة بالشــعارات والصور، والشوارع الصامتة تتأهَّبُ لأمرٍ ما!

لقــد تحــدَّدَ موعدُ إعدام عزيز بعدَ شــهر، فقامت الســلطات بقطع الكهربــاء وخدمــات الإنترنت حتــى لا يتواصل المعارضــونَ معاً، ويهيجَ الشارع، الناس شــرِبوا صاعِقةَ الخبر، وخرُّوا مذهولين، وأنا خرجتُ ملهوفاً لشراءِ باقَتي قبلَ تطبيق حظر التجول، المفترض بدؤه صباح الغد، إلا ما لا يعلمُ أحد.

إلى الآن لم أستطع أن أفهم كيفَ يصدُّقه كل هؤلاء الناس، حتى بعد اعترافه بكل تلك الجرائم، وإمساك أغلب عصابته!

عدتُ لوالِدَتي، وكلماتُ تلكَ الأغنية تدورُ في شفاهِها كأسطوانة مسجلة تعيدُ بثَّ نفسها، النافِذَةُ مفتوحة تنفثُ هواءَها البارد على وجهِ أمي، وهيَ تحضنُ بينَ يديها باقةَ توليب، ركَّزتُ فيها قليلاً كانت كتلكَ التي أحضرُها كلَّ يوم، ولكن هذهِ بالذّات لم أحضرها أنا!!

جفَّت شفتاي، وأنا أحاولُ إيجاد سؤالٍ مناسب لطرحه، ولكنَّها تابعت غِناءَها، كأنَّها آخرُ مغنيةٍ قبلَ طوفانِ النبي نوح، وعِندَما انتهت أشارت إلي أن أقتربَ منها، أَبْعَدَتْ تلكَ الباقة، وشدَّتني إليها، ومالت على صَدْري، شعرتُ بثقلِ رأسِها، ورأيتُ عيناها تصوبَّان الضوءَ على سقفِ الغرفة، كأنَّها تتذكَّرُ فيلماً سينمائياً، وتعلَّقُ على أحداثه، إنَّها تدخل في حالةِ هذيان فهيَ لاتزال تنظر إلى السقف، وتبتسمُ بطريقة مخيفة، قلتُ لها: سأستدعي الممرضة!

فتمسَّكت بجسمي أكثر، وقالت: أرجوك هذهِ المرة فقط كن مطيعاً لأمك!

ثم قالت لي: هل تعلم يا آدم ما هما الشيئانِ اللذانِ أخفيتُهُما عن والدِكَ طوالَ حياتي؟!

ـ لا أعلم!

أجبتُها وأنا أتحسّس جبينَها البارد، وأوشكُ على البُكاء، فإذا بها تتابع: لم أقل له أنَّني كنتُ مصابة بالصلع وأنا صغيرة، لقد كانَ

شــعري خفيفاً جداً لدرجةِ أنَّهُ يكشــفُ جلدةَ رأســي لم أهتم له كثيراً، ولكنَّ وصيفَتي أصرَّت على علاجي، المهم أن شــعري تحسَّــن قليلاً بحيثُ لا تظهر علَّته بشــكل واضح، ولكنَّ والــدكَ ظلَّ محتاراً عِندما وهبــهُ اللهُ طفلاً أصلع، قالوا لي فــي البداية إنَّ جميع الأطفال يولَدون هكذا وفيما بعد ســينبتُ شعرٌ غزيرٌ، والِدُكَ صدَّق ذلك، ولكنِّي علمتُ في داخلي أنَّك ستظلُّ أصلَع طوال حياتِك!

يا الله! ما الفائدة من قول أمور كهذهِ الآن؟!

قلتُ لها بصوتٍ خاضعٍ، راجٍ، ولكنَّها لم تلتفت لي بل أكملت وهيَ تضيِّقُ عينيها وتركِّزُ أكثر في زاويةٍ معينة في الأعلى..

الأمــرُ الثانــي الذي أخفيتهُ عن والدِك، وعنك وعن مايا! هو ســرُّ هذهِ الباقة!

هــل تذكر يومَ رأيتَ ذلك الشــاب عنــدي في الغرفة مــن النافِذةِ، وعندما وصلت كان قد اختفى!!

شــعرتُ بالفزع كأنِّي أهبطُ في لعبةِ الأفعوانية من أعلى نقطةٍ إلى الأرض وهي تتكلَّم..

لقد منعتَ نفسكَ من سؤالي ولكنِّي رأيتُ الارتباكَ في عينيك، كنتُ سأخبركَ على أيَّةِ حال، ولكنِّي انتظرت اللحظة التي يمكنني ألا أعودَ فيهــا عن قــراري، في النهاية عليكَ أن تعــرفَ حقيقةَ والدك، وحقيقةَ كلّ شيء!!

لكم أشــفقتُ على نفســي حينَ لفظت جملَتها تلك؟! إنَّها جَلدةُ سوط

وليســت جملة! أغمضتُ عينيّ، وكنتُ أتألم بشدَّة وهيَ تستحضرُ كلَّ تلكَ الأرواح دفعةً واحدةً..

لقــد حزنــت على فقد والدكَ حقــاً، ربَّما لم أكن أحبُّــهُ حقاً، ولكنَّي اعتدتُ وجوده، مع الوقت التعوُّد يصبحُ حاســةً قويَّةً لتقبِّل الأشخاص غير الموجودين في قلوبِنا، يجعَلُهم مألوفين للعين، وقابلين للهضم!

وهذا ما حدث مع والدك، حتَّى تلكَ الحادِثة!!

– أرجوكِ توقَّفي!!

لم تكن تسمَعُني، تابعت....

كانَ والــدك قد ذهب في مهمة عدة أيَّام إلى الريف الجنوبي، ليحل إحدى المشــاكل بينَ قريتين هناك، وبدلاً من ذلك فقد تســبب بمجزرة بســبب أَسْــرِهِ لابنة مختار تلــكَ القرية، في ذلك الزمن يــا بُني كانت أيدي الأمن طويلة، وشــديدة البطش، يرتكبون ما شاؤوا من الجرائم، ويســفكون ما أرادوا من الدماء، ويتحكَّمون في مصائر البشــر، قتلاً وأسراً وسخرة!!

عِندما عاد لم يَقل لي شــيئاً سوى أنَّها مهمة روتينية، ومملة، هكذا كانوا، يتناولونَ لحم البشــر ببساطة، ثمَّ يقومون عن الجثث ويغسلونَ أيديهــم بأغلى أنواع الصابون، ليسـلِّموا على رؤســائهم بأيدٍ نظيفة، والِدُكَ كانَ منهم!

مــع الوقت انقلبــت البلاد رأســاً على عقب، اعتصم الشــباب في الساحة العامة، وثار الناس، ولم تجدِ كلُّ الأساليب الحيوانية لردعهم،

وفي يوم اتصل عليَّ أحد أصدقائي الصحفيين وأخبرني أنَّ أهلَ القرية رفعوا دعوةً على والدِك، ولمَّا تحرَّيتُ الأمر، اكتشفتُ أنهم يقومون بتمثيل تلك المحاكمة على أهل القرية، لتنظيف أثوابِهم مما علقَ فيها من الغبار، ظنَّ الجميع أنَّ الحكومة ستسقط بعد ذلك الاعتصام، وظنَّ ذلكَ الصحفي أنَّ نشر معلومات تلك الفضيحة سيكونَ أحد أسباب سقوطهم، ولكنِّي علمتُ أنهم يقومون بتلميع أحذيتهم، للسير فوقَ جثث الثائرين!

تلكَ الفتاة المسكينة، كانت حاملاً، حاملاً بذنب أبيك، أخذوا عينةً من سائل الجنين، ليثبِتوا جريمته، وهكذا خرجت نتيجة المعمل الجنائي، وعلم القاضي بها، ولكنَّهم زوّروها في اللحظة الأخيرة، وحكَموا ببراءةِ والدِك!

أعطاني اللهُ البصيرةَ لأعرفَ أنَّهم سيفعلونَ ذلك!

وأعرفَ أنَّهم سيحاوِلونَ قتلَ تلكَ الوالدة وذلك الطفل، فألهَمَني أن أحميهم...

قفزَ قلبي، من مكانه ما الذي تهذي بهِ والدَتي: ألم تَمُتْ تلكَ المرأةُ وجنينُها!

ابتسمت أمي: كنتُ مستعدةً أن أموتَ ليَعيشا، ولكنِّي لم أستطع أن أحمي الجميع، لقد أرسلتُ سيَّارةً مصفّحةً إلى المكان، ونقلتُ الفتاةَ وهي في مخاضِها، كانت تصرخُ من ألمِ الولادة، ومن ألمِ رصاصةٍ أودَعوها قلبَها، فاختلطَ الوَجَعانِ معاً، وجعُ الولادة، ووجعُ الاحتضار،

قبـلَ أن نصلَ إلى المشـفى ماتت غزال على يـدي، وكانَ ذلكَ الطفلُ يصرخُ بأعلى صوته، كَما يولدُ كلُّ ثائر!

– هل هل عاشَ ذلك الطفل! هل عاش أ... أخ...

تلعثمتُ، والتصقت الحروفُ في كلّ أجزاءِ لساني، لم أستطع نطقَ تلكَ الكلمة، ولكنَّ والدَتي فعلت!

نعم لقد عاش، وكبر أمامَ عيني كنخلةٍ باسقةٍ لا تهزُّها الرياح، هو ذلك الشـاب الذي رأيتهُ عندي ذلك اليوم، وهو ابنُ غزال، وهوَ الذي أحضر لي باقة التوليب لأنه علمَ بموعدِ موتي!

أمَّا ذلك الشاب الحُر الذي تسبب بالندبةِ في عينِ والدك، لقد حاولتُ تهريبه، حاولت كثيراً، ولكنَّني فشـلت، كم أشعر بالعار، والخيبة لأنَّه ظلَّ منفياً وراء الشمس!

– هل تعنينَ قيس!!

بـدأتُ أدخلُ فـي طقوس الهلوسـة والصراخ، وهـيَ تنعزلُ عن صوتي!!

قالت تلكَ الجملة وظلَّت تتطلَّعُ للأعلى بشغفٍ والضُّوءُ يهطلُ على وجههـا كنُتَفٍ متواصلة من الثَّلج، استشـعرتُ نبضَها، فلم أسـمع لهُ حساً، ارتجفَت كلُّ الخلايا في جسدي، وسقطت دموعي على وجهها، وأنا أصرخ على الممرضة، ظلَّت تبتسـمُ حتَّى بدأت تتعرى أسنانُها، رفعتُ رأسَـها، وهززتُها بقوَّة، ولكنِّي شعرتُ بهواءٍ دافئٍ يمرُّ قُربي،

وبجسدِها يرتخي أكثر، صرختُ فيها: أرجوكِ، لا تموتي، لا تموتي الآن!! على الأقل قولي لي أينَ هو أخي؟!

لا أذكرُ تحديداً ما حدثَ بعدَ ذلك، امتزجت كلُّ المشاهد معاً، ركضَ الطاقم الطبِّي، وظلُّوا يهزونَ جسدها، ويصعقونَ قلَبها، غيرَ أنَّ قلبَها كانَ أنهى عمَلهُ في هذا الجسد على أكمل وجه، لقد أتمَّ مهمَّته، وتوقَّف مرتاحاً، غبتُ عن الوعي من الداخل، ولكنِّي كنتُ صاحياً من الخارج، وفي الحد الفاصل بينَهُما، أظنُّ أنِّي رأيتُ بُخاراً أبيض شفَّافاً يتسرَّبُ خلالَ السقفِ ويختفي بسلاسة.

الشوارع المظلمة بدأت تبعثُ أنواراً صغيرة، الآلاف من الشموع أشعلها الناس، ووضعوها على نوافِذهم، في ذات الساعة لتعلم السلطات أنَّهم لايزالون معاً، يسمعون معاً، ويرونَ معاً، ويشعرون معاً، ويتوهَّجونَ معاً، وأنَّهم لن يسقطوا!!

لمَّا انعكست السماء تلك الليلة، أصبحت على الأرض، وتطرَّزت بشموع الثائرين، البائسين، كنتُ أحدِّقُ في عروس البحر التي جفَّت وماتت على يدي، وأحاول استيعاب كَلِمَتها الأخيرة!

* * *

[14]

نور............

...خرجــتُ معهم، انســالوا مِــنَ الأزقَّةِ المتعرِّجــة، ومِن تلافيف الشــوارع في أطــراف المدينة، انبَثقوا من مســاماتِ المباني، انثَعبوا من الأسفلت، وتدفَّقوا أنهاراً رمادية عبرَ الطرق الرئيسية، مشياً على الأقــدام، وصولاً إلى الســاحة المركزية فــي العاصمة، عندما وصَلنا هناك كانت الطرقات تصبُّ الكتل البشــرية من كل جهة، فتندمجُ معاً وتصيــرُ كتلةً واحدةً، مرتَّبة في مصفوفةٍ متلاصقةٍ، خطوطاً أفقية من البشــر المتراصِّين على الأرض، مشــبِّكينَ أذرعهم معاً، ومشَّــحمِّينَ وجوههم بفحم المداخن التي تستعدُّ لشتاءٍ استثنائي هذا العام!

كانت الســاعة تشير إلى التثاؤب الأوَّل للشمس، ولم تكن سيارات الشــرطة قد لفَّت الشــوارع ونادت في مكبِّرات الصــوت ببدء حظر التجوال!

انسلختُ عَنهم ومشيتُ لساعتين أو أكثر، وأنا أسمعُ صوتَ سيارات الشرطة من بعيد وهيَ تعوي باتِّجاه الساحة المركزية.

قبلَ يومين دفنتُ والدَتي، بعيداً عن والدي كما أوصتني، قرأتُ الفاتحةَ، وتفحَّصتُ وجوهَ المعزِّين واحداً واحداً، ولكنَّه لم يَكُن بينهم!

وفي اليومِ التالي لحقتُ مايا في اللحظةِ الأخيرة قبلَ أن تبتَلِعها بوَّابةُ المغادرينَ في المطار، سلَّمتْ عليَّ ببرود، ولكنَّ عينيها كانتا حمراوين، إنَّها آخرُ شيءٍ يربِطُني بأمي، وأبي، وهذه البلاد، لِما لا آخذ فاتن وألحقُ بِها! هذهِ البلاد لم تعد تصلحُ للعيش، إنَّها تتمرد على نفسها، وتثورُ على أبنائها، لما لا نرحل، طالما نستطيعُ ذلك؟!

قالت لي مايا، وقد كانت منطقية جداً، كعادَتِها! إنَّها دائماً تبحثُ عن مصلَحَتِها، تفضِّلُ أن تكونَ أنانيةً وسعيدةً، على أن تكونَ البطلَ الدرامي الذي يضحي بكل شيء ليعيشَ الآخرون بسعادة، بينَما هوَ يعيشُ تعيساً للأبد!

كانت تظنُّ أنَّني من هذا النوع، لم تعلم أنَّني أكثر أنانية منها، لأنَّ الذي يبحثُ عن الحقيقةِ لنفسه! أسوأُ من الذي لا يبحثُ عنها مطلقاً!

أنا كنت منَ النوع الأول، وهي من النوع الثاني، رافَقَتها السلامة هيَ وثيابُها، وعطورُها، وماركاتُها، ومنطِقُها الذي ستعيشُ فيهِ للأبد في بلاد الغربةِ والرفاهية!!

الحقيقة أنَّني فكَّرتُ طويلاً فيما قالتهُ لي، ظللتُ أحدِّقُ في جواز السفر بقيةَ النهار، وأتخيَّلُ وجهَ أمِّي والشموعَ التي أضاءت بالتزامنِ

مع أنفاسِــها الأخيرة، وســرَّها الذي لَفظتهُ من حشاشَــتِها قبلَ أن يثقلَ جسدُها في صدري، وتنطفئ!

قالت لي فاتن لحظَتها بعينين بائســتين: السفر فكرة جيدة، سنعيش حيــاة جديدة، كما نريــد، لدينا مبلغ جيد في أحد البنــوك في الخارج، يمكننا شراء فيلا تطل على بحيرة، وشراء سيارة، وقد نكملُ دراستَنا، ونتبنى طفلاً يملأ لنا حياتَنا أيضاً.

عندما تنظر من هذهِ الزاوية ترى الصورة مشــرقة وجميلة، يبدو كحلمٍ على وشك أن يتحققَّ، مع أنَّها قالت لي أنَّها لم تفكر في الأطفال منــذُ أفقدَها الطبيبُ الأمل في رَحمِها، لكن لا توجد امرأة لن تفكِّر في الأطفال، الأمومة مســألة جينات عندَ النســاء، فعندَمــا يخلقُ الله لهنَّ القلب والعينين والرحم يخلقُ معها الأمومة...

وفــي اليوم التالي خرجــتُ قبلَ الفجر، ووجدْتُني أســيرُ مع الذينَ يســيرونَ، منظرُهم كانَ مهيباً خلَّاباً لا يُمكنُكَ إلَّا أن تســيرَ معهم، أن تتبعَ هذا الصراخ الصامت، وهذا الحزنَ المبهج!

ولمَّا تأمَّلتُهم تذكرتُ صوتَ أمِّي في النزع الأخير فتبِعتُه..

هَل يُعقلُ أنَّها قالت اسم العم صالح! العم صالح دونَ غيره؟ أم أنَّه التبسَ عليَّ صوتُها في سكرات الموت، لا أعلم!

المهــم أن أتبــعَ الصــوت، نزلتُ المنحــدَرَ المؤدِّي إلى المســاكن العشوائية، هُنا يَسكن ثلثُ الشعب، حيثُ لا شبكات للصرف الصحي، ولا طرق مرصوفة، ولا خرائط للبلدية، كلُّ المشــاريع الهلامية التي

قيلَ عنها في الإعلام لحلّ هذه المشكلة لا تتعدى كونَها هراءً إعلاميّاً من الحجمِ العائلي!

وهُنا عاش العمّ صالح، إنَّهُ رجلٌ يعمل في أكبر مباني الدولة، حيثُ العاملون يحتاجون إلى ميزانية خاصة لرواتبِهم، وهوَ يتقاضى فتافيت النقود من الشركة الخاصة بتشغيل العمالة في مباني الحكومة!

شركات وجدت لتحرث على الفقراء وتبتلعَ رزقَهم، علمتُ أنَّه لن يخرجَ مع المعتصمين، كانَ وسيظل من النوع الصامت، الذي يأكلُ القطّ عشاه! فينامُ جائعاً!!

طرقتُ الباب، فتحَ لي بسرعة كأنَّهُ ينتظرُ أحداً، تفاجأ بآدم، ولم يتفاجأ بآدم!

هل توقَّعَ حضوري؟

أجلَسني إلى طاولة الطعام البلاستيكية، المحاطة بثلاثةِ كراسي، تساءلتُ لمن الكرسي الثالث؟!

هل توفِّيت الوالدة؟!

سألَني بألم، وهوَ يمد كأسَ شايٍ كانَ معداً مسبقاً، لزائرٍ ما!!

أحطت الكأس بِيَدَيَّ، أحتاج لهذا الدفء بشدة، أحتاج لهذهِ اللَّسعة!

كيفَ عرفتَ أنَّ والدتي توفِّيت؟

عيناه الثابتتان، ظلَّتا تلتَهمانني، ابتسامته، صمته، الكثير من الضجيج يكادُ يتملَّصُ من ملامحه، ولكنَّه يسيطر عليه، لم يُجبني!

ظلَّ صامِتاً، وتابعتُ ارتشاف الشاي، ومتابعَةَ فمه المطبق!

مَتى نسيتُ وجهه، تقريباً في الشُّهورِ الأخيرة فقط، لقد عرفتهُ منذُ صغـري، ربَّما يعرفُنــي كوالدَتي، لم يعمل أبي في مــكانٍ إلَّا وعملَ بــه تقريباً في فترات زمنية، مجتمعــة أو متفرِّقة، المهم أنَّه كانَ مدير الشــاي والقهوة في كلِّ المباني الحكوميــة التي عملَ بها، إنَّها منصبه التشــريفي الملتصق به، لازلتُ غيرَ متأكدٍ إن كنتُ ســمعتُ اسمه من والَدتي أم لا!

هل أخبرتك بكل شيء؟!

ســألني قاطِعاً هرولةَ أفــكاري، وأنا عقَّدتُ حاجبيّ، واســتغربتُ سؤاله....

– عمَّ تتحدَّث؟

لعقَ شفتيه، وقالَ بتردّد واضح..

هل أخبرتك السيدة، عن قصة والدك! وعن المحاكمة....

شعرتُ بسخونة في صدري، عِندما ذكر تلكَ الكلمة، أجبتُ كأنَّني أهاجمه، كيفَ علمت بذلك؟!

نصفَ تنهيدةٍ، وســكتة طويلة سبقت جملته تلك... «لقد كنتُ هناك في الســيَّارة المصفَّحة التي أرسلتَها والدَتُك! لقد كنتُ الشخص الثالثَ الذي حمل ذلك الطفل بعدَ والدته، وجدَّته، وقد...».

– وقد ماذا؟ قل لي هل تعرفُ مكانه؟

قلتُ بما يشبهُ الصراخ المبحوح..

وقـد أخذته معي إلى البيت وربَّيته، لقـد أصبحَ ابني بعدها، قامت والدتك بعمل شهادة ميلادٍ له باسمي، وغيرنا مكان سكننا، وقلنا للناس أنَّهُ ابننا!!

والدَتـك هيَ التي تكفَّلت بمصروفاته منذُ يومه الأول حتَّى تخرجه فـي الجامعة، كانت تزوره كلَّ أسـبوعٍ هُنا، وكنا نقـولُ له إنَّها عمَّته التي تسكنُ بعيداً، ولكنَّه أصرَّ أن يناديها أمِّي!

نسـيتُ فكِّي مفتوحاً، وشـعرتُ بحرارةٍ في عينيّ، حرارة تنبعثُ من الملح والماء السـاخن، وغطسَ صوتي بعيـداً عن حنجَرَتي، حاولتُ أن أقولَ شيئاً فلم أفلح في التقاطِ الحروف ولا الكلمات من ذلك القعر العميق!

بينما استمرَّ العمُّ في حديثه..

لقـد تعلَّق بالسـيِّدة كثيـراً، وكانت تحبُّـه أكثر، ولمَّا كَبُـر أخبرتهُ بالحقيقة كاملةً! جلست بجانِبه هنا على هذا الكرسي وقالت له القصِّة، كيفَ زوَّروا فحصه الجيني، وكيفَ أطلقوا النارَ على صدر والدته من سطحِ عمارةٍ مقابلةٍ، وكيفَ انتزعَ نفسهُ من أحشائها غصباً عن الدنيا كلِّها، وكيفَ أنَّ والدَهُ لا ينامُ في الليل إلَّا بالحبوب المنوِّمة، لأنَّه قتلَه!

يومَها بكـى كثيراً في حضنها، حتَّى نامَ أخيـراً، كفرخِ يمامٍ نَتَفوا كلَّ ريشاته!

أحتـاجُ أكثرَ مـن عمري الذي مضى لأسـتوعبَ كلَّ هذهِ القذائف دفعةً واحدةً، لكم كانت الحقيقة قريبة منِّي!

كانت في الغرفة المجاورة، في كأس الشاي، وفي الحضن الليلي، وتحتَ رقعةِ العين!

أنـا الوحيد الذي أُصبتُ متأخراً بالطعنة، كلُّهم تلقُّوا السـكينَ على مَهل إلَّا أنا، تلقَّيتُها فجأة! بتلكَ الطريقة التي لا تعطيني الحق لأَستعملَ كلَّ حروف المدّ لأتوجَّعَ بها!!

أنا وحدي المنقوع في هذهِ الخيبة من أعلى هضبةِ رأسي العارية، حتَّـى أصغر إصبعٍ في رجلي، كيفَ اسـتطاعوا أن يعيشـوا، ويخفوا عنِّي كلَّ شيء، أينَ أبحثُ عن نفسي التي ضاعت منِّي بعدَ الآن، إنِّي أراها تبتعدُ راكضة، بحثاً عن تأشيرةٍ إلى النسيان.

استعدتُ صوتي متأخراً، وعاجزاً!

قلتُ له: أينَ يُمكنني أن أجده، أريدُ أن آراهُ فقط!!

هزَّ العمُّ رأسـه بأسـف، قالَ لي: إنَّه اختفى بعدَ مقتل وزير العدل وتفجيـرات الشـرطة، يأتي أحيانـاً، نطمئنُّ عليه، ويغادر مسـرعاً، خائفاً، كأنَّهُ يهربُ من أحد!!

قبلَ أن أهربَ من عينيْ العمّ، سألتُهُ بلهفة ما اسمه؟

ابتسمَ أخيراً: لقد أسمتهُ والدتك، نور!

قفزت قرصةٌ إلى لسـاني، فالتفتُّ إلى العم على الباب وسـألته: ما علاقته بعزيز لطفي!

فاصفرَّ وجههُ، ودخلت عيناهُ في حجرَيهمَا، وشحبَ لونه.....

* * *

[15]
وراء الشمس!

تمنَّيتُ لو أنَّهُ كذبَ عليَّ وقالَ لي أنَّه لا توجد أي علاقة تجمع نور بعزيـز! ولكـنَّ والدَتي أوصته أن يخبَرني الحقيقـةَ عِندما أزوره بعدَ موتِها!

لِمـاذا يؤجِّلُ الناسُ الحقائقَ حتى لحظةِ موتِهـم، وأحياناً يوكلونَها لشخصٍ آخر بعد موتِهم، وكأنها مادة قابلة للاشتعال!!

الكثيـر من الأسـئلة تولد بلا إجابات، والكثير مـن الإجابات التي نحصلُ عليها بعد لأيٍ تجعَلُنا نشـعرُ بالندم، تجعلنا نتمنى لو أنَّنا بقينا جهلة، ولم نسـأل ولم نبحث، ومع الوقت تصبحُ وشـماً مؤذياً يُذكِّرُنا بالعار والخزي، لأننا لا نستطيع أن نغيّرَ شيئاً.

جميعُنا نرغب في إحداث تغيير، ولكنَّ القليل منَّا يبدأ بإحداث هذا

التغيير، وحدَها والدَتي امتلكت الشـجاعة الكافية لتحدثَ ذلك التغيير، لقد ربَّت الطفلَ الذي أخذَ حقَّ الشعب ممَّن ظلموه، حتى ولو لم يعرف أحـدٌ ذلك، ولكنَّه انتقم لوالِدته منهم، لا أعرف تحديداً عن نوايا عزيز وسـبب إشـعاله هذهِ الثـورة، ولكنَّني أعـرف أنَّ نور بـدأ هذا الأمر ليعـرف الجميع أنَّ الثأر لا يبرد، وأنَّ الحق لا يموت طالمَا أن وراءه سكيناً أو مسدَّساً، أو ظفراً ينشبُ في الأسوار العالية!!

عدتُ إلى الساحة العامَّة في المساء، الناس لايزالون يتوافَدون من كلِّ مكان، المصفحَّات والآليات العسكرية تحيط بهم، وهم لا يتوقَّفونَ عن التوالد، السَّاحة متأهبة، والجميع يهتف الحرية لعزيز لُطفي!!

حتَّى بعد أن تمَّت إدانته بتجارة الأسـلحة والمخدرات، واعترافه، لايزالـون يؤمنون بـه، لأنَّه من أيقظهم، ومن قـالَ الكلمةَ الأولى في وجـه الحكومة، إنَّـه روبن هود تاريخِنا، لولا أنَّه اعترفَ لي بلسـانه الذي سـيغلقُ في بلعومه عندَ موته، لما صدَّقتُ أبداً، إعدامه سـيكون الشعرة التي تقصمُ ظهرَ البعير، لا أحدَ يعلم ما الذي سيحدث بعدَها!!

لقد قادَني إلى أخي الذي لم أعلم بوجوده، كم هيَ صعبة هذهِ الكلمة، لأن حروفَهـا تخرج من أعماقي، وليسَ من مخارجها الطبيعية، لأنَّها كالنصال التي تسنُّ في حنجَرَتي، أخي نور! الذي أسمته والدَتي، كانَ موجوداً طوال الوقت، وأنا الذي كلَّما سألتُها لماذا ليسَ لي أخ، طفرت دموعُها، فظننتُها حسرة، إذا بها دموع الذنب، والخوف!

ما أصعبَ أن تتمنى شـيئاً طوال عمرك، ولا تجده! وتكتشـف في النهاية أنَّه كانَ بقربِكَ طوال الوقت!

هل كانَ وجوده سيغيِّرُ شيئاً من حياتي؟

هل كانَ وجودي سيغيِّرُ شيئاً من حياته؟

أخي الذي قتـلَ والده، بتخطيطٍ محكمٍ من صديقه، لازلتُ أريدُ أن يكونَ قيس هوَ الفاعل!

ولكـن نـور!! أمرٌ يصعـبُ عليَّ إدخالـه إلى قاعـدة البيانات في دماغــي، مجرد وجوده، والتفكير فــي أنَّه قتلَ والدَه، لقد كان الصديق الأقرب لعزيز منذُ الطفولة، كبرا معاً في ظل هذا الشـقاء، متمَّسـكين بتلك الحقيقة، وخططا معــاً، نور حصلَ على انتقامه، وعزيز حصلَ على ثروته!

وبينَ هذا وذاك ولدت ثورةٌ طاهرةٌ جداً، ليسَ لها علاقة بالأمرين!!

ظللتُ جالســاً علــى أحد الأرصفــة بجانب المتظاهريــن، أغْرقُ في طقوسِ تأمُّلي وتفكيري، وأذوبُ في أصواتِهم شــيئاً فشــيئاً، كانوا يصرخون بحناجرَ ملتَهِبةٍ فتتبعْثَرُ الحرارة على شـكلِ شــراراتٍ في الهــواء، وتبعثُ الدفءَ في الهواء، وحدي كنتُ أشــعرُ بالبرد، فأشـدُّ الجاكيت عليَّ بقســوة، وهُم يشتَعلونَ أكثر، يتوهَّجون أكثر، يرتَفعونَ أكثر، وأنا أرتَعِشُ أكثر!!

الحرية لعزيز لُطفي!

إمَّا الموتُ أو الحرية، إمَّا الموتُ أو الحرية!

فلتسقط الحكومة... فليسقط الرئيس!

فلتسقط الحكومة..... فليسقط الرئيس!

ويصرُخون، وكلُّ شيءٍ يتقلَّصُ حولَهم، وهم يكبرون، المباني تصبحُ أصغر، والمحالّ، وتمثال الرئيس المنصوب في الساحة، والمصفحات من حولهم، كلَّما هَتَفوا أكثر تلاشى كلُّ شيء، عداهم إنَّهم يُصبِحونَ جزءاً من التراب، والهواء، والأشجار، إنَّهم يتحوَّلون لأشكالٍ أكثرَ خلوداً من البشر، إنَّهم يتحوَّلون لقضية!! إنَّهم يتحوَّلونَ لثورة!!

لم أعلم ما الذي جاءَ بي إلى هُنا ثانيةً، لقد وجدتُ جسَدي يتحركُ إلى السَّاحة، يجتازُ الشَّوارع والأزقة وصولاً إلى هنا، صوتٌ داخلي يقول لي إنَّ نور هُنا، جزء مني يريد أن يراه بشدَّة، وجزء آخر يريد قتله بشدة، والجزء المتبقِّي مني يمارسُ الوظائف الحيوية المعتادة كالتنفُّس والمشي، والأكل ولا يأبه بأي شيءٍ مما يحدث لبقية الجسد، أعتقد أنَّه الجزء الوحيد الصحيح في جسَدي.

في المساء، تمَّ إضاءة إحدى شاشات الدعاية على أحد المباني، وأطلَّ الرئيس على الشاشة، الكاميرا تُظهر الجزء الأعلى منه فقط، لأنَّه لا يُحبّ أن يظهر الكرسي المدولب الذي يسير عليه، لا يُحبّ ذلك النصف العاجز منه، الذي لم يستيقظ من تلكَ الجلطةِ أبداً!!

نَصَب الورقةَ المعدَّةَ أمامه، وقالَ بطريقته الخطابية الركيكة:

أَيُّها الشعب العظيم، أيَّها الوطن الغالي، يا أبناء هذهِ الأرض العظيمة، لقد استمعتُ لصوتكم منذُ اللحظةِ الأولى التي خرجتم بها، صوتُكم هزَّ جدرانَ القصر الحكومي.

تعلمــونَ جميعاً أنَّنا نتعـرَّضُ لمؤامرةٍ خارجيَّــةٍ مُحكمةٍ، أعدَّ لها الأعداء المتربِّصون بأمن، وســلام هذهِ البلاد، وللأســف فقد انســاق وراءهــم بعض أصحاب المصالح من أبناءِ جلدَتِنا، فعاثوا فســاداً في البلاد، وفجَّروا المقارّ الحكومية، وقتلوا أعيان البلد، وحرَّضوا الناس وراء الكواليس، فعطّلوا الأمن والتعليم والصِّحة، ونحنُ لن نسمحَ أبداً فــي جرِّ بلادِنا لحربٍ أهليةٍ، أو ثــوراتٍ تخريبيةٍ دَمَويةٍ، تُصبِحُ نقطةً سوداءَ في تاريخنا.

لذلك ومن هذا المنطلق سنضرب بيدٍ من حديد كلَّ إرهابي ومخرِّب، ومن ناحية أخرى ســنعمل جاهدين على تحقيق مطالبكم، والتي بدأنا بدراســتِها فعلياً، ومن أجل تحقيــق ذلك وحرصاً على عدم الخلط بين المواطنين الأبرياء والمخربين الذين ينتشــرون في الشــوارع، نرجو من كل مواطن شــريف تم خداعه والتغرير به العودة إلى بيته ليكون آمنــاً، وبعيــداً عــن العمليات الأمنية التي ســتبدأ بها الأجهــزة قريباً، لاستعادة أمن واستقرار الشارع، وعاش الوطن حراً كريماً.

قبلَ أن يصل إلى نهايةِ خطابه، كانت كلُّ الأحذية تطيرُ إلى الشاشة التي تنقلُ إليهم الخطاب، والهتاف يعلو أكثر وأكثر..

فلتسقط الحكومة.. فليسقط الرئيس!

فلتسقط الحكومة.. فليسقط الرئيس!

زغردت أصواتهم في السماء، والمصفَّحات الآلية بدأت بالانسحاب في حركةٍ غريبةٍ، وغير مبشِّرة بخير!

بينَما الناس يتدافَعونَ أكثر، جاءَ إليَّ طفلٌ صغيرٌ، بابتسامةٍ وادِعةٍ، لم أتبيَّن ملامحهُ بسـبب الأضواء الخافتة، ولكنَّه أعطاني كتلَةً ورقيةً غير منتَظمة، تفحَّصتُها جيداً، فإذا بِها باقة توليب، كتلك!!

صحتُ عليه، من أعطاكَ إيَّاها؟

ولكنَّه غطسَ بعيداً في الجموع البشرية الهادرة قبلَ أن أصلَ إليه، علـى الباقة ثمَّةَ ورقة صغيرة مطوية، في وسـط الـورود، وملصقَة بإحكام، قمتُ بفتحِها، وأضأتُ هاتِفي لأرى ما كُتِبَ فيها..

جملة صغيرة: «حيثُ رأيتَها أوَّلَ مرَّة» والتوقيع ن.ح.

دوَّرتُ الكلمات في رأسي قليلاً، ما المقصود بالتوقيع؟

ثمَّ باغَتَتني رعشةٌ قويَّةٌ، لا يمكن، هل يقصد، نور الحافي؟

أخي؟ هل يريدُ رؤيَتي! ولكن أين؟

عدتُ لقراءةِ الجملة، «حيثُ رأيتَها أوَّلَ مرَّة»!

رأيتُ من؟ من يا آدم فكِّر!!

بدأتُ ألحُّ على عقلي، لماذا أرسلَ باقةَ توليب، وهذه الجملة...

فجأةً شـعرتُ بأنِّي أنجرف من كلّ اتجـاه، تطلَّعتُ حولي ورأيتُ منظراً مهولاً، الناس يتوافدونَ من كلّ حدبٍ وصوبٍ، خطابُ الرئيس المرتعش، أخرجَ أولئكَ الذينَ التزموا منازلهم ليلتَحِقوا بالمعتَصِمين، إنَّهم ينسَكبون كأنهارٍ مقدَّسة في هذهِ الساحة، لقد أرادَ إخافَتهم، ليعودوا من حيثُ جاؤوا!!

فازدادوا!

إنَّـــهُ زمنٌ مختلف! لقد انتهى الخــوف، الكلمة الآن لهم، لا خطاب يعلو على خطابِهم أيَّها الرئيس! أيتُها الحكومة!

اسمَعوا وعُوا!!

نظــرتُ للبطاقة في يــدي، ضغطتُ عليها بقــوَّة، وأغلقتُ عينيَّ، ونســيتُ صوتي بينَ أصواتِهم، وفي لحظة وميض جارف، والأمواج البشــرية تندلــقُ حولــي من كل مــكان، رفعــتُ باقة التوليــب عالياً، وصرخت: أيُّها الوطن، لقد وجدته! لقد وجدته!!

بصعوبــة اســتطعتُ انتزاعَ نفســي منهم، وخرجــتُ مهرولاً في الشــوارع، من الغريب أنَّني لا أعرف ما الذي سأفعله، ومن الأغرب أنَّني أركضُ، دائماً الذينَ يركضون يكون لديهم خطٌّ نهاية، أمَّا أنا فلا! وفي وسط هذهِ الهرولة بدأت السماءُ ترسلُ باكورةَ بريدها الموسمي، على شكل رشَّاتٍ ناعمة من الماء، بالكاد تبلل وجهي وثيابي وحزني!

أوقفتُ الســيارةَ اليتيمة التي مرَّت بالشــارع بعدَ ســاعة، وركبتُها بسرعة، وأشعلتُ سيجارةً، فارتفعَ الدخانُ الأسودُ مترنِّحاً حولي، بعدَ أنْ وقــعَ في حُبِّ قطرةِ مطرٍ تنســابُ على زجــاج النافذة في خطوطٍ متمايلةٍ، فتناغمَ معها وبدأ الرقصَ في ذات إيقاعِها!

سألَني السائق العجوز: إلى أين يا سيدي؟!

ـ لا أعلم!!

– عفواً!

– إلى قلبي، هل تعرفُ الطريقَ إلى هُناك!

– ماذا! هل أنتَ بخير يا سيِّد؟

– إذاً خذني إلى السجن المركزي!!

طلبتُ كأسَ كاكاوٍ ساخنٍ، وجلستُ أمام مديرِ السجن القلق، الأضواء حولَ الزنازين تضاعفت، والحرَّاس تكاثروا، وكلابُ الحراسة كذلك، البلاد على كفِّ عفريت، اقتراب موعد الإعدام يهيِّج الناس أكثر، والمظاهرات تتدفقُ من الشوارع كلَّ يوم كجرحٍ في الشريان الرئيسي للجسم، الكلُّ خائفٌ مترقِّب، إلَّا أنا، لقد انسكبَ عليَّ دلوٌ من البلادة، وشربتُ قدحاً كبيراً من عدم المبالاة فجأةً!

لم يسألني المدير عمَّا أريده في هذا الوقت، ترَكني أحتسي الشوكولاتة الساخنة بلذة، وسرَحان، دونَ أن يعلِّق بغير هزِّ رجلِهِ باستمرار، مما يجعل الطاولة تهتز، وبالتالي يصلُني توتُّرهُ معلناً من خلالِ جسدي المتصل بالخشب الصامت.

نظرتُ إلى جدرانِ الغرفة، وأنا أدلقُ السائلَ المغليّ في بلعومي، ثمَّ سألتُ الضابط بشكلٍ عابرٍ: هل يوجد سجين هُنا اسمه قيس بدران؟

ما الذي جاءَ باسمه الآن؟ لا أعلم لقد وجدتُ نفسي أسألُ وحسب، إنَّها تلكَ القرصة التي تأتيكَ في منتصفِ ظهرك، فلا أنتَ تستطيعُ إيقافها؟ ولا تستطيعُ الجلوس مرتاحاً بوجُودِها....

أو ربَّمــا كانت أكثــر من فرصة، هكــذا أخبرني وجــه الضابط، انســحبَ الدم منهُ فجأة، وأصيبَ باليرقان في وجهه، اســتطعتُ تمييز انكماشـــه بســهولة، حكَّ أنفهُ بيده، وهوَ يَحني رأســه، إنَّهُ يستعد لقولِ كذبةٍ كبيرةٍ، جعَلتني أسبقهُ بسرعة!

هل أكرر سؤالي؟! لا تفكِّر بالكذب عليّ!

فــي الحقيقة لو أنَّه لم يُجبني، أو لم يظهر هذهِ الملامح، لما توقفتُ عندَ السؤال، وربَّما لسألتهُ بعدهَا عن نوع ورقِ الجدران!!

حركتُــه هذهِ أثارت قشــعريرةً ما في جســدي، جعلتني أرغبُ في إخافَته، ولكنَّهُ كانَ خائفاً أصلاً فقد اقتربَ مني وهمس: بعض القضايا لهــا خصوصيــة يا ســيد آدم! وبعض الملفَّــات لا يمكننــا فتحُها أبداً، صدِّقنــي لــو قلتُ لك، أنَّني لا أعلمُ ســبب وجوده، ولكنَّه ســجينٌ قديم جداً، وقد أمرنا بوضعه في صندوق، والإغلاق عليه، ورمي المفتاح في البحر حتَّى يقضي هُنا!

حيــنَ قــالَ إنَّهُ هُنا ركضت دقَّاتُ قلبي، كأرانــب مفزوعة، إذاً هوَ سجينٌ منذُ تلكَ الحادثة كما قالت والدتي، يا الله!

الشــخص الوحيد الذي يمكــنُ أن يكونَ المنتقــمَ لقريته، الذي ظنَّ الجميــعُ فــي القرية أنَّهُ بطلهــم المختفي، لايزالُ هُنا، محبوســاً، ككلّ شيءٍ متمّرد، وثائر!!

«أريدُ أن أراه الآن»، قُلتُها بلهجةٍ حادَّة، وصوتٍ آمرٍ، في النهاية لا حدودَ لصلاحيات ضابطِ المخابرات، ابنِ وزير الدَّاخلية!!

امتقعَ وجه الشرطي حينَ أخبرهُ بالاسم، فأعادَ أمره صارِخاً!

أحضر السجين الموجود في الكبسولة!!

لقد تعيَّن هذا الشرطي بعدَ هذا السجين بعدةِ سنوات، قالَ لي منوهاً لبلاهةِ الشــرطي، وأنا ســرَحتُ في اسم الزنزانة، هل يمكن لشيء أن يكون أكثرَ ضيقاً من زنزانة منفية، ليسمُّوها كبسولة!

مــا الذي فعلنــاهُ بأوطاننا يا أوطانَنَا، هل ســتضيقُ علينا أكثر من ذلك، لتصير كبسولة، وننحشرَ داخلَها، لا منفذ ولا شمس ولا مخرج!!

ما أصعبَ أن يمتلكَ العصفور جناحين، ولا يستطيع الطيران، لأنَّ أحداً أقوى منه حبســه! لكونه أقوى منه وحســب، تذكَّرتُ العصفور، وعلَّقتُ عينيّ على الباب حيثُ دخلَ منه!

نحنُ نمارس سطوتَنا وقدرتَنا ونعتبرُها متعةً، وننسى وجوهَ الذينَ ندوسُ عنهم، ونحنُ نضحكُ ونكركرُ، ننسى ذلك بسهولةٍ كبيرةٍ، حتى يصبحَ الأمرُ اعتيادياً جداً، وجزءاً من شخصيَّتنا.

بمجرد أن أدخلوا قيس إلى الغرفة، وقفت هكذا في حركةٍ ميكانيكيةٍ تعبيراً عن الصدمة، هذهِ المرة ضُربتُ بمطرقةٍ حاميةٍ رجَّ لها دماغي كلُّه، اقتربتُ من الضابط! وأنا أحملقُ فيه بكلّ قدرتي البصرية..

ـ هل هذا هوَ قيس بدران؟

لاذَ الضابط بصمته، إنَّهُ هو إذاً.... قلتُ مهلوساً!!

ـ كيفَ فعلتُم بهِ ذلك؟ ما هيَ الأداة التي استخدمتموها؟

لم يجرؤ الضابط على رفع رأسه..

فصِحْتُ فيه: كيفَ قمتم بفقءِ عينيه؟ أجبني!!

– ....!

صرختُ ثانيةً: أجبني؟

ارتجفَ الضابط وقالَ بصوتٍ خفيضٍ: بنصلٍ حديديٍّ أذبنا طرفه!! وا.. وا.. والسيد الوزير (رحمَهُ الله) هو الذي طلبَ ذلك!

لا لا يُمكن، بدأتُ أتمتمُ وأهزُّ برأسي... لا مستحيل!!

والدي هوَ الذي حوَّله لهذا المسخ! لهذا الشبح!! لا تدعو لهُ بالرحمة..

لو أنَّ الأرضَ تكشفُ عن حممها الآن وتصهرُني فيها، لكانَ أهونَ عليَّ مما أرَى ومما أسمع، سقطتُ على الكرسي ونكَّستُ رأسي بينَ يدي، وسمعتُ صوتاً ضعيفاً يأتي من مكانٍ ما!!

– مَن هُنا؟ من الذي جاءَ يسألُ عني بعدَ هذهِ السنوات؟!

قالَ قيس، وقد مدَّ يديهِ بِخوَرٍ في الهواء يتحسَّس أيَّ شيءٍ أمامه، لم أستطع أن أفعلَ شيئاً، فقط اكتفيتُ بمنع أنفاسي، ما الذي سأقوله له: أنا ابنُ ذلك الذي سرقَ حبيبَتك! وقتلَ أصحابك! وفقأ عينَيك!!

قلتُ للضابط: ألبسوه ثياباً جديدة الآن، سيخرجُ معي!

تمتمَ الضابط: ولكنَّ الوزير طلبَ أن.....

الوزير مات، والقضية انتهت هُنا، سيخرجُ معي الآن، وإلَّا سأقتُلك وراءَ مكتبِكَ أيُّها الضابط، ولن يُحاسِبَني أحد!

مرَّرَ يدهُ على عنقه، ابتلعَ ريقه، وهزَّ رأسه بخوف وقال: حسناً، ولكن لا تخبر أحداً!

عِندما أخذوه، أحسستُ أنَّ ثمَّة شخصاً واقفاً خلفي، يضعُ يديه على عُنُقي، ويضغطُ بشدَّة، ويحكمُ قبضَتَهُ عليها، بدأتُ أشعر بضيقٍ في التنفُّس، التفتُّ خلفي فلم يكن أحدٌ سوى الحائط، تحسّستُ رقَبَتي بيدي فشعرتُ بحرارةٍ فيها، كنتُ أختنقُ فعلاً، من الداخل!

بعدها خرجتُ مع قيس، ووجدتُ ذلكَ السائق ينتظرُني كما طلبتُ إليه، وبمجرَّد أن ركبتُ السيَّارة خلعتُ ربطة العنق، وفتحتُ أوَّل زرين من القميص، ونظرتُ في المرآة التي بجانب الباب، فوجدتُ على رَقَبتي آثارَ احمرار!

نظرتُ إلى قيس بجانِبي، وشعرتُ بهِ يُحكمُ قبضتهُ على رقبَتي!!

* * *

(16)
طائرُ السنونو!

في الفترةِ الأخيرة فَتُرَت العلاقة بيني وبينَ فاتن، لم ينقطع الحبلُ الذي بيننا، ولكنَّه أصبحَ مرتخياً جداً، لتلكَ الدرجة التي لا تجعَلُني أشعرُ بوجودهِ تقريباً، فأنا أبتعدُ عَنها كثيراً، ولا تشدُّني به كما كانَ سابِقاً، شعورُ الجذبِ الأحادي من قِبَلِها كانَ مزعجاً، ولكنَّني كنتُ أحيا به، وكانَ السبب في بقاءِ علاقَتِنا قائمةً حتَّى الآن.

تتصلُ بي يومياً، تسمَعُني أتنفَّسُ وراءَ السمَّاعة، أقولُ لها أنَّني بخير وأسعلُ بعدَها بافتعالٍ واضحٍ، ثمَّ أخبِرُها أنَّني لازلتُ أتابعُ قضيةَ مقتلِ والدي، تتمنَّى لي السلامة بصوتٍ مكسورٍ، وأحياناً تطيلُ المكالمَةَ قليلاً فأشعرُ بدموعِها تمرُّ عبرَ الهاتف، وتغلي على وجهي، وتتركُ بقعةً كبيرةً على ثيابي لا تزولُ أبداً!

الغريـب أنَّني بقدر ما أبتعـدُ عنها بقدر ما أقتربُ من ذلكَ الغريب الذي يُسـعِفُني بمعاكساته، في البداية كانَ الأمر مزعجاً، ولكنَّني الآن أنتظـرُ اتصاله على أحرٍّ من الجمر، يتحـدَّثُ معي كلَّما كنتُ وحيداً، ومُحتاجاً إلى صوتٍ بقربي، أحياناً أفكِّر ربَّما هو نفســه الذي أرسـلَ لي باقةَ التوليب تلك!

هل منَ الممكن أن يكونَ هوَ حقاً!

ضغطتُ على هاتِفي، وصككتُ على أسناني، وتابعتُ التحديقَ في قيـس الذي يجلسُ قبالَتي علـى مقعد القطار، ذات القطار الذي أخذَني إلــى عيـن غزال في المـرَّةِ الأولى، قيلَ لي أنَّني محظـوظٌ جداً، لأنَّ القطارَ سيغادرُ اليوم في رحلته الأخيرة، وبعدها سيترجَّلُ عن سكتهِ، ويسعلُ دخانهُ لآخرِ العابرين، ولآخرِ محطة!!

لــو أنَّني قمـتُ بعمل تعديل على الفوتوشـوب لقيس، لكانَ أشـبه بفرســان الأحلام، أولئـكَ الذينَ يأتونَ على أحصنـةٍ بيضٍ، أعتقد أنَّ بشـرته برونزية ناعمة، لولا تلكَ الكدمات السـود التي شـاخت تحتَ عينيـه، وبالتأكيد كانَ لديه جسـدٌ طويل منتصـب وعضلات مفتولة هبطـت بارتخاء علــى عظامه مع طـول الحبس والتعذيـب، وربَّما كانــت أصابعهُ طويلة وقويــة ورقيقة في ذات الوقــت، لأنَّهُ كتبَ بها تلكَ الرسـائل الجميلة لغزال، فمهُ ممتلــئ، ولكن تبقَّى منهُ قطعتا جلد ملتصِقتان في وســطِ ممـراتٍ من الجلد الذائــب، المنثني فوقَ بعضه ككتابٍ قديمٍ، يعلوه الغبار.

الشــيء الوحيد الــذي لا يُمكننــي تخيلُهُ ســابِقاً، هوَ لــونُ عينيه!

سـوداوان؟ زرقاوان؟ عسـليتان؟ لا أعلم! ولن أعلـم!! لقد انصهرَتا تحتَ الصفيح السَّـاخن، وظلَّ منهُ رقعتانِ منَ اللحم المشـوَّه، لقد فقدَ نورهُ للأبد!

لقـد عاقَبـهُ والدي لأنّهُ تسـبب لهُ بتلـك الرقعة، بأن جعَلـهُ كفيفاً، ومسخاً!!

لقد مَسَـحوا خمسةً وعشـرينَ عاماً من عمره، ألغوا ربعَ قرنٍ من شبابه، انتزعوا خمساً وعشرينَ ورقة من دليل حياته، وانتزَعوا معها صفحةَ الفهرس الخاصة بها!

بلا محاكمة، ولا دليل، ولا تفكير!

فقط أحضرهُ والدي إليهم، وألقوه في الكبسولة ونسوهُ فيها، كثيابٍ قديمةٍ في عِلِّيةٍ مهجورةٍ!

لقدَ دخلَ تلكَ المشـرحة في العشـرينيات، وصفَعهُ الزمان صفعة استيقظَ منها وعمره يقفزُ إلى خانةِ الخمسين، ما أبَشَعَنا! وما أظلمَنا!

لقدُ كنتُ أرى، وأسـمعُ كلَّ هذا وأسـكت عنه، وأحلمُ أنَّني سأغيِّرُ هذا العالم بالحب، والعمل، والأمل!

ولكنَّنـي كنتُ مخطئاً، هـذا العالم لن يتغيَّر إلَّا بالـدم والتضحية، والموت على أسوارِ أحلامنا!!

أمسـكتُ يدهُ وأجلسـته على الكرسي، ولكنَّني خفتُ أن يشمَّ رائحةَ والدي في ثيابي حينَ اقتربتُ منه، لو شـمَّها هل يذكُرُها، ولو تذكَّرَها هل يعرِفُها!

الرُّوائـح هيَ الشــيء الوحيد الـذي ينخزُ الذاكـرة، ويوقِظُها من غيبوبَتِهـا فَزِعــة، مروَّعة، الرائحة هيَ اللعنــة التي لا تموتُ أبداً، لا يُمكنُ ختمُها أو تعطيلُها، إنَّها ببساطة روح الذاكرة الخالدة!

لم ينتبه لرائحَتي، ولا يمكنهُ أن يرى وجهَ ذلكَ الضابط في وجهي، وربَّما لم يكن يعرفُ إلى أينَ أذهبُ به، لقد أسـلمَ نفسـه لهذهِ اليد التي أخرجتهُ من كبسـولته، بعدما تكلَّست عقاربُ السـاعة، وتوقفَ الليلُ والنهـارُ على التعاقـب، وتجمَّدت الدورة الطبيعيـة للضوءِ والظلام، والزمن بالنسبة له، هل يَعتَبِرُني منقذه!

سؤالٌ أقبحُ من ذنب!

تحسَّسَ النافذة مشـيراً بيدهِ يميناً ويساراً، فهمتُ ما يريد، وفتحتُها له!

لحظَتَها أظنُّ أنَّه ابتسـمَ للمرَّةِ الأولى منذُ خمسٍ وعشـرينِ عتمة! تحرَّكَ فمهُ بطريقةٍ مستقيمة، بصعوبة، لأنَّهُ يحاولُ تغيير هيئةٍ تعوَّدت عليها عضلات الوجه لسنوات، فأصبحت كأنها منحوتة لا يمكنُ انبثاقُ بسـمةٍ من وسطِها، صحيح أنَّهُ لا يسـتطيعُ أن يرى شيئاً، ولكنَّهُ شعرَ بالضوءِ ينسـدلُ على وجهه، فصارَ يُحرِّكهُ بنشـوةٍ كمن يمرِّغ رأسهُ في الماء، ويفتحُ فمهُ بطريقة طفولية كلَّما اعترضَهُ نسيمٌ حائرٌ فتتركَّزُ الخطـوطُ في أطرافِ وجنتيه وذقنـه، ويصغرُ قليلاً ولكن ليسَ بالقدر الكافـي ليعودَ لعمره الذي فقده، ظلَّ مسـحوباً إلى الضـوءِ والهواء، غارقاً في الدفـءِ، خاشِـعاً أمامَ كلِّ صوتٍ يقتَحمُ أذنينِ لم تسـمعا من زمن سوى صوتِ السلاسلِ والضربِ والصراخ!

فــي منتصفِ الطريــق أعطيتهُ سندويشــاً، وأحطتُ يديــهِ به، قام بتلمُّسه، ثمَّ قرَّبَهُ إلى أنفهِ، وشمَّه ببراءة، وبدأ بالتقامه على مهل، وهوَ يُسلمُ رأسهُ لأصابعِ الضوءِ والهواءِ ثانيةً، ويبتسم، ويوجِعُني أكثر!

كانَ طفلاً ولِدَ للتوّ وسـكنَ هذا الجسـد الهَرِم، لم يسألني ما اسمي؟ ولا عن وجهَتِنا؟ ولا شيء!!

لقدَ وثقَ بي بشـدَّة، لقد أعطاني شـعوراً جديداً يَجعَلُني أرغبُ في البكاءِ دونَ توقف، باغَتتني دمعة سـاخنة، ولكنَّ توقفَ القطارِ بردِّها، لقد وصلنا!!

قلتُ له، وأنا أسـاعدهُ على الوقوف، نزلنا معاً إلى ذلك الرَّصيف، لـم يكـن ينتَظِرُني أحد! لماذا أشـعرُ بالخيبة من شـيءٍ متوقَّعٍ أصلاً، دوَّرتُ رأسـي باحثـاً عَنهـا، فَوَجدتُها كالمرَّةِ السَّـابقة، تتأبَّطُ السـلَّة المغطاة، وترفعُ رأسـها في كلِّ الاتجاهـات باحثةً عن غائِبِها الذي لم تقل لي عنهُ، سرتُ متجهاً إليها وقيس يَتَشبَّثُ بذراعي، رأتني!

فَبَهَتَتْ، وظلَّ فَمها معلقاً بينَ الفتحِ والإطباق، وعيناها ذاهلتان!!

هل استغربتِ عودَتي؟!

سـألتها وأنا أبتسـم، كنتُ أتمنى أن تقولَ لـي أنَّها توقَّعت مجيئي، فانتظرَتني على هامشِ انتظارها، ولكنَّها لم تنتبه لسؤالي، ظلَّت تحملقُ في قيس، ومن يلومُها، لا يمكن أن ترى رجلاً مفقوءَ العينين كلَّ يوم!

– هل لازلتِ تأتينَ كلَّما سمعتِ صوتَ القطار؟

سألتُها، ولكنَّها ظلت مشدوهة!!

ودونَ أن تنظــرَ نحوي، قالت وهيَ تشــيرُ برأسِـها إلى قيس: من هو؟!

علِقتُ بشبِاكِ سؤالِها، ولم أعرف ما هيَ الصياغة المناسبة، لجملة «هــذا قيــس الذي اختفى مــن القرية يوم المجزرة، كانَ محبوســاً في الكبســولة طوال تلكَ المدة.. نعم وبالمناســبة لقد فقــدَ بصره، وأصبحَ شبهَ إنسان!!»

هل هو قيس؟

شــعرتُ بصوتِها يلطِمُني على وجهي، ارتبكتُ كثيراً قبلَ أن أحكَّ أُذني وأقولَ لها: ماذا قلتِ ثانيةً؟!

أجابت بصوت حادّ متهدِّج: هل هوَ قيس؟!

لم أعرف بما أجيبُها ولكنَّ قيس مدَّ يَدَهُ تجاه الصوت، وقالَ بفرحة: من.. من يسألُ عني؟

وقَعت الســلَّةُ من يد البنت، وهجمت على قيس فطوّقَتهُ بذراعيها، وظلَّتْ تشهقُ منتَحِبة، وتصيح: إنها أنا غزال!

غزال...............

الصوت الذي خرجَ منه تهشَّم على أعتابِ شفتيه، فلم أسمع الكلمة جيداً، ولكنَّه بالتأكيد تذكَّر غزالَته!!

هـذهِ الغزال هيَ الأخت الصغرى لقيس، خرَجت من رحمِ والدَتِها بعد سنوات من حكاية قيس وغزال، أسمتها والدَتُها غزال على اسم تلكَ الفتاة التي أسقطتها رصاصةُ القناص وهيَ تضعُ وليدَها، هيَ لم تعرف قيس ولا غزال، ولكنَّها ورثت الاثنين في جسدِها، فقد أخذت اسمَ غزال، وملامِحَ أخيها قيس، أخبرتها والدَتُها بالقصة، كبرت وهيَ تنتظرُ أن يعودَ أخوها الغائب من حيثُ لا يعلمُ أحد، قالت لها والدَتُها أنَّه اختفى هناك، ولكنَّها واثقة أنَّهم حبسوه في مكانٍ ما! وأنَّه سيعود ذاتَ يوم، وفي ذلك اليوم الذي قتلَ فيه وزير الداخلية، قالت لها والدَتُها، حضِّري سلَّتك وانتظري قيس كلَّما جاءَ القطار! فقد اقتربَت عودَته!

سألَتها: كيفَ سأعرفه وأنا لم أره قط!

قالت لها: ستعرفينه بقلبك، ستشعُرينَ به بمجرد رؤيته!!

وقد كانت محقَّة، من يعرفُ الأبناء أكثرَ من أمَّهاتِهم؟

وهكذا كانت تأتي إلى المحطة كلَّما سمعت صفارة القطار، تنتظرُ شخصاً لم ترهُ في حياتها، ولكنَّهُ عاد في النهاية، كطائرِ سنونو قادَتهُ الريحُ بعيداً عن موطنه.

أسلمتُه لعائِلته، وغزال لاتزالُ تحتضنُ يده، والجميع يحملقونَ في فتاهم الذي عادَ من نومتهِ الطويلة في ذلك الكهف!

أتساءل من سيكمِلُ لهُ قصَّتَهم!

ومن سيكملُ لهم قصَّته!

الدهشة والحزن والدموع واقفة هناك بقربهم تنتظرُ الحكاية لتصفِّقَ للأبطالِ بحرارةٍ لا يُمكِنُني تحمُّلُها أبداً، بحَثوا عني ليشكروني بعدَ مدَّة، ولكنَّني كنتُ أراقِبُهم من بعيد، وأشدُّ رحالي إلى المرآة التي سأرى بِها وجهه، نظرتُ إلى السَّاعة، لم يتبقَّ الكثير من الوقت عليَّ أن أسرعَ إلى المكان!

* * *

(17)
العبور إلى المرايا

بـــدأتُ أركض، والطريقُ تركضُ تحتـــي، والغيومُ تركضُ فوقِي، كلُّ أجزائي وأنســجتي الآن تتحرَّكُ في مســـارٍ واحدٍ، أنفاسي اللاهِثة تـهرولُ بينَ ذرَّاتِ الـهواء، نَظراتي المخطوفة تقفزُ تجاه ذلك الضَّوء، وقلبي يســـتمرُّ بعرقَلَتي، يدقُّ لحظةً فأســمَعُ دقَّته «لا»، وحينَ يسكت أسمعُ ســكتتهُ «نعم»، وهكذا طوال الطريق، «نعم، لا، نعم، لا، نعم، لا....».

قبلَ الوصول أصبحَ يقولُها بسرعةٍ جنونيةٍ، حتَّى لم أستطع التفريق بينَها، نعم أريدُ أن أراه، ولا أريدُ أن أراه!!

القلب هو آخرُ عضوٍ في الجســم يســتطيع أن يقرِّرَ شيئاً، إنَّه مبني على الثنائية، والتناقض، التقلُّب هوَ مهنَتُهُ الفطرية التي يعيشُ عليها،

رغبَتُنا في استقراره على أحد الأمرين، تعني موتَنا!

عِندَما وصلتُ قبر غزال الأم «حيثُ رأيتُ باقةَ التوليب أوَّلَ مرَّة»، كانَ الأوان قد فات على اتخاذ أي قرار، لقد وصلتُ وانتهى الأمر، نسيتُ الأكسجينَ في صدري محبوساً، وتركتُ دمعةً معلَّقةً على حافَّة عيني، ووقفتُ، مترَنِّحاً على بوَّابةِ الموعد!

المكان: حيثُ رأيتُ باقة التوليب لأول المرَّة!

الزمان: نفس تاريخ موت غزال

الوقت: نفس الساعة التي وصلت بها الباقة إلى يدي!

العنوان: موعدٌ مع أخي، للمرَّةِ الأولى في حياتي.

رأيتُ ظلَّهُ جاثياً أمامَ القبر، محدودِبَ الظهر، يدفنُ رأسهُ بينَ يديه، وينكِّسُ وروَدَه أمامَ الشاهد الحجريِّ المنتصب، اقتربتُ خطوَتَين، سمعتُ بكاءً متقطِّعاً، ودموعاً تصدرُ صوتَ راشحٍ خشن من أنفه، بدا وكأنما يمسَحُها بألمٍ مكتوم، رشحَ أنفي رغماً عنِّي، فتداركتُ الأمر ومسحتُ عينيّ بعنف آلَمَنِي أكثر، وتابعتُ الاقتراب بحذر ولوعة.

وبينَما أنا أدنو منَ الصوت، دستُ على نبتةٍ غضةٍ فأحدثَ انكسارُها صوتاً رقيقاً، جَعَلهُ ينتبه، رفَعَ رأسهُ، ومرَّرَ كمَّهُ على عينيهِ عدةَ مرَّاتٍ بسرعة، رفعتُ المسدَّسَ لاإرادياً، سحبَ نفساً مبللاً وأدار! رأسهُ ملتَفِتاً إليَّ ببطءٍ...

النظرةُ الأولى، الرمشةُ الأولى، النَّفسُ الأوَّل، تعابير الوجه الأولى،

تفاصيل لا يُمكنُ لأحدٍ فكُّ شفرتِها، ولا إعادةُ ترميزِها، إنَّها اللَّقطة التي لا يُمكــن لأمهرِ المصوِّرين التقاطَها، من بعيد يبدو وكأنَّه صورَتي في المرآة، كأنَّ أحداً استنسَــخَنا، بالذَّات وهوَ يلبسُ نفس الجاكيت الشــتوي الأسود الذي اشترتهُ لي والدَتي من سنوات، يُمكنني الآن أن أفهم كيفَ كانت تعرفُ مقاسي طوال تلكَ السنوات وتحضرُ لي الثياب!!

ويمكنني معرفة الســبب الذي جعــلَ البائع يظنني حضرتُ مرتينَ يومَها!

ولكــن من القريــب، يمكنني إيجاد تلكَ التفاصيــل التي تميِّزُنا عن بَعضنــا، ربَّما هوَ أطول قليــلاً، وجهه أقل اســتدارة، وملامِحهُ أكثر براءة، وليسَ أصلع.

عيناهُ المتجمِّرتان، ورموشــه المبلَّلة، وأنفه الأحمر، تشي بانتهاءِ حفلــةٍ صاخِبةٍ من البــكاء، هل كانَ يبكي على والدتــه! أم والدَتي! أم صديقه الذي سيُعدَمُ؟!

ما أكثر الأسباب التي تدفَعُنا للبكاء!

وما أقلَّ التي تدفَعُنا للضحك!

قَــرِّرْ فقــط أن تبكي، وســتجدُ لديكَ طاقــةً مذهلةً بمجــرد التفكير بالأمر، ابكِ الآن وفكِّر بالسبب لاحقاً.

ظلَّ واجِماً، متخشِّــباً، ملامِحهُ مســالِمة وهادِئة، لولا الرعشــات النهائيــة للبكاء، التي كانَ يحاولِ التخلص منهَا، لم يوجِّه نظرةً واحدةً للمسدَّس الذي أصوِّبهُ تجاهه!

علمَ أنَّه مجرد ديكور سينمائي، لقد وجهّتهُ له قبلاً في ذلك المخزن، وكانَ لــدي الحــق في ذلك، ولكنَّني لم أفعل شـيئاً عدا التلويحِ به، كما الآن!

لقد عرفتُ السبب الداخلي الذي منعني من إطلاق الرصاص، تلكَ الفطرة العميقة علمتْ أنَّهُ جزءٌ من لحمي ودمي، فألجمَتني، وقد فعلت خيراً وقتَها!

هــذهِ المــرَّة أريدُ أن أرمي بالمســدِّسِ بعيــداً، وأحتضنه بعنفوان، وأبكي بِصَخب، أريدُ أن تتســرَّبَ ذكرياتي من خلالِ دموعي فأخرجَ من بكائي كما ولدَتني أمي، لا أعرفُ شيئاً عن هذا العالم البائس!

ظللنــا ننظرُ إلى بعض، كلٌّ منَّا يحاولُ عبورَ المرآة، أنا الآن أمام أخـــي الذي تمنيتــهُ طوالَ حياتي، أريدُ أن أســمعَ صوتــه، هل ورثَ صوتَ والدي؟! أريدُ أن أشعرَ بأنفاسه هل هيَ سريعة مرتبكة؟!

أم بطيئة وهادئة؟!

أريــدُ أن أدخلَ في ممراته الهوائية، وفــي مجرى دمائه، أريدُ أن أنصهرَ معه، وأن أذوبَ فيه...

ولكــن أنا أيضـــاً أمامَ قاتلِ والــدي، أمامَ ذلكَ الذي رفعَ المســدَّس ورأى عينيْ والدي تنطفئان، وروحه تنسـحب من جسده، ورآهُ يهوي على الأرض فارغاً وثقيلاً في آن واحد!

مهما فعل لقد كانَ أبي في النهاية!

فهل أصفحُ عن أبي القاتل، أم أنتقمُ لأبي المقتول!

وهل أصفحُ عن أخي القاتل، أم أنتقمُ لأخي المظلوم!

مــن أكونُ هنا؟ ومن أختــارُ بينَهُما؟ وما المســافة الصحيحة التي يجب أن أختارَها بالنسبةِ لكلّ واحدٍ مِنهُما؟

عقلــي الآن ملعبُ تنــس، اللاعبــان يلوّحان بالمضــاربِ في كلّ الاتِّجاهات، والكرةُ مفقودةٌ!

على أحدِنا أن يقولَ شيئاً، نعم، لماذا أرادَ لقائي؟

– نور!

قُلتُها بصوتٍ رقيقٍ، مائلٍ إلى البحَّةِ الحزينةِ..

– آدم!

ردَّ علــيَّ بــذات النبرة، ولم تكــن تمثيلاً، كلانا يعــرفُ أهميَّة هذا اللقاء، كمية المشاعر، ثِقَلَها، وصعوبتَها.

– أنتَ تشبِهُني حقاً!

قلتُ له، فابتســم بدونِ أن تظهرَ أســنانه، وبدونِ أن تزولَ مســحةُ الحزنِ عن وجهه، ثمَّ علَّق على جملَتي..

– نعم لقد قالت لي والِدتَي ذلك! وجدَّتي أيضاً اندهشت للشبهِ بيننا عِندما جئتَ هُنا للمرَّةِ الأولى!

– والِدَتُك، تقصدُ والِدَتي! وجدَّتُك، هل علمت من أكون!

قُلتُهــا بصدمة واضِحة.. فأعادَ تلكَ الابتســامة، ولكن بامتداد أكبر وقال:

نعم علمت ذلك منذُ اللحظةِ الأولى، والصحفي أيضاً، لقد علموا من تكون لذلكَ أخبروكَ بالقصَّة، لأنَّني علمتُ أنَّك ســتبحث عن الحقيقة، فطلبتُ منهم إعطاءَها لك!

– الصحفي أيضاً، ولكنَّه لا يعلمُ الحقيقة! لقد قادَني إلى هُنا فحسب!

قالَ وهوَ يتراجعُ للخلف، ويتربَّعُ على الأرض بجانب القبر..

لا! إنَّــه يعلم كلَّ شـــيء، لأنَّه الصحفي الذي كتــبَ المقال، والذي اتصلَ بهِ جدِّي يومَ المحاكمة، قصةُ ابنِ عمِّه لم تكن إلَّا حكايةً نشرَها، ليختبئَ من المخابرات فحسب!

– لم أعلم، أنَّك ذكي، لتعلمَ كلَّ هذهِ الأمور! ووالدُك العم صالح؟!

– ما به؟

– هل كانَ يُحضرُ لك المعلومات من قسم المخابرات، لتعرف عن أولئكَ الذينَ قتلتهم، كما خطَّطَ لكَ عزيز؟

وكأنَّنــي قلتُ نكتــة، رأيته يضحكُ بنبــرةٍ ثابتــةٍ، وناعمةٍ، كطفلٍ صغيرٍ! بطريقةٍ استــفزَّتني، وجعلتني أصــرخُ عليه: وهل قتلُ الناس نكتة؟ ما المضحكُ في الأمر؟!

هــدأ قليلاً وقالَ بصوتٍ شــبهِ ضاحك: أبي صالــح يفعلُ ذلك! إنَّهُ أكثرُ الناسِ براءةً ووداعةً، لا يُمكنهُ إيذاءُ ذبابةٍ حطّت عن أنفه!!

عِندما قالَ ذلك بدأتُ أبتعد عن شـخصية الأخ المشتاق وأعودُ إلى شـخصية المفتِّش، سـألته بصرامة، وأنا أؤكدُ كلامي بهزِّ المسـدَّس بانفعال..

إذاً مـن الذي أعطـاكَ كلَّ تلـكَ التفاصيل عنهم، كيفَ اسـتطعتَ الدُّخولَ إلى حصونِهم وقتلِهم! أجبني!

حتَّى صوتي الصارم بدا راجياً، تلكَ الرعشـة الحزينة في صوتي تخرجُ رغماً عنِّي كلَّما نظرتُ إليه، ببسـاطة لا يُمكنني التخلُّصُ منها ببعض التمثيل!

– هل تقصد الكتابَ الذي وجدتَهُ في المخزن يومَ هربتُ منك!

– ....!!

صمتَ قليلاً، وقد رأى الحيرةَ في عينيّ، ثمَّ تابع..

إنَّهُ كتابي! كنتُ أتبعُ الوزيرَ منذُ عدة سنوات، أينَما ذهب، لقد قمتُ بتثبيـت عدة مناظير على المباني القريبة مـن الفيلا والوزارة، كذلك عدة كاميرات، في غرفته، ومكتبه!

ليـسَ لأني أريـدُ قتله، بل لأنِّي أريدُ مراقَبَته عـن قرب، متابَعته، معرفة حركاته وسـكناته وأسراره، ببسـاطة كانَ مادة دراسية مهمَّة بالنسبةِ لي، لأنَّني أردتُ معرفةَ ذاكَ الذي يكونُ والدي... لا قتله!

فجأةً تداخلت كلُّ الكلمات في رأسـي، هززتُ رأسي علامةَ إزالةِ تشـويشٍ يقتربُ مني، وسـألته: ما الـذي تعنيه؟ ألسـت قاتل الوزير

والنائب ووالدي، لديك الدافع، والمعلومات، والخطة!

تنفَّسَ طويلاً، كأنَّ صبره على وشكِ نفاد، وقال: لديَّ المعلومات، والدافع، وليسَ لديَّ الشجاعة، ولا الرغبة لقتل إنسان!

فكيفَ بقتل والدي يا آدم، علَّمتني والدتي أن أكون إنساناً، أن أغفر، وأسامح، وأن أحارب، وأثور ولكن في الوقت المناسب فقط!

الانتقام هو النار التي لا تشبع إلَّا إذا أكلت نفسها، وأنا لديَّ قضية أكبر من الانتقام بكثير، كنتُ سأقبل بحبسه، وحبس كل من كان مسؤولاً عمّا حدث لأمي غزال، وأن ينالوا محاكمةً عادلةً، ولكنْ لاتَ حينَ مناص!

تمنيتُ منه لو يعيدُ كلامَه على مهل لأستوعبه حقاً، رمشتُ بعينيَّ عدةَ مرَّات، وأرخيتُ المسدَّس وقلتُ باستسلام!

ولكنَّ عزيز قالَ لي إنَّه..... لقد قادَني إليك لأنَّك! لم أعد أفهمُ شيئاً، إذاً أنتَ لم تقتل والدي!

هزَّ رأسهُ، وقال: نحنُ لم نقتل أحداً، ولم نفجِّر أحداً، ولم نخطط لشيء، ولم نتاجر بالأسلحة والمخدَّرات، ولم نفعل شيئاً إلى الآن!

– عمَّ تتحدَّث؟ إذاً عزيز بريء! ولمَ اعترف؟ هل تكذِبُ عليَّ أنتَ أيضاً، لقد فقدتُ ثقتي في كلِّ البشر!

قُلتُها غاضِباً، وأعدتُ رفعَ المسدَّسِ في وجهه، لقد كنتُ أتحرَّكُ بدافعِ الارتباك والتردد ليسَ إلا، وقد شَعر بذلك، رأيتُ الشفقةَ تنبعثُ

مــن عينيهِ تجاهي، فقامَ من جلســته، وتقدَّم نحــوي، حتَّى أصبحَ بيني وبينَهُ أقل من متر، لقد سَـحَقَ حاجِزَ المســافةِ بينَنَــا، وأصبحتُ أرى عينيه بوضوحٍ شديدٍ، أشعرني بالأَسر والخوف في آنٍ واحد!

نظرَ إليَّ مباشــرة، وأزاحَ البلغم من حنجرتهِ المتعبة، ولم يبتَسِــم! أعطانــي تلــكَ النظرةَ الجــادَّةَ المخيفة، التي عَلِقت بــهِ من ذلكَ الأب العاق!

ثمَّ قال: آدم قُل لي، ما هو حُلمك؟!

سؤالهُ أثارَ ارتعاشي، هيَّجَ حزني، ودغدَغني في آنٍ واحد..

- حُلمــي! لقد توقَّفتُ عن الحُلم منذُ ســنوات! أحببتُ فتاةً وأردتُ الـزواجَ بهــا، لكنَّها ماتت ليلــة العرس، حاربتُ مدمنــي المخدّرات، وأصبحــتُ واحداً منهم، أردتُ أن أصبِحَ وزيراً للداخلية خلفاً لوالِدي، وأن أوقفَ الفســاد والإجرام والظلم، أردتُ إقامة دولة آمنة، ســعيدة، ولكنَّني تخلَّيتُ عن كلّ شــيءٍ الآن! كلّ شــيء! أريدُ الهربَ فقط، من عيــنِ والدي، ومن عاره، ومــن بؤسِ أمِّي، ومن صــورةِ الفتاة التي أحببتُها وهيَ مسجَّاة بفستانِها الأبيض، ومن عينيْ فاتن الخائفة عليّ، ومنك!

- إذاً لماذا أجبتَ دعوتي؟ لماذا أردتَ معرفةَ الحقيقة؟!

ضحكتُ قبلَ أن أجيبه..

الفضــول، الرغبة فــي الانتقام، إنجــازٌ عملٍ بدأتُ بــه! أحدُ هذهِ الأسباب السخيفة، وغير المهمة الآن.

– ألـم تكن لديـكَ الرَّغبة في تغيير هذا الواقع، ولو بنسـبة ضئيلة جداً! شعرة واحدة تكفي!

وأشـارَ بإصبعيه السـبَّابة والإبهام كرمزٍ لشيءٍ صغيرٍ جداً، وزمَّ عينيه بِحزن!

هـل كانت لديَّ تلكَ الرغبَة، تذكَّرتُ تلـكَ المكالَمات! ربَّما أردتُ ذلكَ بتلكَ النسبة القليلة التي أشارَ إليها، ولكنَّها ذهبت معَ الريح، لم أقل لهُ ذلك اكتفيتُ بالصمتِ إجابةً عن سؤاله.

– حسـناً، أنـا أعلمُ أنَّ لديكَ ذلـكَ الدافع، ذلك الدافـع الخفي الذي جَعَلكَ تنزل إلى الشـوارع وتسير مع الناس، وذات الدافع الذي جعلكَ تأتي إلى هُنا، إنَّهُ أكثر من الفضول يا آدم، صدِّقني!

ابتسمتُ ساخراً، أو أنَّني حاولتُ تمويه عرائي، وخوفي! وقلتُ له: وماذا سيحدث؟ بعدَ أن أرغب في التغيير، الرغبة وحدَها لا تكفي!!

– إنَّها الخطوة الأولى!

– والخطوة الثانية! ما هيَ؟ الموت في الشـوَّارع! ألم تتعلَّموا من التاريخ؟ من أحداث الكسـاد العظيم! هل تظنُّ أنَّ المظاهرات سـتغيِّرُ شيئاً في عقولِ الكِبار؟

فـي الماضي قَتلوا المتظاهرين، وأقاموا نصباً تذكارياً للرئيس في السـاحة التي قُتلوا فيها، بمناسبة شفائه من الجلطة، وأعادوا انتخابه، بنسـبةٍ إحصائيةٍ مستحيلةٍ، سيعدِمونَ عزيز، وسيقتلونكم في الشوَّارع

كما حدثَ سابِقاً، وعِندها سأكونُ في دولةٍ أوروبيَّةٍ أستمتعُ مع زوجتي بالجلوس قربَ بحيرةٍ هادئةٍ!

كنتُ أفرِّغُ غضَبي، وأتقيأ رغبَتي في الصراخ والصياح، وأتحدَّث كأنَّني فاتن!

قـالَ لي نور، وقد قـرأ وجهي المنفعل، وتصفَّـحَ ملامِحي الذابلة بعينيه الآسرتين:

إذاً أنـتَ لا تريـد معرفةَ القاتل، قلتُ لك أنَّني وضعتُ الكاميرا في مكتبـه، لقد أزالَ كاميراتِ الحكومة، ولم يزل خاصَّتي لأنَّهُ لا يعرفُ مكانَها أصلاً!

– من هو؟

سألتُه ببرود..

– لا أعلم من هوَ، كانَ يغطِّي وجهه! ولكن يمكنكَ رؤيةُ التسجيل الأخير إذا أردت!!

– لا أريد!!!

قلـتُ ذلكَ بكبرياء، وأنا على وشـكِ البكاء، فهمَ نور مشـاعري، ونكَّسَ رأسه!

ثـمَّ قال لي: أنا أفهم ما تعانيـه الآن، ولكن هذهِ الثَّورة لن تنتهي يا آدم كسابِقَتها، إنَّها ثورةُ شعب جائع!

مُحتاج! يريدُ أن يأكل ويلبس ويقرأ ويحيا بالضّوء، إنَّها ثورَتي أنا وعزيز ووالدتي غزال، وقيس، ووالدتك، وعمي صالح، وأنتَ يا آدم و..........................!

ابتلَــعَ الكلمــةَ الأخيرة بســرعة، كأنَّها رصاصة خــافَ أن تنطلقَ نحــوي، جاءَتنــي تلكَ القرصــةُ المشــاغِبة، فارَ الهــواءُ في صدري بحرارة، وشعرتُ بشيء مخيف يجتاحُني، قلتُ له: أكمل لمَ توقَّفت!

ابتَلَعَ ريقَه، وأشــاحَ بعينيهِ عني، لمحتُ فيهما دمعاً ساكِناً، جَعَلني أُستفزُّ أكثر.....

وبعدَ مدةِ صمتٍ قال لي: عليكَ أن تعطينا فرصة واحدة فقط، وإن فشــلنا! فاذهب حيثُ أردت، ولكن أعطِ لهذا الحلم فرصة، ألا يستحقُّ واحدة!!

– ماذا تريد؟

رددتُ عليه بصرامة، فأجاب بشبه توسُّل!

– الآن أريدُ منكَ شيئاً واحداً، أن تفكِّرَ في الانضمام لنا!

كنتُ ســأفتحُ فمي فأكمل كلامَهُ مســرِعاً: لا تكن عجولاً، لا تترك خطَّ النهاية في اللحظة التي تقتربُ فيها من الوصول إليه، لأنَّك متعبٌ مــن الجري كلَّ تلكَ المســافة، هذهِ الثورة أكبــر مما تظن، الكثير من التفاصيل تكمنُ في اللَّمســاتِ الأخيرة للثوب، ســأعطيكَ شيئاً لتفعله، وبعدَها قرر ما الذي تريده! وسأكونُ جاهزاً متى أردتني.

شــعرتُ بنوعٍ من الاستســلام، والتمــرُّد، أريدُ أن أعطيَ لنفســي فرصة لفعل شــيء صحيح، يغســلُ كلَّ تلكَ الذنوب التي حملتُها على ظهري، بيدي أو بأيدي غيري!

ولكنِّي أريدُ الابتعاد والهرب أيضاً، كما فعلتُ سابِقاً، أنا أبحثُ عن الراحة وحسب، أريدُ الجلوسَ على أقربِ مقعدٍ في الطريق، ولا أريدُ الاستمرار بالركض في الصحراء!

بينَ هذا وذاك كنتُ أتشــقلبُ وحدي في فوضايَ الداخلية، وأعيثُ فساداً بداخلي، وأستمرُّ بالركضِ دونَ توقُّف!

أودَعنــي نظرَتهُ البريئة، وقبلَ أن أخرجَ من المقبرة ســألته: لماذا كنتَ تتصلُّ عليَّ كلَّ تلكَ الفترةِ السَّابقة، من مجهول أليسَ من الأسهل لو أخبرتني بما أردته من زمن!

نظرَ إليَّ بِشكّ وقال: عمَّ تتحدَّث؟!

* * *



[18]
عزيز مرّة أخرى!

رجــلٌ أعمى متكوِّرٌ قربَ مجمعِ نفايات ينبشُ الأكياسَ، يعثرُ على قطعةِ خبزٍ جافَّة، تأتي قطةٌ عوراء متوحشة، وتخطِفُها من يده، فيعودُ للنبشِ ثانيةً!

عجــوزٌ تلفُّ جســمها المتداعي بشــالٍ قطنيٍّ رقيــقٍ، مثقوب من الوســط، وتتعكَّزُ على الجدارنِ الرطبة بيدٍ، وتحكمُ إمساكَ الشالِ باليد الأخرى، فيما أصابعُ الريح تحاولُ انتشــالَ الشــالِ عن لحمها من كلّ مكان.

مشــاهد أخرى لا يُمكن لعينيّ متابعةُ التِقاطِها، ولا يُمكنني التعوُّد عليها، ضغطــتُ بمنديلي على أنفي حتَّى عَجِزَ الهواءُ عن إيجادِ منفذٍ ليدخله، فاختنقتُ برائحةِ الكحول المنبعثة من القماش المعطَّر، سَعلتُ عــدَّةَ مرَّات، وبحثتُ عن بقعةٍ نظيفــةٍ لأقذفَ بُصاقي فيها، ولكنَّ مياهَ

الصـــرفِ الصحي، تمــدّدَت فـــي كلّ الاتجاهات حولـــي ومن حولها عشـــرات الأعيـــنُ التي تطفو على أهلّةٍ ســـودٍ، نَحتهـــا الفقر والبؤس، ظلَّت تُحدِّقُ بالبدلة النظيفة التي هَبَطت عليهم من كوكب «يوتوبيا».

تمنَّيتُ لو أخلعُ البدلة، لَتتَوقف اللَّســعات التي تأتيني من كلِّ جهة، حاولتُ التنفَّسَ ولكنَّ الأكسجينَ ظلَّ يتحاشاني لدقائق، قبلَ أن يُفتحَ ليَ البابُ، الذي طرقتهُ كثيراً!

عِندمـــا رأتْنـــي ابتعلـــت صوتها، وصمتتْ، أفســـحت لـــيَ المجالَ للدخـــول، وقالت بطريقـــةٍ آليةٍ: غرفتـــهُ هناك، لقد فتّشـــوها أكثر من عشرين مرَّة، لن تعثرَ على شيءٍ جديدٍ!

بدوتُ أمامَ ضعفها وبؤســـها، مجرماً فحســـب، شعرتُ بذلكَ حتَّى أصغرِ غرزةٍ في ثيابي،

أردتُ أن أُهـــوِّنَ عليها فقلت: لمْ آتِ للتفتيش يا خالة، لقد جئت من طَرَفِ عزيز!!.......

«تقريباً»، أكملتُ في داخلي!

أواه، لـــو أنَّني قلتُ تلـــكَ الحروف على دُفُعات، مـــا الذي يعيدُ أمّاً تكسَّـــرت، إلـــى كينونتها الأولى، غيـــرَ أن تأتي لها بخبـــرٍ عن فقيدها الضائع، تهشّـــمت عيناها، كزجاجةٍ سَقطت من رفٍّ قديم فأثارَ الغبارَ حوله، ولم تعثر على شـــيء لتمســـحهما بهِ ســـوى قَبَّةِ ثوبها، ومنديل أبيـــض امتدَّ من يـــدِ غريبٍ جاءَهـــا كالحمام الزاجل، يحمـــلُ خبراً لم تنتظره يوماً..

– كيفَ هوَ يا بني؟ لم أسمع عنهُ شيئاً، من يومِ اعتقاله! هل عذَّبوه!

هل يطعمونه! يقولون بالأخبار إنَّه اعترف بتلك الأفعال!

صدِّقني يا بني إنَّه بريء، عزيز لا يؤذي عصفوراً، إنَّهُ طفلي أنا ربّيتهُ، وأعرفه جيداً..

كنفجانِ قهوةٍ ليسَ يبرد، كانَ قلبها، ظلَّت تسألني، وتمسحُ دموعها ومخاطها، وأنا أحدِّقُ في رجلٍ كبيرٍ مُقعدٍ ينزوي في ركنٍ مكسورٍ، وبيتٍ يستجمعُ كلَّ قوَّتهِ ليبقَى واقفاً، في وجهِ كلِّ هذهِ التعاسة، ولأنَّني لم أسمع أغلبَ أسئلتها، أجبتُ بأدبٍ واقتضاب شديدين، إنَّهُ بخير، وسأعملُ جاهداً على إخراجه...

قلتُها غيرَ متأكد، وسحبتُ يدي بصعوبة من بينِ يديها، حتَّى لا تقبّلها، ثمَّ استأذنتُ منها بالذَّهابِ إلى غرفةِ عزيز، لأخذِ أمانةٍ قالَ لي عنها!

أو بالأحرى قالَ لي نور عنها.....

قُمتُ بِعَدِّ البَلاطات من جهة الحائط حتَّى وصلتُ البلاطة السابعة التي تختفي تحتَ الخزانة كما قالَ لي، أزحتُها بقوَّة، بحثَتُ عن مفكِ الدرج العلوي، ولم أعثر عليه، فقد صُودرَ كما توقعَ نور، لذلكَ استعملتُ سكينةً أحضرتها خصيصاً لهذهِ المهمَّة، حشرتُها في حافة البلاطة، وضغطتُ عليها طويلاً، حتَّى ارتفعت بصعوبة، وظهرَ من تحتها التراب، حَفَرتُ فيهِ عميقاً، حتَّى عثرتُ عليه!!

نظَّفتهُ جيداً، ودسَسْتهُ في جيبي الداخلي، ثمَّ أعدتُ كلَّ شيءٍ لمكانه، ولَّيتُ هارباً، بغنيمتي.

أردتُ أن أتفقَّـدَ المذكَّرات، أن أبتلعهـا دفعةً واحدةً لأعلمَ ما فيها، ولكنَّني تناولتُ آخرَ جرعةٍ من الصبر، كي أنفِّذَ الطلب الأخير، وهناك قربَ الجسـر أوقفتُ السـيارة، وأخرجتُ ورقةَ التعليمات، التي كَتَبها نور، وأشـعلتُها في لمح البصر، وانتظرتُ دقيقةً أخرى، حتَّى حطَّت شظاياها المتوهجة على الماء، وذابت بهِ بهدوء.

الآن أتممتُ مهمَّتي سابدأُ من هُنا.

أعدتُ مسحَ دفترِ المذكَّرات، وعلى الجسرِ المعلّقِ في وسطِ المدينة، أمضيتُ ليلتي أتقلَّبُ على أمواج غريبٍ، توحّدتُ معهُ في لحظةِ غرق، خانَنـا البحر، وجمَعَنا المركبُ المثقوب، كنتُ أبحثُ عن وطنٍ منفصمٍ على ذاته، عن نفسي فيه منَ الصفحة الأولى حتَّى الأخيرة..

في هذا الكتاب سـأعثر على ثقبٍ ما لأعبـرَ منهُ إلى تلك العيون، سأجدُ قطعةً صغيرةً من بساط الريح لأطيرَ بها نحوَ الومضةِ الأخيرةِ، هذهِ الصفحات تلخِّصُ عزيز المجرم! أو عزيز الثَّائر!

أيُّهما هو! وأيُّهما أنا............

فتحتُ الصفحةَ الأولى، كانت بعنوان «الصفعة»!

الصفعة!!

بـدأ الأمر عِندما ذهبتُ إلى المدرسـة، وهناكَ تصفَّدنا في مقاعدنا مثلَ «أباريق الجامع»

كَما تقول والدتي!!

وقامـوا بعمل حفرة كبيرة في رؤوسـنا، وبـدؤوا يصبُّون بها كلَّ النفايـات الفكرية الموجـودة في الكتب، حتَّى أُصيبـت عقولنا بتخمة مقـززة، وفي كلِّ يـوم كنتُ أعودُ إلى البيتِ بصداع فظيع، ولا يذهب حتَّـى تقرأ والدتي على رأسـي عـدة أجزاء من القـرآن، وتكمل بقية اليوم، في إعادة ترتيب النفايات السـابقة في عقلـي بطريقة، أقل ألماً وإزعاجاً، وبالرغم من كفاحها المستمر لأفهم دروسي، إلَّا أنِّني كنتُ صاحب رأسٍ سَميكٍ، دائماً ما يتعرضُ للصفع من الأساتذة، وأنا الآن بعدَ مضيِّ تلك السنوات أتذكرُ ثلاثَ صفعاتٍ مهمة، الأولى في درس التربية الوطنية:

يومها كانَ الأستاذ يصرخُ بالمعلومات وكنَّا نصرخُ وراءه ببلاهة، ولـمْ أفهـم أي جملة منَ التي كانَ يُبرطمُ بهـا، إلَّا واحدة!! حيثُ قال: المنـاخ في بلادِنا معتدلٌ مشـمسٌ صيفـاً، دافئٌ ماطرٌ شـتاءً، وبعبعَ الأولادُ خلفـه، إلَّا أنا هززتُ رأسـي السـميك بقلَّة فهـم، وقلتُ له: يا أستاذ خطأ، الجو حارق صيفاً، قارس شتاءً!!

وجاءتني الصفعة اللّاهبة على رأسي السميك، والجملة الأفلاطونية التي لا أنساها، الكتب الوزارية لا تخطئ يا مغفَّل.

أمَّـا الثانية فكانتْ في حصّــة الرياضيات، حيثُ الصراخ من نوعٍ آخر:

واحد زائد واحد يساوي اثنان

واحد زائد واحد يساوي كم!!

ونصرخ اثنان!!

ثـمَّ يقول: واحدْ زائد واحدْ زائد واحدْ يسـاوي ثلاثـة، واحدْ زائد واحدْ زائد واحدْ يساوي كم!!

وهززتُ رأسـي: «يا أسـتاذ واحد زائد واحد زائد واحد يسـاوي واحد، نحنُ ثلاثة نشكل أسرة واحدة، نحنُ أربعين نشكل صفْ واحدْ، نحـنُ كلنا نشـكل وطنْ واحـدْ...». كانَ كرماً منـه أنْ يتركني لأقولَ تلـكَ الجملـة الطويلة، وينظر لي ويفكر قليلاً، ثـمَّ يقترب منِّي بهدوء ويصفعني صفعة أقـوى منَ الأولى، ويتبعها بجملة أفلاطونية أخرى بنفس المعنى..

ولكنَّ الصفعةَ الثالثة كانتْ لا تنسى، يومها عدتُ لوالدي شاكياً ظلم الأساتذة وجهلهم، وضربهم لي ظلماً، ولمْ يمهلني طويلاً ليسمعَ البقية، لأني فقدتُ قدرتي على الكلام، والتركيز بعدَ الصفعةِ الأسـمنتية التي تلقيْتها منه، واحتاجتْ أمِّي أجزاءً أخرى منَ القرآن لتقرأها عليّ، حتى أسـتعيدَ توازني، وفي اليوم التالي قبلَ ذهابي للمدرسة قالَ لي والدي بغضب: أنا أرسـلكَ للمدرسـة لتتعلَّمَ ما في الكتبِ وتطيعَ الأسـاتذة، وتكونَ شخصاً مهذباً صالحاً، وليسَ متمرداً أحمق، أفهمت؟!

ويومها قبَّلتُ يدَ والدي التي صَفَعتني، وتعلَّمتُ درساً لبقيةِ عمري، أنْ أكونَ ببغاءً جيداً، وخروفاً مطيعاً، وإبريقاً كبيراً.

الذكرى الثانية/ ليسَ لدي حُلم.

منــذُ تلكَ الصفعة، تعودتُ أن أمشــي بجانب الحائط، وأقولَ «يا ربِّ ســترك»، وتعوَّدتُ أن «أبتعد عن الشــر، وأغنِّي له»، جملتان، علقتهما والدتي، واحــدة في الأذن اليمنى، والأخرى في اليســرى، ومعَ الوقت، تقوقعتُ كمحارةٍ رخوة، ودفنتُ نفســي أكثر، في رمال المجتمع، خوفاً، من المحيط الكبير، كنتُ آكل، أشــرب، وأتنفّس، وأغلقُ دفترَ العلامات، وأصلّي فــي البيت، خوفاً من الأجهزة الأمنية، بالذات بعدَ اعتقال جارنا الذي كانَ يصلي في المســجد، وتحويلِ جسدهِ إلى خريطة جغرافية، لبلدٍ غيرِ معروف، وهكذا حتَّى وصلتُ إلى الثانوية العامة، في هذهِ المرحلة، يتحــوَّل الطعام إلى معادلات وخوارزميات، وتتحــول الصلاة إلى فترة تأمليــة لاســترجاع القوانين، ويتحول الليل إلى فيلــم (Saw !!)، والأمر الأكثر رعباً، أنَّ كلَّ من حولك يصبحونَ جزءاً من هذا الفيلم ليلاً، نهاراً.

وفــي ذلــكَ العام، تــدبّ حمَّى الــدروس الخصوصيــة في طلاب المرحلة وتنتشــرُ الامتحانات والتسريبات، كالزكام في الشتاء، أمَّا أنا ولشدَّةِ خوفي، فلقد أتممتُ التهام المقررات الدراسية، كاملة قبلَ نهاية الفصل الأول، بمعدل عشــرين ســاعة يومياً من الدراسة، فاضطرت أمي إلى أن تشــتري لي أوَّل نظارةٍ ألبســها في حياتي. وبقدر ما كنتُ أبتلــعُ من المعلومات، بقدر ما كنتُ أعافُ الطعام، فانكمشــتُ كثيراً، حتَّى إنَّ أمي أعادت خياطة كلِّ ثيابي، وفي النهاية حصلتُ على معدَّلٍ أجزمُ أنَّ أينشتاين لم يحصل عليه، وهكذا كانَ عليَّ أن أقف أمام بوَّابة الجامعة، وأحملقَ طويلاً في وجه صديقي نور، وهوَ يسألُني: ما الذي تحلم أن تكونه في المستقبل!

– ليسَ لدي حلم!

اكتشــفتُ هذا، بعدما تســلَّقتُ بأظافري جبالَ السنوات المدرسية، وبعدما أمضيتُ اثني عشرَ عاماً، منَ التجديفِ في صحراء العمر.

وكأنّني أعرفُ الإجابة، قلتُ له، ما الذي تريدُ أن تكونه أنت؟

قالَ: مهندس!

وهكذا دخلنا إلى الجامعة شــابَّينِ مُعدمينِ، أحدهما يريدُ أنْ يُصبحَ مهندساً، والثاني، يسيرُ في ظلِّ صديقه.

ولــم أكن أهتمُّ كثيراً لما ســأدخلهُ في الجامعة، طالما أنني حصلتُ على منحةٍ كاملة بالرســوم الدراسية، المال كانَ دائماً، العائقَ في كلِّ شــيءٍ، لذلكَ كلَّما أردتُ فعلَ شــيء، كانَ علــيَّ أن أفكِّرَ بالثمن الذي يجــب أن أدفعه، وعندما حصلتُ على المال، لمْ يكن ثمَّةَ ما أفكِّر فيه، لقــد شــعرتُ بفراغٍ كبيرٍ وقتها، وغصّةٍ أكبر مــن دمعةِ أمي الفَرِحة، عندما قلتُ لها في مساءِ ذلكَ اليوم، سأصيرُ مهندساً.

الذكرى الثالثة/ ما أنا بقارئ!

يحــدث جــداً، أن تعيشَ في ضريحــكَ الخاص، لأعــوامٍ ثمَّ تفتحهُ وتخــرجَ منــهُ فجــاةً، فيؤذيكَ كلَّ ذلــك الضوء، الموجود فــي العالم، ويحــدث جداً، أن تكونُ مطفــأً حتّى أصغرَ خليةٍ فــي دماغك، وتعثرَ ذاتَ يوم على زر التشــغيل، وتضغطَ عليه، فتســتعيدَ حوَاسَّــكَ كلّها،

هذا ما حدثَ لي في الجامعة، لم أكن أعلمُ من هوَ هذا الذي يسكنُ في جسدي، ولم أكن أعلمُ ما هذا الجسد الذي أسكنُ فيه، إلّا يومَ اقتادني صديقي إلى باب المكتبة، وقالَ لي: اقرأ.

ضحكت: وقلتُ لهُ، ما أنا بقارئ!

فأجاب بإصرار: عزيز، اقرأ لتجد نفسك، يومها لم يهزَّني بيديه، ولكنّه هزّني بنظرته.

ودخلتُ المكتبة، هناك تكتشف، أنَّ أَلِيس لم تدخل بلاد العجائب، وأنَّ كولومبوس لم يكتشف أمريكا، وأنَّ القهوة لا تسبّب السرطان، وتكتشف أنَّك تشبهُ غاندي أو مانديلا أو جيفارا أو تشبهُ بطلاً آخر لم يذكر بعدُ في الكتب.

في البداية شعرتُ بالتشتّت، في كلِّ هذهِ الفوضى المرتبة، فوقَ الرفوف، ولكن فيما بعد بدأتُ أعثر على بوصلتي الخاصة، التي لا تُشير إلى أي جهة من الجهات الأربع، وبدأتُ أقتفي أثرَ ذاتي في كلِّ كتابٍ أقرؤه، وأشتمُّ رائحةَ كياني في كلِّ ورقةٍ ألمسها، كنتُ أقضي وقتي بينَ كتبِ الهندسة، وكتب العلوم الأخرى، وكانت لي جلسة شبه يومية مع صاحبي، نفتِّشُ بها الكتب، ونستجوب التاريخ، ونعرِّي الشخوص من أسمائها، ونقشّرُ الأحداثَ من أوراقها.

وفيما بعد انضمَّ لنا أصحاب آخرون، وكبرت المجموعة، حتَّى أصبحت كرنفالاً أدبياً أسبوعياً، يضمُّ المئاتِ من الطلبة المثقفين، حتَّى أنَّني لم أعد أحفظُ أسماءهم، وأشكالهم، فقد كنَّا مقسّمينَ إلى

مجموعـات، لـكلٍّ منها يـومٌ ثقافيٌّ خـاصٌ في إحدى كبـرى قاعات الجامعـة، وهناك اكتشـفتُ أنَّ لدي صوتاً يمكـن أن يصل إلى كوكبِ زحل، فالتفَّ حولي الكثيرون، بسـبب تفوّقي في تخصّصي، وفكري الحـر الخارج على القانون، كما كانَ يقول لـي صديقي، كنتُ مقتنعاً وقتها أنَّني ولدتُ عِندما دخلت المكتبة واكتشـفتُ نفسي، وبعدَ عامين من تلكَ الولادة، انفلقت الشـرنقة، وخرجتُ منها، فراشـةً بيضاءَ من غير سوء، في لحظةٍ سرمديةٍ لا أعرفُ كيفَ أسمِّيها.

الذكرى الرابعة/ الحب في زمن الكوليرا.

كُنَّا في جلسةٍ أدبيةٍ، نناقشُ فيها الثورة الفرنسية، وآثارها على بقيَّةِ الدول الأوروبية، وكانَ الشـبابُ من حولي ينضجونَ على نارٍ هادئةٍ، وهم يتلمظونَ ثورةً تشبهُ الثورةَ الفرنسية، تطيحُ بالتماثيلِ المشيَّدة من عظامٍ وعرَقِ الشـعوب، وبينما أنا غارقٌ في هذهِ الفورة البائسة، التي يسكبها أحد الشـبابِ على مسامعنا! شعرتُ ببرودةٍ غريبة تهبطُ على القاعـة، صمتَ الجميعُ فجأة، وابتلعوا ألسـنتهم، وأطبقوا فكوكهم في ريبة، تلفَّتُ حولي، فرأيتها جالسـةً في ركنٍ منزوٍ عنَّا، تعبثُ بهاتفها في توجّس، وشـعرها نائمٌ علـى كتفها بقلق، ورموشـها ترفرفُ في الهواءِ المتوجِّسِ الذي ينبعثُ من أنفاسِ الشباب حولي.

شعرتُ أنني رأيتها قبلَ ذلك، ولكنّي لم أعلم أين! تشنَّجتُ لدقائقَ، وانسـلخت عن حواسي الواعية، وأنا أتأمّلها، قبلَ أن تلملمَ كبرياءها، وتفـرَّ مذعـورةَ الخصلات من القاعة التي لم تسـتقبلها جيداً، وَكَزَني

صديقــي عندمــا قطبتُ وجهي لحظةَ خروجهــا، وهمسَ لي بغيظ: ما بك!

ظللــتُ أتابعُ خيالها حتَّى غاب في الممرّ، ولم أنتبه لســؤاله، أعادَ سؤاله، فأجبت:

من هيَ؟

اســمُها ريما، – لحســن أو ســوءِ حظي – ، تدرسُ معنا في قســم الهندســة، في نفــس الدفعة ولكنَّها فتــاة خجولة جداً، تمــارسُ حياتها الجامعية، كنســيمٍ يدخلُ عبرَ فتحةٍ ضيقــةٍ، تجلسُ في المقعد الأخير، تخافُ الجميعَ، والجميعُ يخافُها!

والســبب أنَّ والدها من أشرسِ رجالِ الدولة، كانَ عليها أن تدخلَ جامعات النبلاء الراقية، ولكنَّها اختارت جامعتنا، حاوَلت الاندماج مع الجميع، ولكنَّ الجميعَ تجنَّبها كمغلَّفات الجمرةِ الخبيثة، التي انتشــرت في زمنٍ ما، وفي ذلكَ اليوم كانت قد سمعت عن مجمع القرَّاء، فتحرَّت عــن مكان الاجتماع المعروف أصلاً، ودخلته على اســتحياء بما أنَّنا نرحب بالجميع، إلا هيَ! كما اكتشفت في تلكَ الجلسة!

بعدما خرجت لم أســمع أيَّ شيء من أي أحد، فلقد دخلتُ في بقعةٍ سينمائيةٍ يتكرر فيها مشهد خروجها من القاعة، مرةً بعدَ مرَّة!

في اليوم التالي جئتُ القاعة متأخراً جدّاً، بعيداً عن نسقي المعتاد، وعندمــا دخلت، نظرتُ إلــى المقاعد الأخيرة، ورأيتهــا وحيدةً هناك على طرفِ مقعدٍ ينتظرُ أحداً، كانَ أنا!

جلستُ بجانبِها وألقيتُ التحيَّة، أعطتني تلكَ النظرةَ المذعورة، لبجعةٍ وحيدةٍ كانت تسبحُ فوقَ بحيرةٍ راكدةٍ، لسنوات، ولم تتوقع أن يأتيَ أحدٌ ليكسرَ سورها الزجاجي، ويثيرَ المياهَ من حولها.

تظاهرتُ أنّني أتابعُ بقيَّةَ المحاضرة بانتباه، ولكنَّ دمي كانَ يفور أكثر، والقلب يتوقف رويداً رويداً، ظللتُ أتابعُ بطرفِ عيني حركاتها المرتبكة، وما إن انتهت المحاضرة، حتَّى طلبتُ منها ملخصاً لما شرحهُ الدكتور قبلَ مجيئي، تلمست دفترها، ناولتني إيَّاه بدون نصفِ كلمة، شعرتُ بارتعاشها عندما أخذتُ الدفترَ منها، قبضتُ عليه أكثر، وقبلَ أنْ أقولَ شيئاً، تبخَّرتْ من أمامي، كفقاعةِ صابونٍ ناعمة، انفجرت، ونسيت عطرها في عروقي، ابتسمتُ طويلاً لحظتها، قبلَ أن ألحظَ نور بجانبي، بوجهه الأصفر، وجملته التي لا أنساها:

– إيَّاكَ يا عزيز أن تدخل حقلَ الألغام، برجليكَ، إيَّاك!

ضحكتُ عليه: أيُّ حقل، تقصدُ ريما.

– نعم!

– حسناً لن أفعل!

كانت أوَّلَ وأجملَ كذبةٍ لي في حياتي، فقد كنتُ وقتها في منتصفِ الألغام، ولكنَّها لم تنفجر بعد! ويومها اكتشفتُ أمرين آخرين، الأوَّل أنَّ الإنسان يولد فعلياً عندما يحبّ، والثاني أنَّني بدأتُ أحبُّ الشاعر نزار قبَّاني فجأةً، ودارت في رأسي أبياته تلك التي ألقيتها من النافذة ذاتَ يوم، في قرف.....

يا سيِّدتي:

كنتِ أهم امرأةٍ في تاريخي

قبل رحيل العامْ.

أنتِ الآنَ.. أهمُّ امرأةٍ

بعد ولادة هذا العامْ..

أنتِ امرأةٌ لا أحسبها بالساعاتِ وبالأيَّامْ.

أنتِ امرأةٌ..

صُنعَت من فاكهة الشِّعرِ..

ومن ذهب الأحلامْ..

أنتِ امرأةٌ.. كانت تسكن جسدي

قبل ملايين الأعوامْ..

– الورقة الأخيرة –

– لوركا –

التقيتُ بها فيما بعد، وكانت مبتسمةً بخجل لأنها أعطتني دفتراً آخر بالخطأ، كانت ابتسامتها جميلة، وعندما عرفتها أكثر اكتشفتُ أنَّ روحها فاتنة، طلبتُ منها أن تنضم للقائنا الأدبي، فاعتذرت

خوفاً من نظرات الجميع، لذلكَ اقترحتُ عليها لقاءً أدبياً قصيراً قبلَ كلِّ محاضرة، وهكذا كنتُ أراها كلَّ يوم، وسرعانَ ما تَمَوْسَقْنَا معاً، هيَ وجدت من يراها كإنسانة طبيعية ولا يخافها، وأنا وجدتُ سندريلا ذاتَ الحذاءِ المنخفض، والثياب العادية، ظلَّ نور ساخطاً على علاقتنا، واهتمامنا، وكثيراً ما كانَ يعيِّرُني أنَّني فقدتُ الاهتمام بقضيتي ورسالتي، وأنَّ هذهِ العلاقة لن تستمرَّ طويلاً، ولكنَّهُ علِمَ يقيناً أنَّه لن يزحزحَ قلبي لسنتميترٍ واحدٍ، حتَّى لو استعملَ أكبرَ الجرَّافات، لذلك مع الوقت أصبحَ متآلفاً مع الوضع الذي نحنُ به.

تابعنا دراستنا، أنا لم أقل لأهلي أنَّني أحبَّ فتاةً من قمة الهرم الاجتماعي، وهيَ لم تقل لأهلها أنَّها متعلِّقة بشابٍّ من قعر الطبقات الاجتماعية، وما بينَ هذه المسافةِ الشاهقة بيننا كانت مجموعتنا الأدبية تكبر، وتتسع حتَّى أصبحت أكبر ملتقى شبابي على مستوى الجامعات في الوطن، وفي ذلكَ الوقت تخرَّجنا في الجامعة أنا، ونور وريما، وبعدَ أيَّام تلقَّفتني إحدى أكبر الشركات الهندسية الأجنبية التي لها فرع في بلادنا، بسبب شهرتي الواسعة، وتفوقي الملحوظ، وكم كنتُ سعيداً عِندما لحقت بي ريما في تلك الشركة، بعدما أضافت إلى علاماتها المنخفضة، توصية هاتفية قصيرة من والدها.

هيَ لم تكن تهتم بالهندسة أو الشركة، كانت تريد البقاء بقربي وحسب، وقد عرفَ الجميع أنَّها لا تصلح لتكونَ مهندسة، أرادت أن تتعلَّمَ الرسم، ولكنَّها دخلت التخصص الذي اختارته لها عائلتها بعدَ إصرارها على دخولِ جامعتنا، ولم تحبَّ الهندسة، ولم تفلح بها يوماً، لذلكَ كنتُ أتركُ لها اللَّمسات الأخيرة على كلِّ مشروع، وأعيدُ

مراجعتها قبلَ تسليمها للمدير، ولربَّما كانَ أهم ما حدثَ بعدَ عملي في الشركة أنَّني اشتريتُ هاتفاً نقالاً، وأصبحتُ أتحدثُ معها وقتما أشاء، إضافة إلى أشياءَ أخرى، لم نكن لنراها إلَّا في الجنَّة!

فلقد استأجرت شقَّةً جديدةً في مكان أفضل، كما اشتريتُ لوالدتي ثياباً جديدةً لأول مرَّة في حياتِها، ولأبي كرسياً متحركاً، وبدأتُ أفكّر بتأسيس شركتي الخاصة، أردتُ أن أصل لأقصى ما أستطيع لأليقَ بها، ولكن.......

جاءتني ريما في أحد الصباحات برموشٍ مذعورةٍ، فقد تقدم أحد أبناءِ الوزراء لخطبتها، وقد طلبت منِّي الاستعجال في طلبها، بالذات وأنَّ راتبي تحسّن، وموقعي في الشركة أصبح مهماً، بسبب مهاراتي العالية، ونجاح المشاريع التي أشرف عليها، لذلكَ قررتُ في لحظةِ أملٍ مراهق، القفزَ عن سورِ الحب العظيم، وإخبار والدتي، لتخطبها لي...

والدتي التي باعت خاتمَ زواجِها لتشتري لي نظَّارتي الأولى، هيَ نفسها التي صفعتني على وجهي، وعلى قلبي عِندما قلتُ لها عن ريما، هيَ نفسها التي أقسمت أنَّها ستُقَطِّعُ أقدامي، وتمنعُ عنِّي الطعامَ والشرابَ وتحبسُني في غرفتي لو ذكرتُ اسمَ ريما ثانية.

وهيَ نفسها التي استيقظت في الصباح التالي، وارتدت ثوبها الجديد، وغادرت بسيارةِ أجرة من بيتنا المتواضع إلى قصرِ ريما، وعادت لي في المساء بأشلاءِ امرأة، ودموعٍ تغلي في محاجرِ عينيها.

لقد قامت والدةُ ريما بطردها، وإهانتها، وقبلَ ذلكَ بصقت على

وجهها، عِندما رأيتُ والدتي بهذا الشكل، تمنَّيتُ لو أني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسياً، انحنيتُ على صدرها قبَّلتُ يدها ورأسها، واحتضنتها طويلاً حتَّى هدأت، ووعدتها أن أنسى ريما، وسيرةَ ريما، وهذهِ كانت كذبتي الثانية.

في تلك الليلة حاولت الاتصال بها، ولكنَّ رقمها كانَ خارجَ الخدمة دائماً، لم أنَم ليلتها، بينما ظلَّت سناجب الوقت تقرضُ ساعات الليل ببطءٍ شديدٍ وصوتٍ مزعجٍ، فيزدادُ صداعي، واختناقي، وجوعي لرؤيتها في الشركة غداً، وجاءَ الغدُ فاتحاً جحيمهُ الذي لم أنتظره!!!

ريما استقالت من الشركة وعرفتُ فيما بعد أنَّها خُطبت، وأنا طردتُ كالكلابِ الضالة، بتهمةِ اختلاسِ مبلغٍ من المال لم أختلسهُ أبداً، وبعدما درتُ على عشرِ شركاتٍ أخرى حاملاً أوراقي وإنجازاتي المضيئة، عرفتُ أنَّ والدها أصدَر بياناً بتغريبي في بلادي، فلقد عمَّمَ على كلِّ الشركات عدم قبولي حتَّى كعاملِ نظافة!

وعدنا إلى حارتنا الأولى، وباعت أمي كلَّ الثياب الجديدة، وهاتفي النقَّال، والكثير من الأغراض الأخرى لتسديد إيجار البيت، واستطعنا أن نصمدَ بضعةَ أشهر قبلَ أن يقنِعَني نور بالعمل في مكتبه الهندسي المتواضع، كشريكٍ له، كنتُ أعملُ معه، بعقلي وأصابعي، لكنَّ قلبي وكياني كانا يبحثانِ عن صوتِ ريما في كلِّ مكان، كنتُ فزاعةَ حقلٍ غادرت مكانها بحثاً عن أرضٍ لتَنغرِسَ فيها، ولم تعثر عليها.

وفي ذاتَ يوم جاءَني نور ممتقعاً، شاحباً، كأنَّ الغربانَ تأكلُ من رأسه، أخفضَ رأسهُ وسلَّمني ورقة، وقالَ لي: هذا الوطن يا صديقي،

لا يشـبِهُنا، لا يعرِفُنـا، ولا يُحبُّنـا إنَّـهُ يقتلُ أحلامنا، إنَّـهُ يعيشُ على أنقاضنا....

وقعَ قلبي، ولم أستطع التقاطه، قلتُ له: ما بِها ريما؟

لقد ماتت، وُجِدت ميتةً في ثوبِ زفافها بعدَما شَـرِبت سـمَّاً قوياً، يومَ عرسها، وتركت لي أناملها، وحزنها، وعطرها على تلكَ الورقة، فَتَحتُها كَمن يُهيئُ مقصلته، وقرأت:

إلى عزيز..

أيهـا الفارسُ الذي لـم يأتِ على حصانٍ أبيـض، ولكنَّهُ جاءَ على صهوةِ حلمٍ هشّ، تكسَّـر تحتَ أقدامِ القدر، إذا وصلتكَ رسـالتي فكن سعيداً، لأنَّني الآن تحرَّرتُ من خوفي.....

دائماً كنتُ خائفةً من والدي ووالدتي، والمجتمع والعالم الكريستالي القشور، الصَّدِئ الحشوة، كانوا يختارونَ لي ثيابي، وطعامي، وطريقة أكلي، ودراسـتي، ومشيتي، ونَسَقَ تنفُّسـي، وكنتُ أخافُ، وأصمت، وأعيـش، حتَّى وجدتـك، لأنَّكَ علَّمتنـي الحرية، والحـب، أردتُ أن أهربَ إليكَ، لكنَّهم حبسوني، أردتُ أن أعيشَ معك لكنَّهم قتلوني، هذا الزفاف ليسَ لي، إنَّهُ لجشـعهم، ونفاقهم، وزيفهم، أمَّا أنا فلا أسـتطيع أن أعيـشَ حياتهم، وألبـسَ أقنعتهم، هذهِ الحياة قاسـية على الطيبين، ومعتمة على الشفَّافين، لذلكَ سأذهبُ لمكانٍ أكثرَ راحة، وأمل!

أعتذرُ لوالدتك، لقد بكيتُ كثيراً عليها ذلك اليوم، وبكيتُ عليك لما سـيحدثُ لك، ولكنِّي لم أبكِ على نفسـي لقد صرختُ فيهم، وصرخت

أنَّني أريدُ أنْ أكونَ حرَّة لكنَّ أحداً لم يسمعني!!

الشـــيء الوحيد الذي اســتطعتُ اختياره هو الموت، لذلكَ أنا حرَّة الآن، أريدكَ أن تحيا بحب وأمل، وأن تبتسم، أنتَ حر، وأنا حرَّة..

هذا ما قالهُ الشاعر لـوركا عِندما أعدموه رميـاً بالرصاص، لقد قتلوه لكنَّهم لم يقتلوا قصيدته! لم يقتلوا روحهُ، لقد قالَ أثناءَ إعدامه:

ما الإنسان دون حرية يا ماريانا؟

قولي لي كيف أستطيع أن أحبك إذا لم أكن حراً؟

كيف أهبك قلبي إذا لم يكن ملكي؟

الشاعر لوركا

إلى اللقاء / ريما.

تلـكَ الليلة قرأتُ الرســالة، حتَّى تسـرَّبت حروفها عبرَ بَشَـرَتي، فأصبحتْ جزءاً من كريَّات الدم، وجزيئات الأكسـجين، في تلكَ الليلة توحدتُ مـع حزني، وانفصلتُ عن جلدي وعمـودي الفقري، تركتُ جسديَ المثقوبَ من كلِّ الجهات، ووصلتُ إلى سدرة توجُّعي.

في آخر الليل كانَ يمكن لنجمةٍ شاردةٍ في أقاصي المجرَّة أن تسمعَ صوتَ إنســانٍ ينكمشُ على نفســه ويصيرُ نحيبــاً لانهائياً في حنجرةِ الفضاء، عِندما عدتُ في اليومِ الثاني لجسدي، كرهتُ الحب وكرهتُ الوطــن، وكرهتُ نزار قبَّاني، وانصهرتُ من لوركا، في اليومِ التالي أصبحتُ لوركا.

ريمــا كانت أشــجعَ مــن عرفت لقــد واجهــت خوفَهــا، وقهرته، وانتصرت عليه، ريما هيَ الثائرة الأولى، والبطل الأول في حياتي.

مــا حدثَ بعدَ ذلــكَ لم يَعد مهمّــاً كثيراً، أصبحتُ ببســاطة ثائراً، رأيتُ كلَّ المشــرَّدين والفقراء والمساكين يتوحَّدونَ في عزيز، تابعتُ لقاءاتي الثقافية، وثورتي، وتمرُّدي على كل شــيء، لقد تابعتُ الثورةَ التي بدأتها ريما.

كنتُ أنادي أنَّنا بشــر، ولكنَّ أحداً لم يسمعنا، كانوا يزدادونَ ثراءً، ونزدادُ بؤســاً، يزدادونَ بريقاً، ونزدادُ شــحوباً، وكانت أعدادُنا تزداد كلَّ يوم، وعلت أصواتنا المطالبة بالانتخابات والإصلاحات، وظننتُ أنَّ شيئاً ما يُدخلُ الضوءَ عنوةً عبرَ شقٍّ صغيرٍ، وذاتَ يوم بعدَ مسيرةٍ هائجةٍ لعمال المصانــع، رفضاً لفرض ضريبة جديدة عليهم، قالَ لي نور: هل تعلم ما سبب انكسارنا وألمنا وفقرنا وجوعنا؟

– ....؟!

– إنَّــهُ خوفنــا يا عزيــز، نحنُ خائفون، لــن يلتفتوا لنــا طالما أنَّنا خائفــونَ منهم، علينــا أن نقتلَ خوفنا، علينا أن نثور، علينا أن نســقط الأصنام، لينبتَ عشبُ الفقراء من تحتها..

ربَّما وقتها لم أفهم جملتهُ جيداً....

وبعدَ أقل من شهر حصلت تفجيرات الشرطة وقتِلَ وزيرُ الداخلية في مكتبه، واختفى نور، وأعتقد أنَّني سأعتقلُ قريباً.

فــي الورقة الأخيرة، كتبَ عزيز، ســلامي لصديقي نور، فهو إمَّا

أن يكونَ قارئَ المذكّرات، وإما أنَّهُ أرسلكَ لتقرأَها لسببٍ ما، وأرجو منكَ أن تضعَ وردةً بيضاء على قبرِ ريما، وتلفَّها بشريطة حمراء، وأنْ تقرأ الفاتحة على روحها، وروحي لأنَّكَ طالما قرأتَ الرسالة فهذا يعني أنَّني سأموتُ قريباً.

الإنسان الحر: عزيز لُطفي!

* * *

(19)
ثاني أكسيد الخوف!

الآن يحــقُّ لي أن أبكي على هــذهِ الأرض اليباب حتَّى أتحوَّلَ إلى سيولٍ وفيضانات.

الآن يحــقُّ لــي أن أدروِشَ في معبد القهر لبقيــةِ عمري، وأعتزلَ العالمين.

يحقُّ لي أن أحبسَ نفْسي في زجاجةِ الذَّاكرة، مع قليلٍ من الأكسجين لأختَنِقَ ببطءٍ.

يحقُّ لي أن أطير إلى ســماءِ الألم الســابعة، بقوَّةِ الوجع فقط، وأن أسقطَ للأرضِ ثانية بتأثير نفسِ القوَّة.

أنا وحدي الســبب في موت تلك المخلوقة الملائكيَّة، التي أحببتُها، أنــا الذي قتَلتُها بأنانيَّتي، قلتُ ذلــكَ ألفَ مرَّة، ولكنَّ أحداً لم يُصدِّقني،

إنَّها الآن أمامي بفستانِها الأبيض، بالدانتيل الخائف، تُمسِكُ بالزجاجة، تنظرُ إليَّ، ثمَّ تبتَلِعُ السمَّ وتبتسم، وأنا أركضُ بأقصى ما يُمكنني، تطيرُ قدمايَ إليها، ولكنَّني أصلُ متأخراً جداً، فأحتَضِنُ جثَّتها، وأبكي، وأصرخ، وأصيح، وأرتعش، وأتألَّم، حتَّى تنتهي الكلماتُ العربية التي تشكِّلُ معاني الوجع!

أنا وحدي المسؤول عن حُزنِها، وتعاسَتِها، وأنفاسِها الأخيرة، ودمائِها التي تسيلُ كرعشةِ لونٍ خجولة، على صفحةِ بشرَتِها الباهتة، ولا يُمكنني أن أمنحَ نفسي صكَّ غفران، ولا جرعةَ صفح، ولا كسرةَ رضى، سأعاقبُ نفسي بأن أبقى ساخِطاً عليها حتَّى الموت، سأجلِدُها حتَّى يحمرَّ جلدُ الذاكرة، وأصلُبُها حتَّى يتقشَّرَ لحمُ العمر!

في الزاويةِ التي سقطَ فيها العصفورُ ومات، جلستُ القرفصاء، دفنتُ رأسي بينَ قدمي، وأغلقتُ الستائر، والباب، وطردتُ الحرَّاس والخدم، وبدأتُ بطقوسِ الانسحابِ إلى العتمة، والتحوُّل إلى شبح!

لقد فقدتُ رغبتي في الحياة، وفقدتُ دهشتي، وتخلَّيتُ عن رئَتيَّ، وتنازلتُ عن حصَّتي في الأكسجين، وتقوقعتُ على ذاتي الأولى التي تركتُها في المصحَّة النفسية، أريدُ فقط تابوتاً على مقاسي لأنامَ فيه دونَ أن أحسَّ بموعدِ مجيء النهار.

هذا هوَ القرارُ الأمثل الذي كانَ يجبُ أن أتَّخذَهُ منذُ زمن، لم يَعد لدي شيءٌ لأعيش لأجله، اكتشفتُ ذلكَ متأخِّراً، ولكني اكتشفتهُ في النهاية، فقدتُ الإحساسَ بالساعات، واستمررتُ في إشعالِ السجائر، واحدة تضيء فأسحَبُها، إنَّها تحترق لأجلي، وأنا أموت لأجلِها،

تضيءُ للحظات ثمَّ تنطفئُ للأبد كحالِ كلّ الأشياء الجيدة في حياتِنا....

واحدة تضيءُ، تحترقُ، أسحَبُها للدَّاخل فتتوهَّج كأنَّها تشعرُ بألمِ الاحتراق، تتوهَّجُ أكثر ثمَّ تنطفئ، فألقِيها على السجاد علَّهُ يحترق ويأكُلُني معه، فأرتاح أخيراً...... واحدة، اثنتان، ثلاثة............

لقد بدأتُ أشعرُ بها تقترب، إنَّها تقترب بفستانِها الأبيض، تضعُ السمّ في كأسين، وتصبُّ العصير، تقدِّمُ واحدة لي، وتدعوني لاحتسائها في نفس الوقت، ألتَقطُ الكأس، وأقرِّبُها إلى شَفَتي، فتتوهَّج!

وهيَ تقرِّبُ كأسَها، أفتحُ فمي، وأغمضُ عينيّ، وأشعرُ بي أخفَّ وزناً، وأقربَ إلى السقف، وقبلَ أن يمسَّ الشرابُ لساني، أشعرُ بالكأسِ تطير، وتتهشَّمُ إلى شظايا ملونة على الأرضية، ألتَفِتُ بِثِقَلٍ فأرى جثةَ السيجارةَ التي كانت بيدي ملقاةً على الأرض، أحاوِلُ أن أحبو بجنون، ولكنَّ تلكَ اليد التي رمت السيجارة، تُمسِكُني بقوَّة! تضغطُ على مِعصَمي بعُنف!

أحدِّقُ فيه! من هذا!! إنَّهُ يُشبِهُني!! نعم إنَّه أنا!، وأضحكُ بجنون قائلاً: لماذا تُمسِكني يا أنا؟ دعني أريدُ أن أموتَ وحيداً، كما ماتت ريما! ليسَ لديكَ أيُّ سلطةٍ عليَّ بعدَ اليوم، حاولتُ نزعَ أصابِعهِ بضَعف، فلم أفلح، فقمتُ بمدِّ يدي الثانية إلى السيجارة التي ظلَّ نِصفُها يتلوَّى على الأرض!

مددتُ يدي أكثر، وأنا أضحك، وأكركر....

فَصَفَعَني، نَعم! لقد صَفَعني أنا! شعرتُ بصفعَتِه تطنُّ في أذني،

وتسدُّ قنواتي السمعية، وتصدرُ صوتَ فرقعةٍ عاليةٍ، تحسّستُ خدّي فوجدته حاراً، مُلتَهِباً!

نظرتُ جيداً فوجدتُ نور، يصرخُ في وجهي وهوَ يمسكُ لفافةَ السجائر: ما هذا أنتَ تهلوس! هل عدتَ لشرب المخدَّرات!

كم سيجارةً شربتَ إلى الآن، ما الذي تفعلُه بنفسك يا مجنون؟!

– ما الذي تريدهُ منّي؟ أريد أن أموت وحيداً، أريدُ أن أكفِّر عن خطايا هذا العالم بالموت! سألحقُ بريما!

قلتُ لهم أنا الذي قَتَلْتُها!

شدَّ على يدي أكثر، ورأيتُ عينيهِ/ عينيَّ تكبُران، وتبتلِعانني، وسمعتهُ يصيح: لن أسمح لك بالموت! هل تفهم! يجب أن تعيش؟ على أحدنا أن يعيش ليكمل ما بدأته ريما، وما ثارَ لأجله عزيز!!

ثمَّ قامَ بجرِّي عنوةً، وأنا أحاولُ التملُّصَ من يديه، وقادَني إلى الحمَّام، وفتحَ الماء، فأحسستُ بزخَّاتٍ متتالية منَ الإبر الباردة تنغرزُ في جسدي، وأنا أصرخ، وأحاولُ الهرب، وهوَ يُثبِّتُني تحتَ الماء، ويصرخ: يجب أن تعيش! وعزيز يجب أن يعيش! ويجب أن ننتصر! هل تسمع! سننتصر يا آدم! سننتصر!!

تابعتُ صياحي: لا أريدُ الحياة! لا أريد المال، ولا المناصب! ولا شيء، أريدُ الموت!

– بل ستعيش، تابعَ بإصرار، وهوَ يثبِّتُني تحتَ الماء، وأنا أبتلُّ

وأختنــقُ بشــهيقي، وهوَ يقول: ســتعيش، لأجل أمــي، ولأجل ريما، ولأجلــي!! ثمَّ رأيــتُ على وجههِ مــاءً غيرَ الذي ينــزلُ عليّ، هدأتُ ومســحت المــاءَ عن وجهــه كانَ دافِئاً، قرَّبتــهُ إلى فمي ولعقتــهُ، إنَّهُ مالح!! فبكيتُ أنا أيضاً، وانتحبتُ أكثر، فاحتَضَنني أكثر!!

ساُعيش، وسننتصر!

ظللتُ أدوِّرُ الجملةَ في رأســي، ظننت أنَّني تخيَّلتُ نور في الأمس يسحبُني ويدخلُني عنوة تحتَ الماء البارد، لأخرجَ من هلوساتي! لولا أنَّهُ حدَثَ فعلاً!

قضيتُ الليلة علــى أريكةِ أمِّي، وهوَ نامَ على الأريكة المقابِلة، لمَّا صحوتُ في اليوم الثاني، قرَصَني الضوءُ الدَّاخلُ عبرَ النافذة، تساءلتُ عن الشــخصِ الذي رفعَ الســتائر، فوجدتُ نور لمَّا يَزل نائماً، اقتربتُ منه، تأمَّلتُ الشَّــامةَ الغافِيةَ على خده الأيمن، إنَّها أحد الأشــياء التي لم يرثْهــا من عائلة الحافي، إنَّها تضفي على وجهه لمحةَ براءة، منذُ ذلكِ اليوم الذي رأيتهُ فيه في المرآب عرفتُ أنَّ وجههُ ليسَ وجهَ مجرِم!

اقتربتُ أكثر من وجهه، شــممتُ رائحته، كانت خليطاً من العَرَق والماء والعطر القديم الذي تعودت والدتي على شرائه لي، وقتها كنتُ أســألُها لماذا تشــترينَ زجاجَتين؟ فتقول إنَّ الثانية للشهر القادم، وفي الشــهر القادم أفاجأ بشــرائِها لزجاجَتين جديدَتين! لقد تخلَّيتُ عن هذا النوع من العطر! منــذُ تزوجت، أصبح نوع عطري يخضع لنزوات فاتن الشــرائية! يبدو أنَّ والدَتي أصبحت بعدها تشتري زجاجةً واحدةً كلَّ شهر!

لقد تخلَّيتُ عن عطر والدَتي، لكنَّه لم يفعل!

لماذا أشعرُ برغبةٍ شديدةٍ في لمسه! هل احتضنني حقاً ليلة الأمس!! هل فعل ذلك لأخيه الذي لا يعرفهُ إلَّا من أيَّام... أتساءل!

قرَّبت يدي إلى تلك الشامة، وقبلَ أن ألمسَها، فتحَ عينيه بخوف!!

إنَّهُ أنت!

قـالَ ذلكَ واعتـدل، ثمَّ فركَ عينيه بعفوية وتثاءب، وسـألَني: آدم، أنتَ بخير؟ كيفَ رأسُك؟

تذكَّرتُ رأسي، فقلتُ له على عجالة: أنا بخير! وقفزت إلى الأريكة وبدأتُ أفتّشُ فيها، وأنبشُ ثيابي..

أشـارَ إلـيَّ نور بإصبعه السـبَّابة وقال بنعاس: لـن تعثر على أيِّ لفافة، لقد ألقيتُها في مكانٍ بعيد!

انسَ التدخين! وأيَّ شـيء سيئ آخر! لن تعودُ لتلكَ السمومِ ثانيةً، هل سمعت!

لا أعلـم تحديـداً، متى جاءَ إلى حياتي، ولكنَّنـي كنتُ بحاجةٍ إليه، سألته ممتَعِضاً: كيفَ دخلت للبيت؟ لقد أغلقتُ كلَّ الأبوب من الدَّاخل!

– لدي نسخة عن مفاتيح جميع الأبواب، كنتُ أزورَ أمي هنا دائماً، يمكنكَ أن تعتبرني مقيماً في هذا البيت بدون علمِ أحد!

شعرتُ بنوع من الراحة أنَّ أحداً ما كانَ يؤنسُ والدَتي أثناء غيابي

الدائم عنها، وشعرتُ بذلكَ الهَيجان التي يعطيكَ تنبيهاً صغيراً لارتفاعِ حرارةِ الغيرة، لقدَ كانَ يهتمُّ بوالدتي عندما لم أكن أهتمُّ بها!

سألتُه بخجل: وهل أخبرتك والدتي بكلّ شيء!

نظــرَ إلى النافذة وقال: ألم أقل لكَ أنَّهُ يمكنكَ أن تعتبرني مقيماً في هذا البيت!

تلعثمــتُ قليلاً ثــم قلت لهُ: وهــل أخبرتَ والدَتي بقصـــة ريما مع عزيز! أثناء خطبَتي لها!

تنفَّس وهــوَ ينظرُ إليَّ، بعينين ملؤهما العتــب، وصمت لبرهة ثمَّ تحدَّث بصوتٍ خفيضٍ متوجِّع، لم أقل لها، كانت سعيدة بريما! وكنت مرتاحاً لهذا الأمر لأني اقتنعتُ أنَّ ارتبَاطَها بعزيز خطأٌ كبير!!

لقد رأيتُكَ تحتَضِنُها يومَ موتها، كنتُ هناك في الخلفية، أنظرُ إليك وأبكي عليها وعلى عزيز وعليك.

لقد أرســلت لي الرسالة مع أحد الخدم وأوصتني أن أسلَّمها لعزيز يومَ الزفاف بعدَ الســاعة السادِســة، ظننتُ أنَّها تخطّــط للهربِ معه، ولكنِّــي حضرتُ الحفلَ متخفِّياً، لقد أحسســت بحصول شـــيء عندما تأخَّرَ مجيئها وعندما وصلتُ إليكم كان.......

أعطيت الرسالة لعزيز يومَها، ومنذُ ذلكَ الوقت وهوَ يحلمُ بالثورة والثــورة فقط، يقول أنَّهــا ماتت لتجعلَ منهُ ثائراً، أو ليلحقَ بها، وأنتَ تريدُ اللَّحاقَ بها أيضاً!

كلاكمــا دخل مرحلة الجنــون، ما الفائدة من الموت دونَ أن تحقّقَ حلمك، هل ستتركونَ أحلامكم للآخرين ليحققوها لكم؟!

جميعكم حمقى عيشوا لتحقّقوا أحلامَكم! أو موتوا وأنتم تحاولون! المهم إلّا تستسـلموا! ربما ماتــت لنعيش، ونحقق حلمَها بالحرية، هذا ما أعرفه.

هـززتُ رأســي، نصفي مقتَنِــعٌ بكلامــه والنصف الثانــي مقتنع بالموت! وهمــا يتصارَعانِ بقوّة الآن، أخفضتُ رأســي، وابتسـمتُ ابتسامةً مائلةً ساخرةً وقلت: للأسف ليسَ لديَّ أحلامٌ لأحقِّقَها، سأسافِرُ قريبــاً، إذا أردتَ يمكنكَ المجيءُ معي، ولكنّني لن أســتطيعَ البقاء هُنا أكثر، يكفيني ما عرفته للآن!

شــعرتُ بغضبهِ يطوّقُني، وبأنفاســه المختنقة تحبسُ كلاماً كثيراً، وبصوتِــه يخرجُ مشــروخاً، كالنوتــة الأخيرة في ســيمفونيةٍ حزينة: يمكنُكَ أن تذهبَ إلى أجملِ مكانٍ في العالم! ولكنَّ الذنب سيظلُّ يلاحِقُكَ كوحشٍ قبيح، لن تســتطيعَ التخلّصَ منه، إذا ماتت هذهِ الثورة! وأعدمَ عزيز، ســتفقدُ قدرَتَكَ علــى النوم، والتنفُّس، والتذكّر، لأنّك ســتكون قتلتَ ربما ثلاثَ مرّات، مرّة بالســمّ، ومرّة بقتل عزيز، والثالثة بقتل الثورة!

لــم أســتطع أن أتحمّلَ نصالَ كلِماتــه التي تطعنُ جســدي في كلِّ مكان، اقتربتُ منــه، وجذبتهُ من ثيابه وصرخت: ما الذي تعرفه عن الذنب، وقلّةِ النوم، والخوف ها؟!! لقد عشــتُ حياتي بعدَها خائِفاً من صورَتِها التي لم تكن تترُكُني أبداً!

لقــد كنتُ أموتُ كلَّ يومٍ، وأبعثُ مــن جحيمي إلى أرقي وحزني! لا تعايرْني بما لا تعرفه، أنتَ لم تعرف الخوف في حياتك، يا نور!

فجأةً وجدتهُ يدفَعُني بشــدّة، لم أشــعر إلَّا وأنا أرتطمُ بالأرض في منتصفِ الصالة، رفعتُ رأســي وظلَّ واقفاً، يحملقُ فيَّ ويوشكُ جليدُ عينيــهِ على الذوبَــان، ثمَّ قالَ لي: حقاً! لا أعــرفُ ما هوَ الخوف! لقد تشــكَّلتُ مــن رحمِ الخوف يــا آدم، لقد خرجتُ من بطــنِ جثَّةٍ مثقوبةٍ برصاصــةِ قنَّاصٍ يــا آدم، لقد صرخــتُ الصرخةَ الأولــى في جيبٍ مصفَّحٍ يا أخي، لقد أورثتُ الخوفَ كجينٍ سائدٍ يا آدم!

لقد تربَّيتُ غريباً بلقبٍ مستعارٍ، وعشتُ مختفياً، أتنفَّسُ ثاني أكسيد الخــوف، هاربــاً من أبٍ ســيقتُلُني إذا علمَ بوجــودي، لإخفاءِ خطيئتهِ وعاره!

لقــد كنتُ أزورُ قبرَ والدَتي، وأبكــي، وأبكي! لأنها ماتت مظلومة وخائفــة، ولأنَّها كرهتنــي، ولأنَّني خرجتُ من لحمِهــا عنوةً إلى هذا العالم!

لقد عشتُ أنا وعزيز في حيٍّ فقيرٍ، ورأيتُ كيفَ يموت النَّاس كلَّ يومٍ جوعاً ومرضاً وخوفاً يا آدم!! ومع ذلك كبرتُ أنا وهوَ، ودرسنا، وتعبنــا، وأحببنــا بصدق، لكنَّ العالمَ لفظَنا، كقمامــةٍ غير قابلة لإعادة التدوير، أوطانُنا ألقتنا للشوارع والأرصفة، والمآسي!

ومع ذلك حلمنا، وصرخنا، وثرنا عليهم! لا تتحدَّث وكأنَّك تعرفُ الخوف الحقيقي!

لقــد فقدتُ والدَتي مرَّتين، وأكادُ أفقــدُ عزيز أيضاً، ولكني لن أفقدَ ثورَتي يا آدم، فإمَّا أن تكونَ معنا، وإمَّا أن تكونَ علينا!

لا مجــال لأن تكونَ رماديــاً، لا وقتَ لتكونَ محايداً، ها أنا أمدُّ لكَ يدي، ولو رفضتَها سألحقُ بكَ وأمدُّها ثانيةً، وثالثةً، وعاشرة....

لن أســمحَ لكَ أن تصبِحَ واحداً من أولئكَ القتلة، ســتصنعُ التاريخَ معنا، لن أســمحَ لبقيةِ الخير التي ورثتَها من والدتك أن تذهبَ في أوَّلِ تأشيرةٍ للغرب! أبداً!!

لــم أعرفْ من هــذا الجبل الذي يقــفُ أمامي، والــذي أعجزُ عن الالتفافِ حوله؟

حاولتُ أن أســنِدَ جســدي على يــديَّ، وأقف لكنَّنــي كنتُ أرتعش فســقطت، رأيته يمدُّ يدهُ، ويُشــهرُ نيرانَ نظراته في وجهي، أنا الآن أشعرُ بالخوف أكثر منه، ومن كلِّ ملامِحي التي تشبهه!

مددتُ يدي له، تشبّثتُ بها، وشدَّني إليه فوقفت على قدمي، شددتُ ثيابي وقلتُ له بارتياب: هل أنتَ متأكد من ثورتِك!

– نعم!........ أجابَ بصوتٍ ثابتِ النبرة.

– حسناً، هل تعرفُ ما الذي تريدُ فعله؟ ألدَيكَ خطَّة مثلاً!

ابتسم، وقالَ: هل أنتَ مستعد؟...

أجبتهُ بتردّد، وأنا أبعدُ عينيّ عنه.... لا أعلم! هل تعلمُ أنت؟!

* * *

[20]
الأبطال لا يولدُون، الأبطال يُصنَعون!

في سُــرَّةِ الحيِّ الفقير، وراءَ عظامِ البيوتِ المكدَّسة فوقَ بعضِها! بيــنَ ثَنياتِ الأزقَّةِ الرَطِبــة! عبرَ بوَّابةٍ أرضيةٍ صغيرةٍ، تشــبُه فتحةَ صــرفٍ صحــيٍّ مهملة، نزلنــا الدرجات، وســرنا في ممــرّ طويل، وصولاً إلى باحةٍ كبيرة كانت فيما مضى داراً للأوبرا، ابتَلَعها زلزالٌ قديمٌ، فاحتفظت برشاقَتِها، وتصميمها، غيرَ أنَّها دُفنت تحت الأرض!

كانوا هناك!

رأيتُهم أسراباً أسراباً، الكثير من الشخصيَّات المعروفة، رياضيّون يقــودونَ انتصاراتِهم، شــعراء يكتبــونَ قصائِدَهم، علمــاء يصنعونَ مجدَهم، سياسيّون يديرونَ نقاشاتِهم، مثقَّفون يكتبونَ مستقبَلَهم، شيوخٌ يرفعونَ أذانَ غَدِهم، ورهبانٌ يدقُّونَ أجراسَ أحلامِهم، وثوَّار يشعِلونَ فتيلَ ثورَتِهم!!

رأيتُهــم هناكَ كلٌّ منهم يعزفُ على آلــةِ حُلمه، يحرِّكونَ أصابَعهم في الهواء، يتســاقطُ عرَقهم فيختلطُ بالألحان، فتنبَثِقُ السيمفونيةُ قويةً، ترجُّ الجدارنَ، وتخترقُ الظلام!

الكثير منهم كانوا قد اعتُقِلوا سابِقاً، بعضُهم كانَ من ضبَّاط الجيش، وقــادة الأجهزة الأمنية، من أولئكِ الذينَ لم أكن أســمعُ لهم حســاً ولا ركزاً، طوالَ السنواتِ الفائتة!

كلُّ الطبقــات الاجتماعية التحمت معاً هنــا في هذا المكان المعتم، حَفَروا في كلّ مترٍ في الحائط مشــكاةً، ووضعوا فيها شمعةً فأضاءت وجوههم بألقٍ غريبٍ، أكثر ما تراهُ منهم عيونهم، ولمعانُ العَرَقِ على وجوههم!

على المســرح وضعوا عــدة طابِعات، بعضُهــم كانَ يجلسُ خلفَ «لاب تــوب»، ويطقطقُ علــى لوحةِ المفاتيحِ بقوة، وســرعة كأنَّهما يحترِقانِ معاً، والأوراقُ تخرجُ من الطابعة، ينقُلُها آخرون ويرتِّبونَها ويكدِّسونها، في رزماتٍ مربوطةٍ بحبالٍ رقيقةٍ!

وهنــاكَ من نصــبَ الكاميرا، ومالَ بجســدِه عليهــا كمن يحتضنُ عزيزاً عليه، وأمَامَها وقفَ آخر، يبثُّ رسالَته، ويترجمُ لغاتِ البؤساءِ للتاريخ!

وغيرهم يجمَعونَ براميل منَ الدِّهان الأحمر، وأنابيب الرشِّ على الحيطان!

آخــرونَ يضيئــونَ أعينَهم على الشاشــات، ويبثُّــونَ ثورَتهم عبر

مواقِـع التواصـل الاجتماعي، غيـره كانَ يتناقش، يتحـدَّث، اختلفت ثيابُهم وألوانهم ولهجاتهم، ولكنَّهم اشـتركوا في شـيءٍ واحد، عيونُهم بدت متعبة، ذابِلة، من الواضح أنَّهم لم يناموا من أيَّام، ولكنَّ نظراتِهم كانت متَّقِدة ومشتَعلة! كألفِ قنديلٍ، وألفِ شعلة!

كلُّ المنشـورات، والفيديوهات، والكلمات، واللافتات، والصور، والخطابات التي تفشَّت في الشوارع والأحياء، خرجت من هُنا فقط!

متى جاؤوا إلى هنا؟ كيفَ جاؤوا!

لـم يكونوا قدِ انتبَهـوا لوصولي مع نور، عِندمـا وقفتُ على بابِ المسرح، وأطلقتُ العنانَ لروحي لتتجوَّلَ في كلّ مكان، وتلفَّ أرواحَهم، وتحدِّقَ فيهم، وتصلَ إلى أعلى درجاتِ الصحوة، والاشتعال!

لقد جاؤوا من كلّ مكانٍ يا آدم!

من كلّ بطنٍ جائع!

من كلّ فمٍ مطبق!

مِن كلّ كلمةٍ محبوسة!

من كلّ صرخةِ ألم!

من كلّ غصةِ ظلم!

من كلّ مكانٍ لا تستطيعُ الحكومةُ أن تحبسه، أو أن تمنعه!

لقد جاؤوا من الخوف، والظلم، والقهر، والعبودية، والقمع يا آدم!

هل تستطيعونَ منعَ شخصٍ جاءَ من هذهِ الأماكن؟...

قالَ لي نور، وهَو ينظرُ إليهم بذلكَ الشغف الذي لا حدودَ له!

بعضُ الأسئلة ليسَ لها إجابات يا نور!

إنَّها تولدُ هكذا، تُسأل لتحقق شيئاً أعظمَ من الإجابة عنها...

أجبتُهُ بصوتِ رجلٍ عاشَ طويلاً ليحقّقَ الحلمَ المناسب في الوطنِ غيرِ المناسب!

علينا أن نهدِم خوفَنا أولاً، لنبنيَ حُلمنا!

لا معنى لزراعةِ حلمٍ خصبٍ في أرضٍ بورٍ!

فكَّرتُ بذلك، ونور سَحَبني من يدي، وسارَ بي إلى خشبةِ المسرح، الخشبة التي تدورُ حولَها الكرةُ الأرضيَّة، في هذهِ اللحظات!!

وقفَ في منتَصَفِها، وأمسكَ أحدَ «الميكروفونات» وصرخَ فيهم!

أيُّها الشموس التي لا حدودَ لنورها، أيَّتها الجبالُ التي لا حدودَ لارتِفاعِها، يا أيَّتُها الرِّياحُ التي لا حدودَ لبطشِها!

عِندما سمعوا نداءه، نصبوا رؤوسَهم، ورفعوا هاماتِهم، واصطفوا على مدارات الضّوء، وعلَّقوا نظاراتِهم وأسماعَهم عليه!

لقد جئنا هُنا جميعاً من كلّ حدبٍ وصوب، واختلَطنا، والتحَمنا، وتوحدنا، لقد فرَّقَنا الدين، واللهجة، والفكر، ولكن جَمَعنا القهر، والظلم، والجوع!

لقد جِمَعتنا السجون، وفرَّقنا الوطن!

وأولئـكِ الذيـنَ يجتمعونَ على حقِّهـم، ويدافِعونَ عنه بأسـنانِهم، وأظافِرِهم، وأفكارِهم، ودموعِهم، لا يُمكن أبداً أن ينكَسِروا!!

قالَ هذهِ الكلمة، وصرخَ الجميع! سمِعتُهم، لقدَ اخترَقوا أبعادَ الكون كلّها، وعبروا الأزمنة التي مرَّت والتي لم تأتِ بعد!

نَظرَ إليهم، ثمَّ أشارَ بيدهِ ليكمل!

لقد دعوتُكم هُنا لسبَبَين! الأول لأعلِنَ لكم انضمام، أحد أهم ضبَّاط المخابرات ورجال الدولة الشرفاء!

إنَّه الضابط آدم الحافي....

وأخذَ يدي مني ورفَعها عالِياً، كرايةٍ لا يُمكنُ أن يُنكِّسها شيءٌ أبداً.

فصفَّـقَ الجميع، وهلَّلوا، لم أتمكَّن مـن رؤية ملامِحهم ووجوههم بوضوح، لكنَّ أفواههم كانت مفتوحة، سـعيدة، وشَـغَفهم كانَ واضِحاً يمكنكَ سـماعهُ ورؤيتهُ، ولمسـه، وشـمّ رائِحته التـي تنبِعثُ من كلّ شمعةٍ، ودمعةٍ، ونقطةِ حبرٍ، وقطرةِ عرَقٍ!

تساءلت: هل يعرفونَني؟ صَمَتوا....

ثمَّ قال: السبب الثاني، أنَّني أعلنُ بدءَ المرحلةِ الثانيةِ من هذهِ الثورة، منذُ هـذهِ اللَّحظة، فضجَّـت القاعة، وارتفعت الأقـلام، والكاميرات، والهواتف، والرؤوس، والأصوات، والأرواح!

وصمتت المجرَّة!

بعدَ انتهاءِ موجةِ العنفوانِ تلك، عادَ كلٌّ منهم إلى مهمَّته، وثورته، أخذَني نور إلى غرفةٍ جانبيَّةٍ تحتَ المسـرح، بدت كأنَّها حفرةٌ حديثة، نحتـت بالمعـاولِ اليدويـة، قادَنا إليها أحـد الضبَّاط الجـدد، الذينَ لا أعرفُهم جيداً..

همستُ في أذنِ نور: هل تثقُ بِه! وبأولئكَ الذينَ من الحكومة؟

ابتسمَ وقال: هل تثِقُ بأمِّك؟

أثارَ سؤالهُ استغرابي.. ما الذي تعنيه؟!

فأجابَني بصوتٍ أقربَ إلى صوتِ مدفعٍ مرتعشٍ، منهُ إلى إنسان..

أمـي هيَ التـي جمعتنا هُنا، هيَ التي أحضرتنـا! هيَ التي قادتنا، ربَّما لم يعرف أغلبُ من هنا بهذا، وربَّما لن يذكرها التاريخ!

ولكنَّها الثائرةُ الحقيقية يا آدم!

قالَ ذلكَ، بينَما قامَ شـابَّانِ بإزاحةِ بعضِ البراميل التي كانت تسـدُّ فتحةَ تلكَ الغرفة، أغلقتُ عيني من الضّوءِ الذي انثعَبَ منَ البابِ فجأة، ورأيتُ كمِّيةً كبيرةً من الأسلِحةِ، والمتفجِّرات، والعبوات، والقنابل!

تلـكَ الأنواع التي شـاخت في مخازنِ الدولة، وما اسـتُعملَ منها، ذابَ على أجسادِ الشعب!

سـألَ نور الضابط، هل قمتم بوضع الدفعةِ الأولى في مكانِها! كما خطَّطنا!!

أجابَه بحزم: نعم، وسنبدأُ الآن بباقي الدُّفعات..

حسناً، سنبدأُ الليلة، كونوا على استعداد!

سألتُهُ بفضولٍ شديدٍ: ما الذي ستبدؤونَ به؟

فاكتفى بالابتسام، كأنهُ يقول لي: «ثقْ بي وحسب»!

بالنسبة لشخصٍ مثلي من الصعب أن أثِقَ بأحد، أيُّ شخصٍ يراني يستطيعُ أن يكتشفَ ذلكَ بسهولة، ولكن أحياناً تخونُنا ألسنَتُنا، وتخوننا المواقف التي نوضع فيها، فيتسرَّبُ شيءٌ من دواخِلِنا إلى الخارج!

فيما بعد دُرنا على كلّ الأقسامِ في المسرح، نعم الأقسام!

إنَّهم يعملونَ بتنظيمٍ عالٍ، كأنَّهم أجزاءٌ إلكترونية داخلَ حاسوب، لكل مجموعة دور ولكلّ دورٍ قائدٌ!

لقد أرادَ أن أرى كلَّ الوجوه، وأغتِسلَ بكلّ العيون، وأذوبَ بكلّ الأصوات، أن أقتَرِبَ من أرواحِهم، وألمسَ ضوءَهم، وأسمعَ أحلامَهم تصفِّقُ لهم من قريب، وأعيشَ ثورَتَهم كما يعيشُونَها، كي تنفكَّ عقدة الثِّقة المربوطةُ بإحكامٍ على قلبي من زمن!

فلم أستطع أن أحب، ولا أن أحلم، ولا أن أتمرَّد.

وعلى أحدِ الكراسي القريبة من الخشبة جلسنا كما يجلسُ مخرِجو العمل المسرَحي، تنهَّدَ نور، ونظرَ إلي قائِلاً: ما رأيكَ الآن؟!

سَحَرتني نظرته، وعرقَلَني صوته في منتصفِ الطريقِ إلى الكلمات!

ما الذي ستقوله لإنسانٍ قمعوهُ، وظلموهُ، وقهروهُ، لكنَّهُ صرخَ، وثارَ، وتمرَّد!!

الكلمة الأنسب لِتصفَ هذا الإنسان بها هيَ «عليكَ السَّلام»!

عِندما رأى صمتي وتحديقي به قالَ لي: البطل لا يولدُ بطلاً يا آدم، إنَّهُ يصنعُ بطولَته!

في هذا الزمن من السهل أن تكونَ مجرماً، ومنَ الصعبِ أن تكونَ إنساناً عادياً، والأصعب من كلّ ذلك أن تكونَ بطلاً!

ونحنُ اخترنا أن نحصلَ على دورِ البطولة في هذه الملحمة، إمَّا أن نعيشَ أحراراً، وإما أن نموتَ ثواراً!

لدينا خيارانِ فقط: أن نكون أو أن نكون!

هززتُ رأسي، وقد بدأت تلكَ الجملُ تندَسُّ بينَ تلافيفِ دماغي في أضيقِ الأماكن بحيثُ لن تتمكَّنَ من الخروجِ أبداً، ستُضافُ إلى خلاياي العصبية، وتصبحُ إشارةً كهربائية وتومِضُ في عقلي كلَّما احتجتُ لها!

ولكن ما دوري أنا هنا؟! بطل أيضاً أم كومبارس؟

ضَحِكَ نور على جملَتي، رأيتُ الضَّوءَ الخافِتَ يتقَّطعُ بينَ شفتيهِ وأسنانه، وأنا أنتظرُ إجابَته التي رنَّت في أذني كأذان الأعياد، وأجراس الكريسماس!

أن تكونَ بطلاً أو كومبارساً، هذا خيارُكَ أنتَ!

تركَنــي معلَّقــاً لثانيةٍ ثــمَّ قال: كلُّ الذيــنَ رأيتَهم ســابِقاً، يصنعونَ مجدَهم، وبطولَتهم، فإذا قبلتَ بتلكَ المهمة ستكونُ منهم!

– ما هيَ؟

نظرَ إليَّ مباشــرة، فَصَلَني بنظرَته عن المحيــطِ حولَنا، وأدخَلني فــي فقاعةٍ معزولةٍ عن كل شــيءٍ، بحيثُ توقَّــف الزمن، والصوت، والضَّوء، لم أسمع سوى همسته تلك، ولم أرَ شيئاً يتحرَّكُ سوى شفتيه حينَ قال..

– أنا وأنتَ سنحرّرُ عزيز، قبلَ إعدامه!

توقَّفَ الدمُ في عروقي عن الجرَيان، وسَكَنَ الهواءُ في حويصلاتي الرئوية، وحدَّقتُ في اللاشيء!

الســماء منــذُ رأيتُها للمرَّةِ الأولــى في حياتي ما هــيَ إلَّا انعكاس لداخِلــي، أقنَعونا في الكتب أنَّ الســماء زرقاء اللــون، علمياً هذا غير صحيح، اللون الأزرق هوَ ترجمة الســماء لتشتّت الأشعة القادمة من الشــمس عبرَ الغلافِ الجوِّي، لذلكَ فهيَ تترجم أيضــاً تشتّت المشاعر البشرية، عبرَ عيونِنا، لو ركَّزتَ قليلاً، ستجد أنَّهُ في اليوم الذي تكونُ فيه مكتئباً تكونُ الســماء قد حشــدت كلَّ غيومِها ورمادِها، وفي اليوم الــذي تكونُ فيــهِ رائِقاً، ومنطلِقاً ســتكونُ رغماً عــن توقُّعاتِ الطقس مشرقة، وصافية!

أعتقــد أنَّــهُ من الأفضــل أن يدرِجوا حالاتِنا النفســية في النشــرة الجوية، بدلاً من درجة الحرارة، ومعدل هبوب الرياح!

اليــوم الســماء! بمَ أصِفُها! لا هيَ ملبَّــدة بالغيوم، ولا هيَ صافية، إنَّها تتخذُ حالةً جديدة لم أمرَّ بها قبلاً، إنَّها مموَّجة، لا تســتطيعُ اتخاذَ قرارِها!

تتأرجــحُ بينَ عناد بعــضِ الغيوم، وتمرُّدِ بعــضِ الضوء، فتظهر بالحالَتَينِ معاً، في نفسِ اللحظة! تماماً كقلبي...

نــور قالَ لي أنَّني الوحيد القادر على الوصول لعزيز قبلَ إعدامه، عزيــز أيقونــةُ ثورَتِهــم، وقلَعةُ تمرُّدِهــم، إعدامه ســيدخلُ النَّاس في حالةِ هياج وغضب، ســيصبحُ من السهولة قيادَتهم، وبثّ الإشاعات، وخلخلةُ صفوفهم، لا يوجد أســهل من جماعةٍ غاضبةٍ لتسيطرَ عليها، وتهزَّها، وتفرِّقَها، وتُسقِطَها!

الإنســان عِندما يكــون غاضِباً يكونُ في أضعــفِ حالاته، يتحوَّل إلى آلة قتل أو تكســير أو تدمير، فقدانهم للســيطرة على الشارع يعني فقدان الثورة!

الذينَ يريدونَ إعدامَ عزيز يقصدونَ تخويف الناس، وحملهم على التراجُــع، البعض ســيخاف ويتراجع، ولكنَّ الأغلب ســيهيج، ويغلقُ أذنيهِ، وعقله، وتفكيره!

لهــذا يجب أن يعود عزيز ليقود تلكَ الجماهير، الشــعب هوَ رأسُ المــال الحقيقي للثورة، وليسَ قادَتُها، وعزيز هوَ الوحيد الذي ينســاقُ النَّاسُ خلفه، لأنَّهُ أكثرنا صدقاً..

لقد استطعتُ الوصولَ لعزيز قبلَ ذلك، يمكنني فِعلُها ثانيةً، يمكنني فِعلُها ثانيةً، يمكنني فِعلُها ثانيةً!!

ظللتُ أردِّدُ هذهِ الجملة، لقد فعلتُها قبلَ ذلكَ فلِمَ أشعرُ بالخوف هذهِ المرَّة، هل أنا خائفٌ من مواجهةِ عزيز؟! أم من مواجهةِ نفسي حينَ تقفُ أمام عزيز؟! أم من مواجهةِ ريما حينَ تقفُ بيني وبينه؟!

في الحقيقة، أنا خائفٌ من الثلاثة معاً!!

وضعتُ يدي على جيبي العلوي، وتأكدتُ من وجود المسدَّس!

أغلقتُ الهاتف، وتجاهلتُ المكالَمات الفائِتة المتراكمة على الشَّاشة!

شربتُ بعضَ الماء، وأدخلتُ بعضَ الهواءِ عنوةً إلى صدري، وحبسته، قُبيلَ وصولي إلى المكان!

دخلتُ عبرَ السُّور، كما سابِقاً! حيَّاني الضابط المسؤول، ولم يطلب بطاقَتي هذهِ المرَّة!

استحضرتُ وجهَ آدم الغاضب، الهائج، ودخلتُ على الضَّابِط، هل لايزال خائِفاً مني بسبب إخراجي لقيس رغماً عنه!

أتمنى ذلك من كلّ قلبي!

حيَّاني، وطلبَ منِّي الجلوس، وأرسلَ في طلب كوبٍ منَ الشَّاي... لم أردَّ التحيَّة، ولم أجلس، ورفضتُ طلبيةَ الشَّاي، أريدُ أن أوصلَ لهُ إشاراتي العدائية بشكلٍ واضحٍ!

قلتُ بجفافٍ: أرسلْ في طلبِ ذلكَ المجرم، واخرج من المكتب بسرعة!!

زحـفَ الـدَّمُ إلـى وجنَتيـهِ، نتيجةَ الإحـراج الـذي وضعتُه فيه، وأحسست ذلكَ حينَ خرجَ مُسرِعاً، وصفقَ الباب بشيءٍ من القوَّة....

ظللتُ واقِفاً، حتَّى جاؤوا به، وعِندما خرجوا، أغلقتُ البابَ بالمفتاح جيداً، ثمَ تحركتُ بسرعة تجاه طاولة المدير، وبدأتُ أتفحَّصُها بحذر، وعزيز رافعٌ رأسَهُ بصمت، وهدوء!

مـررتُ يدي علـى كلّ الزَّوايا، حتَّى عثرتُ عليـه، قمتُ بنزعه، ورفعتـهُ في وجه عزيز وقلتُ له: أرأيت، هذا جهازُ تسـجيل حديث، بهذهِ الطريقة اسـتطاعوا إيجـادي في المرآب المرَّةَ السـابِقة، فتحتُ النافـذة، ورميتـهُ بقوَّة حتَّى شـعرتُ بطقطقةِ مفصـلِ كتفي، ذراعي الثانية لم تكن قد شفيت تماماً أيضاً! ثمَّ وقفتُ أمامَ عزيز!

حدَّقنا ببعضنا لدقائق.

أنا آسـف يا نور، لقد سـيطرت عليَّ ريما، لا أستطيعُ إلَّا أن أفكِّرَ في أنَّه الشخص الذي أحبَّتهُ، ولم تستطع أن تعيشَ لتحبَّ سواه!

لقـد أحبَّته ولم تحبَّنـي! أحياناً الأقدار لحكمَتِهـا لا تمنَحُنا أحلامَنا الصغيرة، لنحقق أحـلامَ غيرِنا الكبيرة، لو لم تَمُت ريما ربَّما لهربتْ مـع عزيز إلى خارج البلاد، وربَّمـا عرَّفتني والدَتي إلى نور في يومِ ميلادي، وربَّما لم يصبح ثائراً، ولم تحدث ثورة!

ربَّما كنتُ الآن أشـربُ قدحاً مـن القهوة في المكتب بعدَ يومِ عملٍ ليسَ شـاقّاً، ولكن! الأقدار تقـودُ خطواتِنا القريبة إلى وجهةٍ لم نخطط يوماً للوصولِ إليها!

يبدو أنَّكَ عرفت بما حصل!

قطعَ صوتهُ خلوَتي مع نفسي، فابتَسمت، وأجبت!

هلّا كنتَ محدداً قليلاً، عن أيّ شيء بالتحديد تسأل؟!

ابتسمَ أيضاً وقالَ لي: هل تسألني أم تُخبرني؟ ولكن يبدو أنَّكَ عرفتَ كلَّ شيء!

رددتُ عليهِ بدهاء: كلّ شيء ما عدا هويةَ القاتل!

– وهل ستحتاجُ وقتاً طويلاً لتعرِفَها!!

شعرتُ برغبةٍ في إرباكه: ما الحاجة لوجود القاتل وقد اعترفتَ بالجريمة وستُعاقب عليها!

– حقاً! هل هذا السبب الحقيقي؟

أخفضتُ رأسي وقلت: لا، لقد فقدتُ الرغبة فقط! لماذا اعترفتَ بكلّ تلكَ الجرائم التي لم ترتكبها؟

صمتَ لبُرهة، إنَّهُ مخلوقٌ حزين يحاوِلُ أن يداري أوجاعه، أجابَني: لترفعوا أيديكم، عن رفاقي وعائلتي، وعن الأبرياء، لقد فعلتُ كلَّ ما أستطيع لتسمعوا صوتنا، ولكن دونَ جدوى!

ثمَّ رفعَ رأسهُ وقال لي: كيفَ هوَ نور؟ هل اعتقلوه!

أرخيتُ جسدي، وقلتُ له: لقد جئتُكَ بهديةٍ منه!

ما هيَ؟

حسناً، نور يسلِّم عليك، ويهديكَ هذهِ..

استجمعتُ كلَّ قوَّتي في قبضَتي، ولكمتهُ في وجهه، فارتدَّ إلى الوراء، وسقطَ على الأرض، وضعَ كمَّهُ على أنفه ومسحَ دمه الراعِفَ منه، أعطيتهُ كيساً ورقيّاً مطويّاً، ضغطَ عليه بقوَّة، وحشَرهُ في ثيابهِ الدَّاخلية بسرعة، وتابعَ مسحَ دمائِه بكمِّه!

دخلَ الضابطُ وبعضُ الجنودِ معهُ فَزِعين، من صوتِ السقطةِ القويَّة، كنتُ وقتَها أَشْتُمُ عزيز، وأصرخُ فيهِ: سوفَ أطفئُ أعقابَ السجائر، بجثَّتِكَ عِندما يعلِّقونكَ أيُّها الوغد، فلا تتأخر عن موعدِ إعدامِك! هل فَهمت؟

أسند جسدهُ على يديهِ ووقفَ بصعوبة، وأنا استدرتُ وخرجتُ غاضِباً!!

بعدما اجتزتُ البوَّابة، تنفَّستُ الصُّعداء، أردتُ أن أصرخَ عالياً، لكنَّ سيَّارةً سوداء توقَّفت أمامي، نَزَلَ منها بعضَ رجالِ المخابرات، وعرَضوا عليَّ إيصالي إلى مبنى المخابرات للضرورة القصوى، بطلبٍ من رامي!!

شعرتُ بالشَّك، ولكنَّني نفذتُ طلَبَهم، وصعدتُ معهم، ذاهِباً إلى مكان عمَلي!

لم أَزر المكتب منذُ حادِثةِ الحريق، لقد أعطاني رامي إجازةً مفتوحةً، أستعيدُ بها توازني، وأرتِّبُ أموري بعدَ كلّ ما حدث، ولكنَّه ظلَّ يطمئنُّ عليَّ من وقتٍ لآخر، ربَّما في الفترةِ الأخيرة لم أنتبه لعدد

المكالمات الفائتة الواردة للهاتف بغض النظر عن جهة الاتصال!!

المكتب المحترق تمَّ إغلاقه، غرفتي وغرفة السكرتير، وفي الممر المجاورِ له أعطيَ القسم مكتباً مؤقتاً، حتى يهدأ الوضع، ويتفرَّغوا لترميم آثار الانفجارات، والحريق!

دلَّني الضابط الذي التصقَ بي منذُ بوَّابةِ السجن المركزي، إلى مكتب رامي بذوقٍ بالغ متكلّف، لم أستطع أن أفسّره، سوى بمزيدٍ من القلقِ والشك، فتحتُ الباب، وولجتُ إلى الغرفة، رامي كانَ واقفاً يطالِعُ الشمسَ في نزعِها الأخير، ويطلقُ تعويذاته الدخانية من بينِ شفتيه، كأنَّهُ مشعوذٌ قديمٌ!

أشارَ لي بالجلوس، ولم يكن الضُّوءُ بذلكَ المزاج الجيد لينعَكِسَ على ملامِحه، فتبدو هادِئة، وثابتة، ومسيطرة على كلّ شيء كالعادة!

بدا لي مشوّشاً، غامضاً، صوته كانَ معكَّراً، ونفسيَّته لم تكن سهلةَ القراءة!

عرض عليَّ سيجارة، قَبِلتُها! وبينما هوَ يُشعِلُها لي بطرفِ سيجارته سألته: كيفَ عرفتَ أنني عدتُ للتدخين!

ضحك، وقال: عيب! أنا ضابطُ مخابرات!!

نعم كلامُه صحيح، في الحقيقة إنَّها معلومة تافهة، أتمنَّى ألا يكونَ قدَ عرفَ كلَّ ما حدثَ معي في الفترةِ السابقة، ضجَّت الغرفةُ بالضباب، وتداخلت رائِحةُ الدخان برائِحة الشَّك، خلالَ فترةِ صمتٍ ليست بالهادِئة!

اختتمهــا بــأن نظَرَ إليَّ كمن ينظرُ في مجهرٍ ليرى شــيئاً دقيقاً، ثمَّ سألَني: كيفَ أنتَ الآن؟ أفضل!

نعم، بكثير! سأعود قريباً للمكتب!

قلتُها، بصوتٍ ليسَ مرتاحاً تماماً...

هزَّ رأســه، بتمعُّن، وقال: لا داعي للعــودة للمكتب، أريدُ أن أمدِّدَ إجازتك!

شــعرتُ بقشــعريرةٍ لاذعةٍ، الجوُّ كانَ بارِداً، وأنا كنتُ عارياً من ثباتي! تظاهرتُ بالحزم، وقلتُ له:

– تمدِّدُها، ما السبب؟!

ســحبَ نفســاً طويلاً، أنهى بهِ مهمَّةَ تخريبِ جهازهِ التنفُّســي لهذا اليــوم، وألقى ببقيَّتِها على الأرض، ســحقَها بطــرفِ جزمته، ثمَّ قال: يُمكنُــكَ أن تعتَبرَهــا، إجازة إجبارية! حتَّى يتأكَّدَ الرؤســاء من صحة المعلومات التي وردتهم عنك؟!

تملَّكني ارتعاشٌ غريبٌ، تهدَّجَ وجهي، وتحشرجَ صوتي، ووقفتُ كأني تعرَّضتُ للسعةٍ مفاجئةٍ.

– أيَّةُ معلومات؟ ما الذي تتحدَّثُ عنه؟!

مــدَّ إليَّ ملفاً أصفر، كملفِّ عزيز في يومي الأوَّل، فتحتهُ فوَجدتُ صــوراً لي، صوراً من كلِّ الجهات، وبكلِّ الزوايا، بحرَفيَّةٍ عالية، لا يمكن أن تكون مفبركة! إنَّها صوري ذلكَ اليوم في المظاهرة!!

شــعرتُ براحــةٍ كبيرةٍ عِندمــا لم أجد ســوى هذهِ الصــور، هَبطَ صــدري، وعادَت عظــامُ قفصي الصدري إلى مســافاتِها الصحيحة، ضحكت بسذاجة، وقلتُ له: هذهِ... هذهِ الصور، إنَّها لا شيء!

لقد كنتُ ذاهباً إلى مكان، ورأيتُهم في الطريق فســرتُ معهم بدافع الفضول! صدِّقني، لم أهتف ولم أصرخ، ولم أفعل شيئاً من هذا القبيل!

كنــتُ صادِقاً في كلّ كلمة، ولكني شــعرتُ بالغباء لكوني أبرِّرُ له بِجهد، ما لا يعتبرُ جرماً أو عيباً!!

قالَ لَي بشــفقة: أنا أصدِّقك، وأعلم ذلك، ولكن وصلتهم معلومات، أنَّــك تتواصل مــع أحد قادة الفوضى! حتَّى لــو كانَ بدافع الفضول لا تفعل ذلكَ يا آدم، لأنَّ أقلَّ عقابٍ لَهم سيكون المشنقة!

حاولــتُ اختلاقَ الأعــذارِ لك، ولكنَّهم يشــعرونَ بالخطر، من أيِّ شخص، أنتَ تعلم!!

ابتلَعــتُ ريقــي، لأنَّ حنجَرَتي جفَّــت فجأةً! قلتُ لــه: لا تقلق، أنا ضابطٌ مثالي! أنتَ تعلمُ ذلك، ثمَّ إنَّني أقتربُ من حلّ القضيَّة، لقد بقيَت شعرةٌ واحدةٌ فحسب!

ـ أفلِتها! قالَ لي برجاء!

ـ ماذا؟ استفسرتُ منهُ مستغرباً، فقالَ بصوتٍ أعلى، وأكثرَ بطئاً!

أفلِتهــا، قلــتُ لكَ من البدايــة لا تلاحق ما وراء هــذهِ القضية، فلم تسمعني!

الآن عليكَ أن تعودَ لبيتِكَ وتمكُثَ فيهِ حتَّى انتهاءِ إعدام عزيز...

لمَ اختار هذا المحك بالذات؟ لقدَ وضَعني في شبَكةِ صيدٍ كبيرة، لا يُمكنني الخروجُ منها! أخافُ أنَّهُ يعرفُ شيئاً!

سألته: ولكن المكتب، والحكومة! والمظاهرات!

أجابَ بامتعاض: لا شأنَ لكَ بشيءٍ من الآن فصاعِداً! حتَّى أستطيعَ أن أثبِتَ لهم أن لا علاقة لكَ بعزيز وجماعته، ستُحتجزُ في بيتك! تحتَ الحراسة، وكن حذراً، لأنَّ جميع الهواتف السلكية والمحمولة ستكون مراقبة، وجميع من في البيت، حتَّى إشعارٍ آخر.

قالَ الجملة الأخيرة، بصوتٍ هامسٍ!

هَبطَت عليَّ غيمةٌ ثقيلةٌ من السماء، فاختنقتُ، وشعرتُ بالدُّوار، والصدمة!

أنا آدم الحافي، الضابط المسؤول عن الشعبة الخاصة في المخابرات سيتم احتجازي، ومراقَبَتي؟ ما الذي يجري!!

شعرتُ بالنَّارِ تلسعُ إصبعيَّ متأخراً، فقد نسيتُ تلكَ اللفَّافةَ الملعونة في يدي، وأنا أبحثُ عن كرامَتي، ومكانتي، وهيبَتي، على أرضيَّةِ المكتب الجديد!

معارَضَتكَ الآن ستزيدُ أسئِلتهم وتؤكِّدُ شكَّهم، ستدخلُ في متاهةٍ مخابراتيةٍ، أنت في غنىً عَنها!

علَّقَ ناصِحاً، بعد أن رأى هذيانَ ملامحي..

وامتثالـــي لأوامره، يعني ضعفي، واستســلامي، وتــركَ عزيز، ونور! في ذلك المأزق، وفشلَ الثورة!

هذا ما يريدونه من قتلِ عزيز، يريدون إضعاف الثورة وإفشالَها!!

اقتل رأسهم، سيثورون، ويقومونَ بأعمالٍ غاضبة تعطيكَ تأشيرةً من الدرجة الأولى، لقتلِهم بأبشعِ الطرق!

قلتُ في نفسي!

سأرسلُ الآنَ سيَّارةً جديدةً، بسائِقٍ خاصٍّ، ومجموعة من الحرس تمَّ تعيينُهم ليرافِقوك، وقد أعطيت لهم الأوامر بإطلاق النارِ عليكَ، في حالة محاولَتكَ الهرب!

وقفتُ مترنِّحاً، مشدوهاً، مـررتُ يدي على حَنجَرَتي، لشــدَّةِ ما تعسَّــرَ عليَّ ابتلاعُ الهواء، سرتُ بطيئاً إلى الباب وقبلَ خروجي قالَ لي كمن يستدرِكُ تفصيلاً تافِهاً:

صـحيـح لقد عُمِّمَ اســمُكَ وصورَتُكَ على الأقســامِ الأمنية، في كلّ مطــارات البلاد! وأوقفَ جوازُ سَـفَرِك، في حال قررتَ السـفر إلى الخارج!

كن مطيعاً، حتَّى أصلَ لحلٍّ معهم!!

صدِّقني يا آدم، أنا أحاول حمايَتك، وتبييض صورَتك، أمامَ رجالِ الحكومة!

إنَّها الجملة النهائية التي يضَعُها مهندِســو الـكلام كديكورٍ تجمليٍّ مزيَّفٍ، على حائطٍ قَذِرٍ!

ظللتُ أسـيرُ بجانِبِ الحائِط، وأسندُ جسدَي بثقلٍ، وأضـعُ يدي على رأســي، محاولاً إسكاتَ مطرَقةِ الصداع، التي تطرُقهُ جمجمَتي بقوَّة، وضجَّة، فتصدِرُ صدىً بعيداً وعالياً وصاخِباً!

أمــامَ المبنى الذي دخلتُه يوماً ضابِطاً عظيماً وقفتُ معطياً ظهري للبــابِ الزجاجــي، وأمامي الســائِقُ الخــاص يفتحُ لي البــاب الخلفي للسيارة! والحرَّاسُ الثلاثة من حوله...

سرتُ إليها، وفكَّرتُ بلوعة!

ما الذي ستفعَلُهُ يا آدم، من أينَ ستدخُل، وكيفَ ستخرج؟!

* * *

[21]
لولا فُسحةُ الأملِ!

لقد عشــتُ حياتي شــخصاً شــريفاً، مطيعاً، مخلِصاً لبيتي وعملي وأهلي، لم أسرق شيئاً كما يسرق غيري، ولم أخالف قانوناً كالآخرين، ولم ألمس رشــوةً بيدي مثلَهُم، لقد بذلتُ جهدي لأكونَ مواطناً صالِحاً مثالِياً، وهكذا يكونُ عقابي في النهاية!

أحبسُ في بيتي! وأراقبُ بينَ أهلي!

اكتشــفتُ متأخّراً جداً، أنَّهُ لا يُمكنُكَ تحقيقُ شــيءٍ مهمّ في العالم، لمجرّد كونِكَ شــخصاً مهذَّباً في مجتمَعك، وطالِباً ناجِحاً في دراسَتك، وموظفاً مثالياً في عملِك!

لا يُمكِنُكَ فعلُ ذلك بأن تعلّقَ كلَّ أحلامكَ على شمّاعةِ الأمل!

إنَّك تتبِعُ نظامَ العناصرِ الممثلة في الجدول الدوري، أنتَ تفعل ما

هوَ مطلوب منك، وما هوَ متوقَّع، وما هوَ صحيح!

أنــتَ تولــد وتكبر وتموت بالمســار الذي حدَّدوهُ لكَ قبــلَ ولادتِكَ وحسب!

لا يُمكنُــكَ تغييرُ شــيءٍ في العالــم، إلَّا أذا أزعجتَ أحــداً، إلَّا إذا خرَّبتَ شــيئاً، إلَّا إذا أقلقتَ نومهم، إلَّا إذا فعلتَ شــيئاً خاطئاً! وشــاذّاً عن القاعدة! إلَّا إذا دخلتَ في تفاعلٍ لم يحدث مسبقاً، ولم يتوقَّعهُ أحد!

فقط إذا أصبحتَ شخصاً جديداً غيرَ الذي برمجوه، يُمكنُكَ إحداثُ تغيير حقيقي!

إذا فعلتَ شيئاً أكثرَ من الأكلِ والنومِ، والأحلامِ والأملِ! والوقوف أمامَ بابِ بيتك كجثَّةٍ أجيدَ تحنيطُها، وتحريكُها.... هذا ما كنتُ أفعله!!

وضعتُ إصبعي على جرس البيت، ونسيتُ أن أرفعه، لم أنسَ أنَّ المفتاح في جيبي، ولكنَّني لم أرغب بفتح سجني بنفسي!!

لــم تمــرَّ تلكَ اللحظــاتُ الطويلة التــي أردتُها أن تمــرَّ وأنا أنتظرُ خارجاً، فتحــت فاتن الباب، واحتضنَتني بعنــف، طوَّقتني بذراعيها، ودَفنت رأســها في صدري، شــعرتُ بتَنَّهداتِ بكائِها تبثُّ زخاتٍ من الهواءِ الســاخن في ثيابي، وأحسستُ بدموعِها تتسرَّبُ إلى غَيبوبَتي، وسرَحاني!

لقد غبتُ عَنها فترةً طويلةً حقاً!

هل اشتقتُ إليها؟!

لا أعرف! أعتقد أنَّني نسيتُ كيفَ أحبّ، وكيفَ أشتاق!

لقدَ كانَ جسدي بينَ ذراعي فاتن، ولكنَّ روحي تبحثُ عن حضنِ امرأةٍ أخرى، لم تكن لتحتَضِنني يوماً!

فاتِن هيَ السراب الجميل! وريما هيَ الحقيقةُ الموجعةُ!

فأيُّهما يختارُ التائه في صحراءِ نفسه!!

قضيتُ أيَّامي، أتابعُ التلفاز، أبتلِعُ براميل من الكافيين، وأضخُّ مزيداً من النيكوتين إلى رئتيَّ!! وأتجاهلُ جدالات فاتِن، وعتابَها!! حتَّى بدأت تصمت، وتتكيَّفُ مع هذا الكائن الجديد الذي ينامُ في فراشِها، ويشربُ قهوَتها، ويلبسُ ثيابَ زوجِها، ولا يَعرِفُها!!

كنتُ أفكِّرُ في نور، وعزيز، وريما، وأنا، وأمِّي، وكلَّ أولئكَ النَّاس الذينَ في الشَّوارع، وتلكَ المعركة التي تتأهبُ بينَ الشعب والحكومة!

ضغطّتُ بقوَّة على أسناني، وشعرتُ بالدماء تتصاعدُ إلى رأسي في حركة تشبه حركة الجماهير التي تحتشد في الميادين، في البداية لم أكن مقتَنِعاً تماماً بمساعدةِ نور، كنتُ وقتَها حرّاً أملكُ قراري!

الآن أنا أريدُ ذلكَ، أريدُ أن أكونَ معهُ في ذلكَ اليوم، كما وعدته، لكنَّني محبوس، كلَّما أمسكتُ بالهاتف، رميتُ بنظَري إلى الخارج، فوجدتُ الحرَّاس يتحرَّكونَ في الحديقة، في دوائِرَ متبادِلةٍ منتظمةٍ! فأحشره بينَ يديَّ حتَّى أوشكُ على تكسيره!

أشـعر أنَّ النوافـذ تدخلُ الكميةَ المسـموحةَ من الضـوء، والكميةَ الموصـى عليها من الهواء، والحد الأدنى لعـدد نقاط الحياة، كما في الألعاب!

بالرغم من أنَّ الفيلا بمساحة متنزَّهٍ عام، إلَّا أنَّها تبدو ضيقة ككوخ، الحبس شـعور داخلي، وحالة نفسية متى ما سيطرت عليك، لن يتسعَ لكَ محيط، ولن يرَّوحَ عنكَ بسـتان، سـتضيقُ عليكَ كلُّ الأماكن مهما كانت رحبة، وستختنِقُ بالهواءِ حتى لو كانَ نقياً!

إذا سُلِبت منكَ حريَّتك، فلن تستمتِعَ بأيّ شيءٍ أبداً!!

مجرَّد فكرة وضع حدود لخروج الإنسـان وحركته، يعني تقييده، يعنـي إزعاجـه، يعني قتله مـن الدَّاخل، والذي يموتُ مـن الدَّاخل لا شيءَ يحييه!

كلّ يومٍ يمرُّ أبطأ من سـابِقه، تقلُّ شـهيّتي للطعام، وتزيدُ شهوَتي لتلكَ الممرضاتِ، وترتفِعُ في أورِدَتي عدد كريات الدم السود!!

الصـداع أصبحَ متمـرداً لتلكَ الدرجـة التي لم يعد ينصـاعُ فيها للمسكِّنات.

لقد قمتُ بتحطيم كلّ الزجاجيات التي وُضعت حولي على الطاولة، والسرير، وفقدتُ القدرة على النَّوم، وعلى الاستيقاظ، إنَّني أقفُ على طرف جرفِ الهلوسة!!

فاتن كانت تذوي أيضاً، تنظرُ إليَّ وتنحل كعودٍ أخضر يزحفُ إليهِ التَّصحُر، أشعرُ بالقلقِ عليها، ولكنِّي أشعرُ أكثر، بالقَلَقِ على نفسي!

في صباحٍ ما، كنتُ جالِســاً وحدي على حافَّةِ وعيي، والسريرُ من تحتــي يصدرُ صريــراً مؤذياً كلَّما هززتُ رجلي بغيــظ! بدأتُ أقضِمُ أَظَافِري، وأتنفَّسُ بســرعةٍ كبيرةٍ، وفجــأة رنَّ الهاتف، انتفَضَ قلبي! قفزَ من القفصِ الصدري للحظة، ثمَّ عادَ إليهِ مرتَعِشاً!

نظرتُ إلى الهاتف، أمسكتُ بهِ، ورفعته بخوف وأنا أتلفَّتُ حولي!

تأكَّــدتُ مــن الرقم! إنَّه هــو!! هل أردُّ عليه؟ لا، لا أســتطيع! هل أرد.... لا أرد!!

أوشكتُ الضغطَ على زرّ الإجابة، لكنَّه سكتَ بعدَما بُحَّ صوتُه!

كتمتُ أنفاســي غيظاً، أنا بحاجة للحديث مع أيّ إنسان خارِجَ هذهِ الأسوار، مع أيّ إنسان يقولُ لي أنَّ لونَ العشب أخضر، ولونَ الضوء أبيض، يقولُ لي أنَّ الســيارات تسـير، والمحالّ تبيعُ، أيَّ شــيء من تفاصيل الحياة التافِهة، عِندما يُحبسُ الإنسان تصبحُ الأشياءُ الاعتيادية خارجَ حبسه، أمراً مميزاً يستحقُّ الاحتفال!

أبسطُ الأشياء تصبحُ مصدراً للمتعة، وشيئاً مهماً كالعيد!

كــم أحتاجُ لتلكَ الأشــياء البســيطة، التــي لم أكن أعــرفُ قيمَتَها! احتضنــتُ الهاتِف بكلتا يدي وقرَّبتُــه إلى قلبي، وبدأتُ أردد: رنَّ أيُّها الهاتف، رنّ! أرجوك!!

قُلتُهــا مــن كلّ قلبي عدة مرَّات، حتَّى شــعرتُ باهتزازتهِ الأولى، سمعتُ رنَّتهُ مرتين، ثمَّ أجبتُه!

– مرحباً!

كم اشتقتُ لهذا الصوتِ المزعجِ، الذي لا أعرفُ صاحِبه!

– أهلاً يا صديقي!

– أهلاً يا آدم، كيفَ أنت!

تنهَّدتُ بعمق...

– ألا تعلمُ بحالي؟!

تنهَّدَ هوَ الآخر وصلتني تنهيدَتُه، حارَّة، ثقيلة..

– بلى! أنتَ محبوسٌ في بيتك! عليكَ الخروج بسرعة!

آه، ما أصعبَ هذهِ الجملة يا صديقي، يا ليتَني أستطيع، البيت مراقب، ووو..... لقد تذكَّرتُ أيضاً!

شهقتُ فجأةً على الهاتف..

قال لي: لا بأس، لن يستَمِعوا لمحادَثَتِنا، إنَّها غير مهمَّة على أيَّةِ حال، حتَّى أنت لا تعلمُ من أنا!

هذا صحيح، من أنتَ؟

استدرَكتُ مسرِعاً، لكنَّه قالَ لي على عجالة: سأغلق الآن، لا تقلق سأحدِّثُكَ لاحقاً! وانقطعَ الصوتُ، وانخلعت روحي معه!!

تلكَ اللَّحظة، دخلت فاتِن مفزوعة، سَحبَتني من ذراعي، وقالت لي: أسرع! مصيبة يا آدم!

على التلفاز كانت تُبَثُّ رسالةٌ مسجَّلةٌ، تطلبُ من الحكومة، إخلاء مبنى الإذاعة والتلفزيون الوطني، ودار القضاء، ووزارة الداخلية، في غضون ساعَتين، لأنَّه سيتم تفجيرَها!!

أي محاولة لتحريك أو فكّ المتفجِّرات تعني تفجيرَها حالاً!

وفي أسفلِ الشاشة، ظهرَ مؤقتٌ صغيرٌ، يبدأُ عداً تنازُلياً من 120 دقيقة!

قلَّبتُ القنوات، فلم أجد أيَّ قناة!

لقد تمَّ قرصنة جميع الأجهزة المحمولة، والإلكترونية، من قبل الثوَّار، وحمِّلَ عليها هذا التسجيل، بحيثُ يعادُ بثُّه آلياً.

التهديد بدأ الساعة التاسعة، هاتَفتُ رامي، أجابَني بسرعة!

سألتُهُ هل الأمر حقيقي؟!

قالَ لي مرتَبِكاً، وحروفه متقطِّعة: نعم، الأمر حقيقي! إيَّاك والخروج من بيتك!

إنَّهُ الخوف الذي زرعتموهُ في قلوب النَّاس، إنَّها الحقيقة التي تخافونَ مواجَهتَها، إنَّهم يفعَلونَ شيئاً مختَلِفاً، عظيماً، كبيراً، إنَّهم يغيِّرون العالم، تمنيتُ فعلاً أن أكونَ معهم في ذلكَ المسرح الذي يديرُ هذا التغيير الكوني العظيم!

ظللتُ متحنِّطاً أمامَ التلفاز تذكَّرتُ غرفةَ المتفجِّراتِ تلك، وبدأتُ أعدُّ مع المؤقت، وفاتن تبكي بجانِبي!!

وأنا أحسبُ الوقت، وكانَت هناكَ لمعةٌ خافِتةٌ في عينيّ، استطعتُ أن أرى انعكاسَها على خَشَبِ الطاولةِ المصقول.

عِندما اقتربَ المؤقت من آخرِ خمس دقائق، صمتَ كلُّ شيءٍ حولَنا، تجمَّدَت كلُّ الأنظمة الحيوية، وتوقَّفت كلُّ العناصِر الطبيعية عن أداءِ عَملِها، ما عدا ذلكَ المؤقِّت، ظللتُ معتَقِداً أنَّها لفتة تخويفية، ولكنْ تلكَ اللحظة، تغيَّر البث في التلفاز، وأصبحت الشاشة مقسَّمة إلى ثلاثة أقسام في كلّ منها، صورة المبنى المستهدف، المباني أخذت نَفَسَها قبلَ الأخير، والعدَّاد بدأ يعصرُ ثوانيهِ النهائية، توقَّفت فاتِن عن البكاء، وأنا وقفت، ووضعتُ يدي على فمي، وقلت: ثلاثة... اثنان.... واحد!!

وارتجَّ كلُّ شيءٍ حولَنا!! ودوَّى صوتُ العدالة والحرية والأمن في كلّ الزوايا، خرجَ صارِخاً من كلّ الجدران، وسقطَ مغشيّاً عليه على ضريح المباني الثلاثة التي تهاوَت، كبرجٍ من ورقِ اللعب! تشظَّت أشلاؤهُ في كلِّ الميادين...

عبارة «العدل أساس الملك» التي نُحِتت برخامٍ أبيض مزخرف على مقدِّمةِ دار القضاء، كانَت العبارةَ الأولى التي تطايرت معَ الحجارةِ المتكسِّرة!

مبنى الإذاعة والتلفزيون الوطني، تداعى كقطعةِ بسكويتٍ منتهي الصلاحية نوافِذهُ اللامعة، تحوَّلت إلى أجزاءَ متوهِّجة في السماء!

أمَّا مبنى وزارة الداخلية، ذاكَ الذي عاشَ وماتَ فيهِ والدي، ظلَّ عنيداً لثوانٍ، ثمَّ تحوَّل إلى أطلالٍ حجريةٍ!

بعدها بساعة تقريباً، خرجَ نائب الرئيس على إحدى الشَّاشات،

أعلــن في بيانٍ مُقتضبٍ، بوجهٍ مكفهرّ أنَّ الرئيس يقدِّمُ اســتقالته، قالَ تلكَ الكلمات وتوارى وراءَ وجهٍ منقوعٍ بالخيبةِ!

الرئيس يا صديقي مستقيلٌ من زمنٍ بعيدٍ، ولكنَّه أجَّلَ بيانَ استقالتهِ وحسب! ربَّما هوَ الآن في قصرٍ يطلُّ على برج إيفل، يستمعُ فيهِ إلى بيانِ استقالته، ويحاولُ أن يتقبَّلَ هزيمته المتأخرة، بروحٍ رياضيةٍ!!

تلكَ الشاشـــة بدأت تبثُّ لنا صوراً من الشوَّارع حيثُ خرجَ النَّاس مهللين، صارخين، ســمعتُ صوتَهم من نافِذتي، وفي تلكَ السَّاحة بدأ المعتَصِمون يكسِّرونَ تمثال الرئيس الحجري، المطلي بقشرةٍ ذهبيةٍ!!

اقترب رجلٌ مسنٌّ من الشاشة، مسحَ على رأسه وقال: لقد هَرمنا، ونحنُ ننتظر هذهِ اللحظة!

وخرجَ آخر راكضاً في أحد الشَّــوارعِ الخاليــة، وهوَ يلوِّح بالعلم ويقــول: لقد أصبحنـــا أحراراً! نحنُ أحــرار! كانَ يركض ويطير في نفس اللَّحظة، كانَ غائِباً عن الوعي، وفي قمَّةِ وعيهِ في ذات اللحظة، كانَ يبكي ويضحكُ في نفس الوقت!

إنَّها اللحظات التي لا يُمكنُ اختصارُها، ولا تلخيصُها، ولا قياسُها بأدقِّ الموازين، والأجهزة!!

انخرطــت فاتِــن في موجــةٍ صادمةٍ مــن البــكاءِ، والنحيب على صدري، وأنا وقفتُ صامِتاً، خاشِعاً، أسبِّحُ في طهارةِ هذهِ الأصوات!

لقد بدأت تســقطُ الأصنام، بدأَ اللَّيلُ يتقشَّــر وتبدو من تحتهِ بشــرةُ النهارِ الناصِعة!!

أخذتُ فاتِن إلى فراشِــها، ظلَّت تتنهنه وتهلوس طوال الليل، على مبنى الإذاعة والتلفزيون الذي شيَّدتهُ منَ الصفر بالتعاون مع أصدقائِها في كليةِ الإعلام، لقد كانت مديرة محطة التلفزيون يومَ قابَلتني، جاءت إلى ذلــكَ الاحتفال بصفَتِها الاعتبارية «الخمس نجوم!»، المقرَّبة من الحكومــة، بعــدَ زواجِنا توقَّفت عــن الذَّهاب بشــكل يومي، أصبحت مشــرفة عامة، تذهب إلى هناك في زيارات تفقُّدية، وحســب، وتتابع سيرَ البرامج، والتوجُّهات، كما شكَّلتَها في بدايَاتِها الإعلامية الشَّابة!

لم تعلم أنَّ المبنى الجديد الذي افتتحتهُ قبلَ أقلّ من عام، ســيتحول إلى هطلٍ من المياهِ المالحة على وسادَتِها!

حيــنَ هدأت فاتن، رنَّ ذلك الهاتــف! حملتُه، وخرجتُ من الغرفة متسلِّلاً، وأنا أشعر بالكثير من الذنب، على هذهِ الفرحة المبطَّنة، التي تملؤني منذُ رأيتُ تلكَ التفجيرات!

تنفَّستُ بحماس، وأجبتُ المكالمة!!

– آدم!

– ألن تقولَ لي من أنت؟!

– ستعرفُ في النهاية... لوحدِك!

– حسناً، قل لي ماذا أفعل؟

– عليكَ أن تخرجَ من بيتِك! يجب أن تكونَ موجوداً ذلك اليوم!

تذمَّرتُ من كلماته، قلتُ له بصوتٍ مُعاتبٍ: تعلمُ أنَّني لا أســتطيعُ الخروج! سيطلِقون النار عليّ!

تأفَّفَ منـي كمن يتأفَّفُ من طفلٍ مدللٍ: عليكَ أن تجدَ طريقةً ما، وأنا سأفكِّرُ معك! ما رأيكَ أن......

شعرتُ بشيءٍ يتحرَّكُ خلفي، أحسستُ بعيونٍ تراقِبُني، فانفصلتُ عن الصَّوت، وأغلقتُ الهاتفَ بسرعة، تلفَّتُ خلفي فلم أجد أحداً، أسرعتُ إلى غرفةِ النوم فوجدتُ فاتن كما تركتُها، ما الذي أحسستُ به إذاً!

عدتُ إلى فراشي بهدوء، ودسستُ الهاتف تحتَ وسادَتي، وتأمَّلتُ لمعانَ دموعِ فاتِن المعلَّقة في أعلى رموشِها، تقاومُ الظلام بعناد!

ما الذي ستفعَلُهُ يا آدم؟ فكِّر! الموعِد يقتَرِب!!

في اليومِ التالي لم أقَم من فراشي، أشعرُ بالعجزِ أكثرَ من ذي قبل، من الصعب جداً أن تملكَ أجنحةً، وسماءً واسعةً، وتكونَ محبوساً!

أريدُ أن أخرجَ من هُنا، أتمنى لو أنَّني قادرٌ على الاتصال بنور، بالتأكيد لديهِ طريقة لإخراجي، ولكن مكالمة واحدة، وسيتم تحديد مكانه، آآه!

بدأتُ بالضغطِ على رأسي، أريدُ الخروجَ منِّي بشدَّة، أشعرُ أنَّني محبوس في هذا الجسد، أشعر بالعجز والضعف، وعندما تتسرَّب إليَّ هذهِ المشاعر تأخذُ وقتاً طويلاً للخروج من جسدي، تماماً كتلك الأدوية التي تعلَقُ في خلاياكَ، ومهما طالت السنوات، تظلُّ أجزاءٌ صغيرة منها في جسدك، ولا يمكن إزالَتُها تماماً!

فاتن بعكسي، إنَّها شخصٌ مَرِن، قابِل للكسر والإصلاح بسهولة،

لقـد انطلقت منذُ الصباح بجولة تفقُّدية للمبنى والعاملين، وحينَ عادت بـدأت بحملة اتصالات لإعادة البث مـن مكانٍ آخر، وتثبيت الحكومة ورجال السياسة في هذهِ الحرب.

إنَّهـا صلبة جداً، لا أسـتطيعُ أن أكونَ مثلَها، أن أهتمَّ بكلِّ شـيء، بكلِّ التفاصيل والأحداث، وأتعامل مع كلّ المواقف بصلابة ورزانة، وأخرجَ من كهفي بسرعة!

لا أستطيع!!

في الحقيقة لا أستطيع أن أنظرَ في عينيها اللتين تلومانني، وتعتبان عليّ، لم أشِـعرها أبداً بالمسـاندة، أنا وهيَ نبتعدُ عن بعضنا مسافاتٍ ضوئيةً، بسرعة كبيرة، لا أكادُ أدركُها!

أعتقد أنَّ طلاقَنا أمرٌ حتميّ، سـيكونُ الشـيءَ الأول الذي أقومُ به بعد انتهاءِ كلّ شيء.

سـيكونُ التغييرَ الأوَّل والحقيقي في حياتـي، أن أزيلَ النافذة التي تُريني كلَّ شيء جميلٍ في وسطَ مدينةٍ من الخراب!

ابتعـد عن الوهم ولو كانَ جميلاً، واقترب مـن الحقيقة ولو كانت موجعة.

* * *

[22]
ألقِ عصا ثورَتك، واستسلم!

بقيَ يومان على إعدام عزيز، وأنا محبوس في البيت، أتحدَّث مع ذلكَ المجهول كلَّ يوم تقريباً، يأتي لي بأفكار غريبة للخروج، قالَ لي ذاتَ مرَّة، قف على النافذة وطر بعيداً!

وقفتُ على النافذة وفتحتُها لكنَّني عجزتُ عن الطيران، أصبحتُ أقضي أغلب الوقت في النوم، ليلاً ونهاراً، كأَّن جسمي ادَّخرَ كلَّ ذلكَ النعاس، وأطلَقَهُ عليَّ دفعةً واحدة، في كلّ مرَّةٍ يكلِّمُني فيها أشعر بالصداع، يرجُّ دماغي رجّاً، أشرطةُ المُسكِّنات الفارغة متناثرةٌ حولي، كأنَّها خرجت من مجزرةٍ ما، تذكِّرُني فيها أنَّها المهزومة دوماً!

تأتِي لي فاتِن بكأس عصير، لم تفقد اهتمامَها بي بعدَ كلِّ شيء،

أرى آثـارَ دمعٍ في عينيها، أتجنَّبُ لمسَ أصابِعها الملفوفة على الكأس وهيَ تمدُّهُا لي، أشربُه مرَّة واحدة، وأعودُ لنومي، وضجيجي!

ذاتَ مـرَّة، بينَ الصحـوِ والنوم، بيـنَ عالم المحسوسـات وعالم الروحانيـات، بيـنَ «تصبح على خيـر»، و»صباح الخيـر»، أتَتْني تلكَ الومضة، اسـتيقظَت بعضُ حوَّاسي، جزءٌ من سمعي، وبصري، ووعيي، كانَ المشـهد مشوَّشـاً، وغيرَ واضح تماماً، ولم أعلم هل هوَ حقيقي أم أنَّهُ صورة سينيمائية من تأليف وإخراج عقلي!

لكنِّي أذكرُ تمامَاً ما رأيتُ وسمعت!

كانت فاتن تلفُّ جسـدَها بالرُّوب الحريري الأسـود، وتشدُّه على لحمِهـا بتوتُّر، وتقـفُ أمامَ النافِـذة، تضعُ الهاتف علـى أذنِها، وتهزُّ رأسَـها بألم، ثمَّ سَمِعتُها تنتَفضُ وتقولُ بحرقة: إنَّهُ لا يتحدَّثُ معي، لا ينظرُ إليّ، لا يلمِسُني، زجاجةُ العطر التي أحضرتُها له لم ينقص منها شـيء، لقد توقَّف عن ارتداء ربطات العنق، وعن الاهتمام بنفسه، لا يحلقُ ذقنه، ولا يقصُّ شعره، إنَّهُ لا يشبهُ آدم الذي عرفتُه أبداً!!

مع مَن كانت تتحدَّث وتبكي هكذا، لا أعلم! رأسي ثقيلٌ جداً كجرَّةٍ فخَّاريةٍ ممتلئةٍ عن آخرِها بالنفط، لا يمكنُ حملها وهزُّهُا بسهولة.

سـكتتْ قليـلاً وتنهَّدت ثمَّ قطعت صمتَها بقـوة:... أعلمُ ذلك جيداً، أنتم تحمونه بحبسـه! وأنا لن أسمحَ له بالخروج، بالذات يومَ الإعدام، سأحرص على بقائهِ نائماً، ولكنَّني خائِفةٌ عليه، إنَّه يدخل في أعراض نفسـية جادَّة، لقد وعدتُكَ بالمسـاعدة، وستسـمحُ لنا بالسفر بعدَ انتهاء العملية!

ولكنِّي خائفة أن أفقدهُ قبلَ ذلك، رددت هذهِ الجملة ثانيةً وبكت!

صمتت قليلاً ثمَّ هزَّت رأسها، والتفتت إليّ، وقالت: حسناً، حسناً، ليكُن!!

بالكاد أغمضتُ عينيّ عِندما التفَتَتْ إلي، أسدلتُ الستار على ذلكَ المشهد، وغطستُ في العتمة لثانية واحدة فقط، عندما فتحتُ عينيّ، كانت فاتن نائمةً بجانِبي!!

هل ما رأيتُهُ وسمعتُهُ كانَ حقيقةً؟ لا أدري!

رنَّ الهاتف، التقطتُه، وخرجتُ مسرِعاً إلى الصالة!

لم أركض فعلياً، ولكنَّ شيئاً مما في جَسَدي كانَ يركضُ بسرعة، فَخرَجت أنفاسي لاهثة! أحسَّ بها صاحِبي!!

قال لي بخوف: ما بكَ يا آدم، لماذا تلهث!

قلتُ له هامِساً، وصوتي يخرجُ كفحيحٍ خافِت: لا أعلم، أشعرُ أن فاتِن تضعُ لي شيئاً في العصير!

ردَّ بقلق: زوجتُك، لماذا؟!

– إنَّها تضمنُ عدم خروجي من البيت! إنَّها تتواصل مع أحد من المخابرات!

– أنتَ متأكد يا آدم؟ إنها زوجتك!

– لستُ متأكداً، تماماً، ولكنَّها تفعلُ ذلك لمصلَحتي تظنُّ أنَّ بقائي في البيت سيبقيني آمناً!

ردَّ علــي كأنهُ يهاجِمنــي: لا تجعلها، تقودُك إلى هذا الأمر، بقاؤكَ في البيت سيجعلُ منكَ جباناً، صامتاً، وأنتَ ولدتَ لتكونَ بطلاً، لتحمي هذا الوطن، وتصحح أخطاءَ من سبقوك..

أخذَ نفساً سريعاً ثمَّ قالَ:

اســمع يا آدم، اركب موجــةَ عصيانِكَ لأعلى نقطةٍ فيها، وأشــهر عيونَ تمرُّدِكَ في وجوههم، وألقِ عصا ثورَتِك، واسحر الجميعَ بها!

أنتَ ومضةُ الضوءِ التي لم تســتطعِ اللحاقَ بالشــمس، فَعَلِقت في هذا الليل!

اخرج منه، اقتلِع جذورَكَ من هذهِ التربة، لمرةٍ واحدةٍ في حياتِك، كن أنت! ولا تكن سواك!

آدم.... آدم!!

تلــكَ الجملــة كانت آخرَ ما ســمعتهُ منــه، أنزلتُ الهاتِــفَ بهدوء وأغلقتــه! ووقفتُ متســمِّراً أمامَ فاتِن التي تشــرعُ عينيها في وجهي، وتضعُ يدَها على فَمِها، وتبكي بكاءً مكتوماً!

لم أعِ وجُودَها خلفي إلَّا عِندما انفلَتت دَفقَاتُ نحيبِها من فَمِها!

رأيــتُ عينيهــا تتوهَّجان كشــهابٍ يقتربُ ســريعاً مــنَ الأرض، ووجنَتيها تلمعانِ وبعض الدموعِ تعبثُ بوجهها بفوضى!

لقد فقدت صبرها أخيراً!!

تقدَّمــتُ بضعَ خطوات نحوها، ظلَّت واقِفَةً مكانَها، وارتَفعَ صوتُ

بكائهـا، حاولـتُ احتضانَها، فتملَّصـت منِّي بتمـرُّد، وأطلقت العنانَ لنحيبِها!

وصرخت: ابتعد عنِّي! أيُّها الأحمق!!

بدأتُ أتمتم: أنا لم أقصد...، إنَّهُ صديقي وو....

كنتُ أشـيرُ بعيني إلى الهاتف، وأقومُ بعملِ إشاراتٍ بلهاء بيدي لا معنى لها!!

وهيَ تُمعـنُ في بكائِها، وتصرخ بجنون: أنـتَ مجنون، غبي! لا تَفهَمُ شيئاً، أنا أريدُ أن أحميك!

لا أريدُكَ أن تعودَ لمَرَضِكَ القديم ثانيةً!

اندهَشتُ أنها تعلمُ بمرضي القديم، لم أُلمّح لها يوماً عن تلكَ القصة، ولا أعتقدُ أنَّ أحداً فعلَ ذلك، كيفَ عرفت، سألتُها مُنكِراً: عمَّ تتحدَّثين!

تابَعت صراخَها: أتحدَّث عن المصحة النفسـية، وموت ريما، وما حصلَ لك! أنا أعرف كلَّ شيء!!

بدأتُ أشـعر بالغضب، اقتربتُ منها، أمسـكتُها من ذراعِها بشـدَّة قلتُ لها بتوبيخ: أنتِ لا تعرفينَ شيئاً!

لم يحدُث شيء، ثمَّ ما علاقةُ هذا الأمر، بما يحدث الآن؟!

أنزلت ذراعي بقوَّة، واختطفت الهاتف من يدي، ولوَّحت به وهيَ تصيح: ما علاقتُه بهذا؟ لا تعلم؟ ها!!

تعال أخبُركَ ما علاقته؟!

ســحبتني من يدي لغرفة النوم، فتحت الدرج وقالت: اسمع، اسمع جيداً! هذا هوَ الرَّقم الذي يتَّصلُ بك كلَّ يوم، صحيح!

هززتُ رأسي بطاعة...

حســناً، هل سألتَ نفسكَ ولو مرَّةً واحدةً لماذا لا تستطيعُ الاتصال بــه، لماذا هــوَ الذي يتَّصلُ عليــكَ دائماً، وفي كلِّ مــرةٍ تحتاجهُ فيها، ولماذا يعرفُ عنكَ كلَّ شيء، بينما لا تعرفُ عنهُ شيئاً؟

ظللتُ صامِتاً، لم أستطع أن أجيبَها عن أيّ سؤال! إنَّها أسئلة أريدُ أن أعرفَ إجابَتها أيضاً!!

قالت: لا تعرف، ها!!

هزَّتني من كتفي، وقالت: أنتَ لا تعرفُ شيئاً، حسناً أنا سأُخبِرك!

ثــمَّ قامت بإعادة الاتّصال بذلك الرَّقم، أردتُ إيقافَها، ولكني أردتُ أن أعرفَ من هوَ أيضاً!!

لحظــات، وانطلَقَ صوتُ رنينٍ قريب، مــن الدرج، أدخلت يدَها، وأخرجــت هاتفــي القديــم! ذاكَ الذي نســيتُه أوَّل يومٍ لــي في العمل، ووضعتــهُ أمامَ عيني ورقــمُ هاتفِ المخابرات يُضــيءُ على شاشــته، بمكالمةٍ واردة!

وضعتُ يدي على رأســي، كأنَّما وقَعت عليَّ صاعِقةٌ منَ السماء، لا أفهمُ شيئاً! ما هذا!؟! قلتُ لها بدهشة!

أجابتني، وهي تبكي أكثر، لا تفهم شيئاً!

لقـد رأيتُك من مدَّة، وأنتَ تُخـرجُ هذا الهاتف من الدرج، وتتَّصلُ به، ثمَّ يرنُّ الهاتف الثاني في يَدِكَ الثانية، فَتحملهُ وتذهب للتحدَّث به!

أنتَ تتصلُ على نفسِك يا آدم!

أن تتحدَّثُ مع نفسـك، لا يوجد شـخص آخر على الخط، إنَّهُ أنتَ وحسب!!

تناولـتُ الهاتِفين من يَديها، بينَما هيَ ألقت نفسَـها على السـرير، وعادت لطقوسِ نحيبِها!

نظرتُ إلى سـجلِ المكالَمات في كليهمـا، فكانت آخرُ المكالمات، كلَّها صادرة من الأول، ووارِدة إلى الثاني!!

لقـد اخترعتُ شـخصيَّة أخرى منِّي، لأتحدَّثَ معهـا كلَّما احتجتُ لشـخصٍ أتحدَّثُ معه، أعدتُ الاتصـال من الهاتف الأول، وحينَ رنَّ الهاتِفُ الثاني، أجبته..

سمعتُ صوتَهُ واضِحاً...

مرحباً يا آدم، هل عرفتَ من أنا!

إنَّهُ أنت!

هل تريدُ أن أخبركَ كيف تخرجُ من هُنا، اقترب من النَّافِذة، وطرْ!

ألقيتُ الهاتِفين، على الأرض واقتربتُ من النافِذة، فتحتُها ونظرتُ

إلى الأسفل، أنا في الطابِق الثاني، تسلّقتُ حافَّةَ الشرفة، وأسلمتُ نفسي!!

فسَحَبَتني فاتِن للخلف بشدَّة، وسقطَنا معاً على الأرض، وبكينا كثيراً!

حتَّى نَمَت جزرٌ منَ الطحالبِ الخضراء على وجوهِنا وثيابِنا..............

بعدَ ساعتين، أحضرت لي فاتن كأسَ العصير ذاك، وضعتُ يدي على أصابِعِها نظرتُ إليها، هززتُ رأسي بطاعة واستسلام، ودَفَعتهُ إلى بعلومي بمساعَدتِها!!

بعدَما خرجت فاتِن من الغرفة، وقفتُ على النَّافِذة، فتَحتُها، وشاهدتُ الحرَّاسَ يتجوَّلون في الأسفل، تسلَّقتُ النَّافِذةَ مرَّة ثانية، هذهِ المرَّة لم تكن فاتِن في الغرفة، انشقَّ ظهري وانبثقَ منهُ جناحانِ عظيمان، حرَّكتُهما، وقفزتُ من النَّافذة، فارتفَعتُ عن الأرض، بدأ الحرَّاس يصرُخون، ويطلِقون النَّارَ عليَّ، وأنا أتفادى الرصاصات بصعوبة، وأعلو، وأعلو حتَّى ارتَطمَ رأسي بغيمة قريبة من الأرض.

ظللتُ أطيرُ حتَّى وصلتُ إلى الميدان حيثُ اعتصمَ النَّاس، في مكانٍ غير بعيد أمامَ محكمةِ المدينة رأيتُ أبي ونائبهُ ووزيرَ الدَّاخلية، يركضونَ إلى إحدى السيَّارات، وهيَ تسرعُ فيهم بعيداً، وقربَ الباب رأيتُ امرأة تتمسَّك بالحائط وتصرخ بقوَّة، وهيَ تخوضُ معركةَ مخاضِها، ثمَّ رأيتُ قنَّاصاً من بعيد يوجِّهُ بندقيَّتهُ ويثقبُ الجانِبَ الأيسر من صدرها، إنَّها غزال!

وهذا الذي يخرجُ صارخاً، هو أخي نور!!

في الميدان، رأيتُ المصفَّحات والدَّبابات تحاصرُ المعتَصمين، وتطلقُ عليهم النَّار والمدفعية، والنَّار تلتهمُ خيام الاعتصام، وجلود وثياب النَّاس وهم يهروِلون، ويصرخون، ويتدحرَجون على الأرض لإطفاء النَّار لكنَّها تمضغُهم بسرعة، تلوكوهم بشهيَّة، ثمَّ تزحفُ لأجسادٍ أخرى، رأيتُ القنَّاصة والجنود يصطادونَ النَّاس، والدماء تتفجَّرُ من أجسادِهم، ومنَ الأسفلت، ومنَ المباني، حتَّى أصبحت الجثث والعمارات تطفو على مستنقعٍ أحمر!

عِندما ابتعدتُ قليلاً، رأيتُ ريما تمسكُ بيد عزيز ويرتَفعانِ لأعلى، نظرا تجاهي ولوَّحا لي، بينَما كان جسدُ عزيز يتدلى تحتَ المشنقة، ونور يسجدُ قربهُ وينتحبُ ويشهقُ وحده، ولا أحدَ يسمعه!

ابتعدتُ أكثر حتَّى تجاوزتُ حدود المدينة، رأيتُ من بعيد روضةً خضراء صغيرة، دنوت منها، هبطتُ بجناحي، رأيتُ أمِّي تعتني بمجموعة من الورود، وهيَ تبتسم، ثمَّ انتبَهتْ كأنَّها سمِعت صوتاً من البيت رَكَضت مسرعة، فوجدت زوجَها يحتضنُ آدم الصغير وهوَ يبكي بحرقة! أخذتهُ إلى حضنها بحنان، سألتهُ ما الذي يُبكيك؟

مدَّ لها جثَّة العصفور الباردة، وقالَ لها باكياً: لقد مات!

لقد أطعمتهُ وسقيتهُ، واهتممتُ به لكنَّه مات!

لماذا؟!

قالت له عابسة، وهيَ تتناول العصفور: لقد مات لأنَّك حبسته! لأنَّكَ منعتهُ حقَّه الذي وهبهُ الله!

أنتَ الذي قتلتَ هذا العصفور!

وأنتَ الذي قتلتَ ريما!

وأنتَ الذي ستقتل عزيز!

وستقتل هذهِ الثورة ثانيةً!!

بكى بحرقة، وصرخ! لا لا أريد أن أقتلَ أحداً، ولا أريد أن أحبِسَ أحداً، لا أريد يا أمي، وهيَ بدأت تبتعد عنه، حتّى تلاشت، وهوَ يصرخ، ويبحثُ عنها في الفراغ، والعدم!

اقتربتُ منه، أمسكتُ بيده، وقلتُ له: اسمع يا آدم، اركب موجةَ عصيانِكَ لأعلى نقطةٍ فيها، وأشهِر عيونَ تمرُّدِكَ في وجوههم، وألقِ عصا ثورَتِك، واسحر الجميعَ بها!

أنتَ ومضةُ الضوءِ التي لم تستطعِ اللحاقَ بالشمس، فَعَلِقت في هذا الليل!

اخرج منه، اقتلِع جذورَكَ من هذهِ التربة، لمرةٍ واحدةٍ في حياتِك، كن أنت! ولا تكن سواك!

أكون أنا!!

كانَ يسمعُ الصوت ولا يرى أحداً، يحسُّ بيدي فوقَ يده، ولكنَّه لا يراها!!

نعم: كن أنت، افعل ما هوَ صواب!

غاصَ المكانُ في السَّواد، وفقدتُ أثرَ آدم الصغير، ولكنِّي سمعته، يضحك ويقول: لقد طارَ العصفورُ ثانيةً، إنَّهُ يطيرُ بعيداً!!

رفعتُ رأسي وأغمضتُ عينيّ، وحينَ فَتحتُهما، وجدتُ نفسي في غرفتي، والهواتف ممدَّدة على الأرض، والسقف يدورُ برأسي، والأرضية تتمايلُ ببطئ.

وقفتُ بصعوبة، استندتُ إلى الحائط، وسرتُ إلى الصالة، سمعتُ صوتَ فاتن بعيداً، ضعيفاً...

حسناً، بقيَ يومٌ واحد! لن أتحمَّل أكثر، حالَتُه تزدادُ سوءاً، يجبُ أن أعرضه على طبيبٍ جيدٍ، وقبلَ ذلك يجب أن نبتعد عن هذهِ البلاد!

سمعتُها تتنهَّد بعمق، وكأنَّها تستمعُ لشيءٍ مزعجٍ، سارت في المكان ذهاباً وإياباً، ثمَّ لوَّحت بيدِها مهددة، وقالت: غداً سأجهزُ الحقائب، وأحجزُ طائرةً خاصَّةً، وبعد غد في الصَّباح الباكر سننطلقُ إلى المطار، ولن أهتمّ لأمر الحرَّاس!!

أريدُ استعادة زوجي وحياتي، نقطة وانتهى الأمر، ولا تحاول استفزازي! أعلمُ كلَّ فضائِحكم، وتعلمُونَ صلاحيَّاتي!

أتساءل! هل تفعلُ ذلك بدافع الحب! هل يكونُ الحبُّ قوياً لتلكَ الدرجة التي تحاربُ فيها من تحب لتبقِيه بجانِبك؟! لا أعلم، المشاعر البشرية لا تخضع للقوانين والنظريات العلمية! إنَّها أبعاد مجهولة، يمكنهم تكوين الفرضيات عنها، ولكن لا يمكنهم تحديد سلوكها وقياساتها الصحيحة أبداً!!

اقتربتُ منها، أحسَّت بي! أدارت رأسها ودنت مني، وضعت يدها الباردة على رأسي وقالت بدفء: أنتَ بخير الآن؟ هل هدأت؟

أرجحتُ رأسي للأمام ببطء ثم سألتُها: منذُ متى وأنا هكذا!

حاولَتْ أن تتجنَّب النظر إلي!

قلتُ لها: لا بأس! لقد مررتُ مسبقاً بحالةٍ أصعب، من حقي أن أعرف ما هوَ وضعي..

زمَّت فمَها وتمهَّلت طويلاً قبلَ أن تجيبَني: لا أعلم تحديداً، ربَّما من قبلِ فترة الحجز، الهاتِفان كانا معك على الدوام، وأنت اختفيتَ لفترة طويلة، ولا أعلم ما حدثَ لكَ أثناءَ ذلك!

همهمتُ مستطرِداً ثمَّ قلتُ لها، وأنا أبتسمُ رغماً عنِّي: ومنذُ متى وأنتِ تعلمين بقصَّتي القديمة!!

ابتسمت هيَ الأخرى على مضض وأجابت: أنا مؤسِّسَة دار الإذاعة والتلفزيون الوطني، كلُّ أسرار رجال الحكومة في جيبي الصغير...

ألم تفكِّري يوماً في كشفِ حقيقَتهم، سرقاتِهم، وفسادهم للنَّاس، يا فاتن؟ أليسَ هذا عمل الصحفي!!

– ثمَّ ماذا؟

أجابت بقلَّةِ حيلة... ثمَّ سارت بضعَ خطوات تجاه النَّافذة، شرَدَ العسلُ الشفَّافُ في عينيها، صفَّقت رموشُها بنعاس، وتحرَّكت شفتاها بشبهِ انفراجة، كأنَّها تكلِّمُ نفسَها وقالت لي: «لو كانَ بإمكانِكَ أن

تكونَ غنياً، ومشــهوراً، ومرضياً عنكَ من الطبقات العليا، ولديكَ كلّ تلـك الصلاحيَّات لتعيشَ ملِكاً، مقابل أن تسـكت عن بعضِ الأشـياء التي سـكتَ عنها الجميع، ليعيشوا سـعداء! هل كنتَ ستختارُ الشقاءَ، والهربَ، والنفيَ، والفقر، والسجن!! كي تقولَ بعض الأشياء التي لن يقولَها أحدٌ على أيَّةِ حال!!

ما رأيك؟!

الحقيقــة لم أفكِّر يومــاً في الخيار الثاني، لقد ركبــتُ الموجة التي اختارتها لي عائلَتي، واقتنعتُ بها، وعشــتُها، وكنتُ قويَّة جداً، بحيثُ أدافعُ عمَّا أظنُّه صواباً وخيراً، حتَّى لو كانت كلُّ المؤشرات تقولُ لي عكسَ ذلك!

لقد صدَّقــتُ الكذبةَ التي اخترعتُها، وعشــتُ الوهمَ الذي صنعته، وآمنتُ بالفكرةِ التي أوجدتُها!».

ظللتُ أهزُّ رأســي، وأبتَسم، وأســتمعُ لها، تتحدَّث كأنَّها تنظرُ إلى نفسِــها في مرآةٍ أمامَها، ربَّما المرأةُ التي في المرآة تبكي الآن بالنِّيابةِ عن فاتِن!

فاتِــن لا تبكي على نفسِــها حتَّى عندما تعتــرفُ بأخطائها، إنَّها لا تحني رأسها لسيفِ الندم!

لا تســتطيعُ أن تضــعَ رَقبَتها تحتَ مقصلــةِ الضمير، في لحظات الاعترافِ، كبرياؤها تمنَعُها من فعلِ ذلك، إنَّها قويَّة في كلِّ شيء كما عرفتُها، إلَّا في الحب!!

أليسَ منَ الأجدرِ بالإنسان، أن يخشعَ أمامَ الله عندما يعترفُ بذنوبه! أن يبكي بينَ يديه! أن يتوبَ على ما فعله، ويسعى للاعتذار، ووضع الأمور في مسارِها الصحيح!!

سألتُها فقالت لي وهيَ تفركُ عينيَها برفق: بلى عليه أن يفعل ذلك، إذا استطاع!

أنا لا أستطيع فعلَ ذلك!! الشيءُ الصحيح الذي يمكنني فعله الآن هوَ الهرب، من أخطائي، وذنوبي! وبدءُ حياةٍ جديدة!!

الشيء الصحيح هوَ أن أكتبَ حياتي السابِقة بقلمِ رصاص، على ورقةٍ بيضاء، وأمسحها بممحاةٍ جيدة!

ثمَّ قالت بقوَّة وهيَ تقترب مني، وتضغطُ على يدي: هذا ما سنفعلهُ يا آدم! معاً!! لا شيءَ هنا يستحقُّ بقاءَنا!

أنتَ فقدتَ والديك! وأنا فقدتُ حلمي!! ولو انتصرَ الثوَّار سيقومون بقتلي أو إبعادي أنا وكلُّ أقطاب الحكومة القديمة! لذلك علينا الخروج من هنا بسرعة!!

قلتُ لها بحماس: ولمَ لا يسمحونَ لنا بالسفر قبل الغد!

ردّت عليَّ بغصّة: يريدون إبقاءَكَ تحتَ أعينِهم، حتَّى يتم إعدام عزيز على الأقل!! يعتقدون أنَّك تفكِّر بإخراجه!!

ثمَّ ماذا بعدَ إعدامه، قلتُ لها مستفسراً!!

بعدَ إعدامه سيهيج الناس ويهاجمونَ الشرطة، والمقارّ الحكومية،

وسترد الحكومة بعمليَّةٍ واسعة لتبييض السَّاحات منهم!!

رفَّ قلبــي من الكلمــات الأخيرة... ماذا تعنينَ بتبييض السَّــاحاتِ منهم؟!!

نظــرت إليَّ بصمت، فــي ذات اللَّحظــة مرَّت غمامــةٌ كبيرةٌ في السَّــماء فانكسَــفَ الضوءُ على وجهِ فاتِن، وبدت ملامِحها داكنةً جداً، ومهيأة للذوبان والبكاء!

أدرتُ وجهــي، وقلتُ لها: علينا إذاً أن نحضِّرَ حقائِبنا بســرعة يا فاتن!!

قفزت إلى صدري، وحشرت رأسها فيه، وبكت بفرح وهيَ تقول: نعم! سنهربُ معاً!!

* * *

[23]
ألقِ عصا ثورَتك.. واسحر النّاسَ بها!

رأيــتُ ذلك الحلم مرةً ثانية، وثالثة، وعاشــرة!! أصبحَ يتكرر في صحوي وغفواتي ونومي، في كلِّ حالاتي النفسية والعصبية!

بقــيَ يومٌ واحــد على إعــدام عزيز، زحفــت الآليات العســكرية والأرتــال الأمنية إلى أماكن اعتصام النَّاس، النَّاس الذينَ تحرروا من خوفِهم، الذينَ انسلَخوا من قيودِهم، وانفطموا عن حليبِ العبوديَّة!

حاصــروا كلَّ الميادــن والسَّــاحات، أمهلوهــم أربعاً وعشــرينَ ســاعة، حتَّى يعودوا إلــى منازِلِهم، ويخلوا الشَّــوارع، فردُّوا عليهم، بأن أســقطوا تمثال الرئيس الذهبي، لقد حفروا فيهِ لأيام، وفي اللَّحظة المناسبة أسقطوه!

وبينَما ظلَّت مكبِّراتُ الصوت تنبحُ عليهم، حملَ أحدُهم ميكروفوناً

وصعدَ على رأسَ التمثال، وبدأ يغنِّي والنَّاس يردِّدونَ خلفه..

إذا الشّعْبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَـاةَ

فَـلا بُـدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ القَدَر

وَلا بُـــدَّ لِلَّيْـلِ أنْ يَنْجَلِـي

وَلا بُـدَّ للقَيْدِ أَنْ يَـنْكَسِـر

وَمَـنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَـوْقُ الْحَيَـاةِ

تَبَخَّـرَ فـي جَـوِّهَــا وَانْـدَثَــر

فَـوَيْـلٌ لِمَنْ لَـمْ تَشُقْـهُ الْحَيَاةُ

مِـنْ صَفْعَـةِ العَـدَم المُنْتَصِر

كَـذلِـكَ قَالَـتْ لِـيَ الكَائِنَاتُ

وَحَدّثَنـي رُوحُــهَـا المُسْتَتِر

وَدَمـدَمَـتِ الرِّيحُ بَيْنَ الفِجَاجِ

وَفَـوْقَ الجِبَال وَتَـحْـتَ الشَّجَر

إذَا مَـا طَمَحْـتُ إلِـــى غَـايَةٍ

رَكِبْـتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الحَذَر

وَلَـمْ أَتَجَنَّبْ وُعُـورَ الشِّعَـابِ

وَلا كُبَّـةَ اللَّهَـبِ المُسْتَعِـر

وَمَـنْ لا يُحِبّ صُعُودَ الجِبَـالِ

يَعِشْ أَبَـدَ الـدَّهْـرِ بَيْنَ الحُفَـر

فَعَجَّتْ بِقَلْبِي دِمَـاءُ الشَّبَـابِ
وَضَجَّتْ بِصَدْرِي رِيَـاحٌ أُخَر

وَأَطْرَقْتُ، أُصْغِي لِقَصْفِ الرُّعُودِ
وَعَـزْفِ الرِّيَاح وَوَقْـعِ المَطَـر

وَقَالَتْ لِيَ الأَرْضُ – لَمَّا سَأَلْتُ:
«أَيَـا أُمُّ هَلْ تَكْرَهِينَ البَشَر؟»

أُبَـارِكُ في النَّاسِ أَهْلَ الطُّمُوحِ
وَمَـنْ يَسْتَلِـذُّ رُكُـوبَ الخَطَـر

وأَلْعَنُ مَنْ لا يُمَاشِي الزَّمَـانَ
وَيَقْنَعُ بِالعَيْـشِ عَيْشِ الحَجَر

هُوَ الكَوْنُ حَـيٌّ، يُحِـبُّ الحَيَاةَ
وَيَـحْـتَـقِـرُ الْـمَـيْـتَ مَهْمَا كَبُر

فَلا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطُّيُورِ
وَلا النَّحْلُ يَلْثِمُ مَيْتَ الزَّهَـر

قالَ البيت الأخير، ومن فمِ إحدى البنادِقِ انطلَقت رصاصةٌ ما، لم تكن سـريعة، ولم تكن متأنِّية، ولكنَّها قبَّلَتهُ بقوَّة، عفَّ نفسهُ عن قُبلِتِها وتابعَ غناءه، عبرَ صوتُه ممرات الضوءِ السـبعة، وظلَّ يصعدُ حتَّى وصلَ إلى سدرةِ بحَّته، فسقط!

والنَّاس تردِّدُ من خلفه، حتَّى اختلطَ البكاءُ بالغناء، توحَّدا في نفس النوتة، والتقَّا على نفسِ اللحن، وجلسا معاً في حضنِ الموتِ أخيراً!

دَمهُ الذي رسمَ نقشاً فريداً على التمثال الأصفر، ظلَّ يغنِّي بصوت الشَّاعر أبي القاسم الشَّابي!

الشعراء الذينَ يكتبونَ كلاماً عظيماً لا يموتون أبداً!

إمَّا أن يعيشــوا وإمَّا أن يعيشوا، وهذا الشاب دخلَ في أولى منازلِ الخلود، إنَّهُ الشَّهيد الأول.

هاجَ النَّاسُ أكثر، فتراجعَ الجنود، ووضعتُ يدي على قلبي.

لقد قررتُ أخيراً!

بقــيَ أربعٌ وعشــرونَ ســاعة على الإعــدام، ناديتُ علــى فاتِن، فجاءَتنــي ملهوفة، خائفة، قلتُ لهــا بجدية: أينَ هوَ الدواء المنوِّم الذي كنتِ تضعينهُ لي في العصير!

شعرتُ بتوجُسِها، فطمأنتُها، وقلتُ لها: لا تقلقي! يومٌ واحدٌ وينتهي كلُّ شيء، ونسافر!

عِندما تلثَّمت الشــمسُ، وبدأ الليلُ يسـطو على بقايا الضّوء، ناديتُ علــى الخادمــة، ثمَّ قمتُ إلــى المطبخ، وصببتُ كأســينِ من العصير، وضعْتُهما بالمنتصف بيني وبينَ فاتِن، على الطَّاولة، وفتحتُ كبسولَتينِ من المنوِّم، أفرغتُ الأولى في كأسي، والثانية في كأسها، وقدَّمتُها لها!

نظرت إليَّ وعيناها ملفوحتان بالشــك أو الخوف، لا أعلمُ تحديداً، دفعــتُ لهــا الكأس وقلتُ بأناقةِ رجلٍ يدلِّلُ زوجته: ســننام الآن، وغداً ســنصحوا عِندما ينتهي كل شــيء، ونغادرُ معاً! لن نســمعَ شيئاً مما سيحصل!

ورفعتُ الكأسَ أمامَها، فرفعت كأسها، وشربناها معاً، وذهبنا إلى الفراش...

خلالَ هذهِ السَّاعات، سيقتَحمونَ الساحات، ويعدمونَ عزيز، وينصِّبونَ رئيساً ما، والبلد سوفَ تعمُّه الفوضى، وينتهي كلُّ شيء! كلُّ شيء!

أغمضتُ عينيَّ فرأيتُ ومضاً من بعيد، فتحتُهما ونظرتُ إلى ذلكَ البريقِ البعيد، كأنَّ يراعةً ما قررت أن تفتتحَ رقصتَها على نافِذَتي.

ذهبتُ بعدَها إلى الحمَّام، ووضعتُ إصبعينِ في حلقي، وتقيَّأتُ كلَّ العصير، وعدتُ إلى جانِبِ فاتن، حتَّى تأكَّدتُ أنَّ النَّومَ ابتلَعَها.

ارتَديتُ ثيابي، ووضعتُ مسدَّسي في مكانه، ثمَّ وضعتُ جميعَ هواتفِ البيت في الحوض، وفتحتُ عليها الماء، وخرجتُ مسرِعاً منَ البابِ الخلفي، حتَّى وصلتُ إلى السُّور، تسلَّقتُ عليه، وقفزتُ على السيَّارةِ التي يقفُ عليها نور! ويومِضُ لي بمصباحه!

صافحتُه، وقبلَ أن أشعرَ ببرودة يده، عانَقني، أدخَلني في جسده فجأة، فتدفَّقت دماؤه في عروقي، وجرت أنفاسهُ في رئَتي، ثمَّ صعدنا إلى السيَّارة!

– هل أنتَ بخير؟

قالَ لي وهوَ يحاوِلُ تصفُّحَ وجهي..

– نعم، بخير!

– والحرَّاس؟

طلبتُ من الخادمة، تقديم العصير لهم، ووضعتُ فيهِ منوماً قويّاً!

– هـذا جيد! لأنّي كنتُ سـأقتَحمُ البيت، لو لـم تخرج! وزوجتك، كيفَ أقنعتَها بخروجك؟!

– لم أقنعهَا!

نظرتُ إليه، وابتسمت، فابتَسمَ هوَ الآخر وضحكنا معاً...

اسـتوقفتُ ضحكَنا وسألته، كيفَ عرفتَ أنَّني سأستجيبُ لإشارَتِكَ وأخرج!

نظرَ إليَّ وقال: لم أعرف! لقد آمنتُ بكَ وحسب!

والآن حانَ الوقت لنصنعَ التَّاريخ، سنحرر عزيز، ونسقِطُ ما تبقَّى من تماثيل، فهل أنتَ معنا!

– نعم!!

صرخـتُ عاليـاً، والهواءَ القـارِسُ يقتَحمُ شـعَبنا الهوائية، ويحزُّ صدورنا كالسكاكين الحامية! ونحنُ ننطلقُ مسرعين على دربِ القَدر!

كلُّ الشَّوارعِ إمَّا مغلقة بالنَّاس وإما مغلقة بالجنود، لا أحدَ ينامُ في بيته في هذهِ اللَّحظة عدا فاتن والحرَّاس!

وصلنـا إلى زقاقٍ يغطـسُ بالعتمة خلـفَ أحد المبانـي، فتحَ أحدُ الشَّـبابِ غطاءَ الصـرفِ الصحي، ونزلنا فيه، أضـاءَ نور المصباح على ساعته، وقالَ لدينا ساعتانِ حتَّى نصل!

قفزنا إلى النفق، وأغلقنا الغطاءَ فوقَنا، رويداً رويداً، وسرنا وراءَ

ذلكِ المصباح، سرنا صامتين، وكنَّا نسمعُ صوتَ أقدامٍ تركضُ فوقَنا، وأقدامٍ أخرى تسيرُ في خطوطٍ منتظمة، زخَّاتٌ متفرِّقة من الرصاص، وصرخات مختلفة، وأشياءٌ أخرى تسقط! فتحدثُ ارتداداً عالياً.

تحتَ الأرض تسمعُ كلَّ شيء، ولا تعرفُ شيئاً! تحتَ الأرض تصافِحُ الخوف، والشك، والقلق، وتسير وراء أيّ ضوء حتَّى لو لم تكن تعرفُ وجهته!

أهذا ما يشعرُ به الموتى؟

هنا فقط تعلم أنَّ الفرق بين الموتِ والحياة ليسَ أن تكونَ فوقَ الأرض أو تحتها، بل أن تتَّخِذَ المسارَ الصحيح! وتتبعَ الضَّوءَ الصحيح.

لأوَّل مرَّة في حياتي أشعر أن الله لا يَمنَحنا شيئاً، إلَّا إذا أردناهُ بشدَّة، وعملنا لأجله بشدَّة، لا يُمكنُ للشاعر أن يكتبَ نصاً خالِداً إلَّا إذا فقدَ بعضَ أصابِعه!

لأوَّلِ مرَّة أسمعُ صوتَ الله في داخلي، عِندما تبتعدُ عن كلّ الناس، وتقطعُ علاقَتك بكلّ البشر، تشعر بحاجَتِكَ إلى خالِقك، تشعر باتِّصالِكَ الحقيقي به!

ذلكَ الذي كانَ يتحدَّثُ معي هوَ النسخة الصحيحة منِّي، هوَ الإصدار الصائب، وهوَ صوتُ المنبِّه الذي أرادَ إيقاظي من غيبوبَتي، وهوَ النخلةُ العالية التي أرادت توجيهي إلى خارج الصحراء!

لقد وصلتُ إلى قمَّة بؤسي، وإلى أحلَكِ اللحظاتِ في ليلي، وإلى ذروةِ دواري حتَّى أعثرَ عليه!

عِندمــا تكونُ مغموراً بالعتمة، تســتطيعُ تمييز الضــوءِ الحقيقي، أمَّا في النهار فتتشــابهُ كلُّ الأضــواء، المزيف منها والحقيقي فلا تجدُ ضالَّتك!

وهكذا أنا!

المســافةُ انتهت، وقفنا ونظرنا إلــى الأعلى، دقَّ نور على الغطاء المعدنــي بالمصباح، وانتظرنا ثلاثَــة أزمنةٍ، في ثلاثِ دقائق، قبلَ أن يتحــرَّكَ الغطاء، ويســيلَ الضَّوء على أطرافِــه الصدئة، ويهبطَ على وجوهِنا المتعبة!

الشمس كانت ترفعُ رأسها من خلفِ خطِّ الأفق، وتستعدُّ لتدخلَ في روزنامةِ هذا اليوم.

صعدنا جميعاً، إلى الأعلى، انتشــلنا بعضنــا، ووقفنا على أقدامِنا وراءَ أحــد المخازن، داخلَ ســور الســجن المركزي، غيَّرنــا ثيَابَنا، وارتدينا ثيابَ طاقمٍ طبِّي، وتنكَّرنا، أحد الشباب قامَ بضبط الهاتِفِ في يديه، ووصلَهُ بجهاز حاسوبٍ محمول، حَبَسَ الجميعُ أنفاسَهم!

ربعَ ساعةٍ، ورنَّ الهاتِف، تأهَّبنا!

نظرَ الشابُّ إلينا وأجابَ على الخط..

– الوحدة الطبِّية للسجن المركزي، تفضَّل!

– لدينــا حالــة إغماء، نرجو منكَ التَّوجه إلى عنبر التســليم الأول حالاً!

– عُلم!

أغلــقَ الخط، وركضنا إلى هناك معــاً، المكان مزدحِم، الكثير من الضُّباط، لولا هذهِ اللّحية، والشوارب الملصقة لعرَفوا وجهي مباشرة، أخفضتُ رأسي وحاولتُ ألَّا أنظرَ إليهم، ودخلنا من بينِهم إلى العنبر!

كانَ عزيز ممدَّداً هُناك، وهوَ يرتدي بيجامةَ الإعدام البرتقالية!

ما الذي حصل؟

سألهم نور بجرأة..

لقد أغميَ عليه، وجدنا هذا الشَّريط بجانبه، يبدو أنَّه انتحَر!

اقتــربَ منه، وضــعَ إصبَعيهِ على زاويــةٍ ما مــن رَقَبَته، أرهفَ الســمع، وركَّز قليلاً، ثمَّ قالَ عابِساً: لا أستطيعُ أن أحدد إن كانَ نبضـهُ ضعيفاً أو أنَّه فارقَ الحياة، ولكن أريدُ نقلَه للعيادة الآن!

سأتأكد من وضعه، وأخبِرُكم!

وافــقَ الضَّابط، حملنا جَسَــدهُ الخفيــفَ على الحمَّالة، وســرنا بهِ مــن طريق العيادة مع بعض الضَّبــاط المتنكرينَ منا، والتففنا حولَها، وصولاً إلى المخزن، أنزلناهُ هناك، نَظرَ نور إلى ساعَته، وبدأ العد!

وجههُ البريء كانَ منقوعاً بالخوف، والارتباك، ملامِحهُ الصغيرة ظلَّــت تائهة، وحائــرة، انزَلَقت نقطــةُ عرَقٍ من أنفه، وصلت شَــفتهُ السفلى فعضَّ عليها! وتشنَّجت نظرَاته!

- هيَّا، استيقظ، الآن!

علَّقنــا أنظارَنا على جثَّــةِ عزيز، ونحنُ نتلفَّتُ خلفنا، سيكتَشِــفونَ

الخدعة في أيّ لحظة! هيا استيقظ يا عزيز، وأكمل ثورَتك!

وضَعتُ يدي على قلبي، شـعرتُ بأنفاسي تجاهِدُ بصعوبة لتتحرَّرَ من جَسَـدي، انقَبَضَ قلبي مرَّة واحدة، وحبَسَ الدَّم عن بقيَّةِ أعضائي حتَّى شَهَقَ عزيز أمامَنا!

ابتَلَع بعضَ الهواء كمن يبتلعُ قطعاً من الزجاج، وسَعلَ بقوَّة ثمَّ فتحَ عينيهِ فجأة، ونظرَ إلينا!

عادَ قلبي للعمل مرَّة ثانية، وانتشرت الدماء من جديد في جسدي، قطعتُ عِناقَ عزيز ونور، ودموعَهما!

وطلبتُ أن نعودَ بسرعة!

بقيَ القليل فقط!

ظللتُ أقولُ لهما، ونحنُ نبتلِعُ المسـافةَ ركضاً، تبادَلنا إسناد عزيز على أجسـادِنا، ولكنَّ جسدَهُ العاجز كانَ يطيرُ معنا، مع أنَّه داخلَ نفق إلَّا أنَّه حر!

الحريةُ فاكهةٌ نادرةٌ، لا تنمو إلَّا في الأماكن القاسية، لا تتشكَّلُ إلَّا في ظروفٍ بدائيةٍ وصعبةٍ، لذلكَ يكونُ طعمُها مميزاً، قوياً، يمكنُهُ أن يسيطرَ عليكَ في أيِّ مكان!

فـي هـذهِ اللَّحظـة الشـباب المزروعونَ فـي المبانـي الحكومية والوزارات، يتعاونون معَ الوحدات المعدَّة بالخارج للسيطرة عليها!

قالَ نور موجِّهاً كلامَهُ لي ولعزيز!

اقتربنا من النهاية، الآن سنكملُ هذهِ الثَّورة، الآن ستقودُهم يا عزيز، أنتَ حر لن يمنعَكَ شيء، لن يستطيعوا قتلَ ريما مرةً ثانية يا عزيز!

طَرَقنا الغطاءَ المعدَني، وفُتِحَ لنا! دخلت الشمس بقوَّة إلى أجسادِنا، فتوهَّجنا!

خرجنـا إلى الضَّوء، وقفنا على أقدامِنا، أنا ونور انتشـلنا عزيز، ورفعنـاهُ عالياً فوقَ الأرض، أخذَ نَفَسـاً طويلاً، مفرِطـاً من الهواء، وقال: أنا حرٌ أخيراً! أنا حرٌ يا ريما، أنا.... حُرٌّ.... يا ريما.

نظرنا أنا ونور إلى بَعضِنا، انكسرَ شيءٌ ما في عيوننا، وأوشكَت البلَّوراتُ المعلَّقةَ أن تسقط، لكنَّنا أمسكناها!

همستُ في داخلي، هذهِ الحرية تليقُ بكَ، وبها!

نور فَتحَ ذراعيه لعزيز، وعزيز فتحَ ذراعيهِ لنور.....

واندمَجـت الأصـواتُ كلُّها، وتهشَّـمَ الضَّـوءُ على أحجـارِ ذلكَ الزقاق، سـمعتُ صوتَه يسـقط ويتكسَّـر، ورأيتُ الشَّـمسَ تولولُ في طرفِ المدينة، وتركضُ بعيداً عنَّا!

لم أعلم هل سـمعتُ صوتَ الرصاصة أوّلاً أم رأيتُ سقوطَهُ أوّلاً؟ التبَسَ عليَّ الترتيـب الصحيح للزمـن، واختلَطَـت الثَّواني اللاحقة بالسَّابِقة، فأحدثت ثقباً في جسدِ الزمكان!

سَقطَ عزيز في حضنِ نور، ولكنَّه لم يحتضنه، لم يطوِّقهُ بذراعيه، لقد لخَّصَ جسدهُ في رعشةٍ كامِلةٍ، وترنَّحَ وارتمى في حضنِ نور، ثمَّ سمعتُ دمدمةَ الرصاصة!

وقبـلَ كلّ ذلـك رأيتُ ريما تنـزلُ إلى ذلك الزقاق كمـا في الحلمِ تماماً، وتلمسُ كفَّ عزيز، فيتَشـبَّثُ بها، وتتشـابَكُ الأيدي، ويطفوَانِ معاً، رفعتُ رأسي وتابعتُ صعُودَهما، ثمَّ انتبهتُ لبقيَّةِ المشهد!

دهشــةُ نور، واللونُ الأحمر يمتزجُ في البرتقالي! وبقيَّةُ المشـاهد بالأبيضِ والأسـود، تشـنَّجَ الوقتُ تلكَ اللحظة، ثـمَّ تملَّصَ أخيراً من صدمته.

أدرتُ رأســي، رأيـتُ المـكان محاطـاً بالقـوَّات الخاصــة مـن المخابرات، الأسلحة الحديثة تمدُّ خراطيمها تجاهَ الشباب، وتصطادُهم واحداً واحِـداً، التقت عيناي بعيني رامي! عِندما رفعَ مسدَّســه بعدما أفرغَـهُ في صدرِ عزيز، ظللتُ مشـدوهاً، سـقطَ الجميـع وظلَلتُ أنا واقفاً، ونور ساجدٌ على جثَّةِ عزيز.

رامي! إنَّه أنت!

نظرَ إليَّ بغلٍّ، وملامحَ منتشيةٍ بالنصر!

آدم، ظننـتَ أنَّهُ يمكنُكَ الخروج والذَّهـاب حيثُ أردت! ظننتم أنَّهُ يمكنكم الانتصار علينا!

الآن أنـا وأنــتَ والحقيقة يا آدم، هل أعدمـكَ باعتبارِكَ أحدَهم، أم تعودُ معي بصفَتكَ ضابطاً في المخابرات!

ما رأيك الخيار لك الآن!

تمتمتُ بصوتٍ منخفِضٍ، همستُ لنفسي: أعودُ معك! ثمَّ ماذا؟

– لا شـيء! اليوم سينتهي كل شـيء! تمَّ إعدام عزيز، والسَّاحات

الآن يتم إخلاؤها، وغداً سأتسلَّمُ شؤون البلاد! الأمر بسيطٌ جداً!

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ، أشرتُ بيدي إليه: أنتَ ستفعل ذلك! ستصبحُ رئيساً، ستعيدُ دورةَ الزمنِ نفسها، ستقتلُ النَّاس، وتعتقلُهم، وتعيدُ بناءَ تلكَ المؤسساتِ الفاسدة، وتنصيبَ الفاسدين والظلمة! وبعدَ عدة سنوات ستقوم ثورةٌ ثانية، ويتم قتلُك في مكتب كما حصل مع والدي، ما الذي سيتغيَّر إذاً؟!

قالَ لي: هل تعلم، ما الشيءُ الذي يجب فعله عندما تريدُ أن تغيِّرَ مكتبَك؟!

عليكَ أن تنظِّفَ مكتَبَك القديم، يجب ألا تتركَ شيئاً عالِقاً، ليمسِكَهُ أحدٌ عليك، لهذا قامَ والدُكَ بتلكَ المحاكمة ذلك اليوم، لأنَّه كانَ سيصبحُ وزيراً، ولهذا قُتلَ والدُكَ لأنّه أصبحَ ضعيفاً ودوره انتهى، ويجبُ أن يأتيَ أحدٌ مكانه!

ضحكتُ أكثر، أو أنَّني كنتُ أهلوس...

والدي والوزير والنائب، قُتلوا لأنَّهم قتلة يا رامي، لأَنهم تستَّروا على مجزرة، وجريمة فظيعة!

فتحَ ذراعيه ولوَّحَ في الهواء وقال: هذا ما ظننته، أنت! يقتلُ الوزراء ونتَّهمُ أحداً، ونقودُ الضَّابطَ الفضوليَّ إليه!

قلتُ لكَ لا تلاحق القضيَّة، ولكنَّكَ لم تسمع منّي، وها أنتَ الآن على بعدِ رمشةِ عينٍ من موتِك!

حرَّكتُ رأسي، وغمغمَ صوتي، وأنا أقول: ما الذي تعنيه؟ تكلَّم يا رامي ما الذي تعنيه؟....

رفعَ المسدَّس وقال هل أتكلَّم قبلَ إطلاقِ الرصاصة أم بعدها، ثمَّ ضحك وقال: حسناً، هل تعلم عدد الأشخاص المتسترينَ على تلكَ الجريمة!

أجبتهُ بسرعة: ثلاثة!

رفعَ ثلاثةَ أصابع وقال: ثلاثة ها، لا يا عزيزي إنَّه أربعة! ورفعَ إصبعاً رابعاً!

ثمَّ قالَ ببطء: القاضي، ورئيس المخفر، والدُك، والضابط الرابع الذي جاءَ بالفحص المزوَّر إلى القاضي!

وهو.....

تركَ فمهُ مشرعاً بابتسامةٍ واسِعةٍ، وأشارَ إلى نفسه وقال: إنَّهُ فخامَتي!

ظللتُ مذهولاً، مأخوذاً من نفسي وأردّد: أنت الذي....

وهوَ يجيب: أنا الذي قتلتُ، وزير الداخلية، والنائب، ووالدَكَ أخيراً!

وأنا أعيد: أنتَ الذي..

– نعم وتفجيرات الشرطة، والمخابرات، والمقار الحكومية.. وحرقُ المكتب أيضاً كي لا أنسى!

كلُّها كانت إشارات لتحذيرك ولكنَّكَ كنتَ أحمق، أردتَ أن تعرفَ الحقيقة!

- ولكن لماذا، لماذا فعلتَ ذلك؟!

لأنَّ المرحلــة الجديدة تحتــاجُ تغييراً جديداً، لأنَّ الثورة قامت بقوَّة هذهِ المرَّة لم تكن هبَّةً عشوائيَّة، لم تكن مظاهرات عمياء، كانت شيئاً منظَّماً، منسَّـقاً، شـيئاً لم نتوقعهُ، لذلكَ كانَ علينا أن نردَّ عليهم بشيءٍ لم يتوقَّعوه!

صفَّقـتُ بيدي مسـتهزئاً وقلـت: إذاً اخترتَ أولئكَ الثلاثة بشـكلٍ عشوائي، لتتَّهمَ بِهم عزيز، وتفسدَ ثورته!

هل عليَّ أن أصدَّقَ هذا الآن؟!

تنفَّسَ رامي بقلَّةِ صبر، وقال: يا عزيزي، لا شيءَ يحدثُ صدفة، أو بشكل عشوائي!

هل تذكر أوَّل يوم لك في العمل، يومَ اجتمعتُ مع والِدك، لم نجتمع بسـبب عزيـز، لقد أخبرني أنَّهُ غير مسـتعد لإيقاف هـذهِ الثورة، لقد وصلتْهُ رسـالة بأنَّ أيَّ محاولة من وزارة الداخلية لإيقاف هذهِ الثورة تعني قتلَه، قالت لهُ: أنتَ محاطٌ بهم بدونِ أن تعلم!

لقد وصلت نسـخة من هذهِ الرسـالة لكل وزير ونائب ومسؤول، وفوقَها رصاصة على مكتبه!

هل تصدِّق يا آدم أنَّ والدَتكَ هيَ صاحبَةُ هذهِ الرِّسالة؟ هل تصدِّق أنَّها هيَ من جنَّدت هذا الجيش داخل وخارج مباني الحكومة؟!

لقد اعترفت لهُ بذلك، وهدّدته، لقد سمعتُها وهيَ تقولُ:

لقد فعلتَ جرائم كثيرة فيما مضى، ونجوتَ منها، لأني تستّرتُ عليك! ولكن هذهِ المرَّة أنا قويَّة، الشعب كلُّه خلفي ولن أسمحَ لكَ ولا لأحد بقتل هؤلاء الثّوار، جرائِمُكم، أعلَمُها، ورقابُكم في يدي، أعطوهم حقوقهم وحسب!

ولو حاولتَ إيقافَها سأفضَحُ جريمَتكَ القديمة على الإعلام، لديَّ الأدلة والشُّهود، لديَّ شاهدٌ لن تتوقَّعهُ أبداً!

لقد استطاعت تخويفَهُ!!

إنَّهُ لأمرٌ مذهل أنَّ امرأةً واحدةً تستطيعُ فعلَ كلَّ ذلك..

أنَّ امرأةً قادرةً على تغيير التَّاريخ إذا أرادت...

أجبتُهُ متأنِياً: وماذا قرَّر والدي؟!

تحوَّلت ملامِحهُ إلى الغضب وصرخ: والِدُكَ كانَ جباناً، ككلِّ الوزراء حولي، لقد استهلكوا كلَّ سطوتِهم وطاقَتِهم الإجرامية وقرَّروا أخيراً أن يهربوا ويرتاحوا، ويتركوا البلد لأولئكَ الثَّائرين!

قاموا بسحب كلِّ ما لديهم في البنوك، وبيع كلِّ العقارات والأملاك، وحوَّلوها لأرصدة خارجية، واستعدّوا للخروج من البلد فورَ إعلانِ الرئيس استقالته!

تركوني وحدي أقاوِمُ هذهِ الهجمة الشرِسة، يريدونَ تركَ هذهِ البلاد التي تعبنا لتقفَ على قدميها، يريدونَ الهروبَ، لم أستطع أن أسمحَ لهم!

كانَ الحل الوحيد أن أقتُلَ بعضهم، وأن أجدَ سبباً وجيهاً لقتلِ زعيم الثَّورة، وكمكافأةٍ جانبية سأتخلَّصُ من شهودِ ذنبٍ قديم، لا يعنيني كثيراً!

نشر الفوضى هوَ التبرير الأمثل لتفعلَ ما تشاء!

لقد كنتَ ذكياً، ولكنِّي سبقتُكَ بخطوة، الآن أنا أسيطر على المقار الحكومية كلِّها بمن فيها من المندَسّين، والآليات تستعدُّ لتفريغ الشَّوارع، ولقد اقتحمنا دارَ الأوبرا وقتلنا من فيها، وأحرقناها، وعزيز ميت، بقيَ أنت! وهذا الذي خلفك!

قفا أمامي، لأنَّكما قاتلتُما بشرَفٍ، وأنا أحبُّ أن تموتَا واقِفين.

رَفَعَ المسدَّس، سمعتُ شخيرَ الرصاصة وهيَ تمرُّ بقربِ خدِّي، وتندَسُّ في لحمِ نور، سمعتُ صرخته! فانخلَعَ قلبي، أخرجتُ المسدَّس بسرعة، وضغطتُ على الزِّناد!

لكنِّي شعرتُ بضربةٍ قويَّةٍ على رَقَبتي، وبدأت الرؤية تصبحُ ضبابيَّةً حتَّى التصقَت جفوني، سمعتُ صفيراً يشبهُ بكاءَ فاتن، وانطفأَ كلُّ شيء.

* * *

[24]
آدم

نَظرتُ إليَّ، حملقتُ فيَّ طويلاً،

وكأنّي انعكستُ على نفسي، وتجسدتُ أمامي

ووقفتُ في مواجهتي،

ناديتُ عليَّ، فلمْ أردّ! صرختُ عليَّ فلمْ أتحركْ،

هزَزْتُني، فلمْ أعِرْنِي

انتباهاً، سقطَ ظلّي عليَّ، تمدّد السواد، وأنا أستنجدُ بِي،

وأمدُّ يدي إليَّ، فلا ألتَقِطُها،

حاولتُ الخروجَ منّي، فتابعتُ الغرقَ فيَّ!

حاولتُ التمَسُّكَ بيْ، فانْفلتُّ منِّي!

تَنفَّستُني، فاختنقتُ بي!!

سألتُني:

مَنْ أنَا؟

فَلَمْ أُجبني!!

لا أعلمُ تحديداً ما هيَ المدَّة التي قضيتُها راكضاً في هذا الظلام، في العتمة تصبحُ الهنيهةَ كالأزل، ويصبحُ البقاء كالفناء، المعاني تتداخل في معكوسها، والاحتمالات تتولَّد إلى المالانهاية، والتكهُّنات مفتوحة في كلّ الفناجين!

لم يَقل لَي أحدٌ أنَّ فترةَ ما قبلَ الموت طويلة جداً هكذا، وممتدَّة على أصابِع الذكريات، التي تمسكُ صنَّارتَين وتحيكانَ منها الرواية!

هنا يتساوى قبلَ الولادة، وقبلَ الموت!

سمعتُ صوتَ جهاز ما! وانقسمت الشاشةُ المغلقة إلى نصفين يفترِقانِ عن بعضِهما البعض، ويفسحان الطريق للبياض، وللحيرة!

رأيتُ خيالَ امرأتين، تتفرَّجانِ على المشهد الأخير من المسرحيَّة، بعيونٍ سماويةٍ خالِصة، إحداهُما أمسكت يدي، وكانت يَدُها باردةً جداً، ربَّما هيَ ميِّتة مثلي!

والثَّانية أعطت لنفسها الحق بالبكاء!

آآآآآدم!

قالت التي أمسكت يدي، إنَّها أنا فاتِن يا آدم! هل تذكُرُني؟!

أنا أعلمُ من أنتِ! لمَ لا أذكركِ! لقد فقدتُ كلَّ شيء، ولكنِّي لم أفقد ذاكرَتي، إنَّها الشيءُ الوحيد الذي لا يمكنُ أن أفقده!

هل أنتَ بخير؟! هل تعرفُني؟!

سألت ثانيةً وهيَ تبكي! لكم أكرهُ صوتَ بكائِها، لم تكن لديَّ رغبةٌ في الإجابة، قلتُ لها!

– أينَ أنا؟

اقتربــت من وجهي بلهفة، وقالت بصوتِها المهتَزّ: في المشــفى يا عزيزي!

أعلمُ أنَّني في المشفى أقصد في أيِّ بقعةٍ من العالم؟!

قلتُ لها بفظاظة!

في باريس! أجابت الأخرى...

إنَّها مايا!

سألتُهما معاً: ما الذي حصلَ للثورة؟!

تبادَلتا رعشةً ما، وغصَّةً ما، وصمتاً ليسَ بريئاً....

كررتُ السؤال...

ما الذي حصل لعزيز، ونور، ورامي؟!

تبادَلتا تلكَ النظرةَ البلهاءَ ثانيةً!

قالت فاتن: من عزيز ونور ورامي! لا يوجدُ أحدٌ بهذهِ الأسماء!

تحرَّكتُ من فراشي بطريقة فجائية، وصرخت: عزيز قائد الثورة، ونور أخي، ورامي.. رامي ضابط المخابرات! لقد هرَّبنا عزيز بالأمس، ما بكِ يا فاتن!

زمَّت فمها الذَّابل، وأعادَتني إلى وضعيَّتي السَّابقة وهيَ تقول: أنتَ هُنا في غيبوبة منذُ ثلاثةِ أشهر، لقد تعرَّضت لحادثِ سير!

ونحنُ نعيشُ هنا منذُ عامين!

ربَّما رأيتَ مناماً طويلاً يا آدم، لا بأس المهم أنَّكَ صحوتَ الآن!

لقد أدخلَتني في نسيجٍ لانهائيّ من الصدمة، سقطتُ على وجهي بعدما تعرقلتُ بمطبِّ السؤال!

قلتُ لها غيرَ مصدِّق، وغيرَ مقتَنِع: أينَ أمي، وأبي؟ إذاً!!

قالت لي مايا: أنا أعلمُ أنَّك نسيتَ الكثيرَ من الأشياء! ولكنَّهما فارقا الحياة من عامين، بعدها انتقلنا للعيش هنا أنا وأنتَ وفاتن!

بالتأكيد ستحتاجُ وقتاً لتستوعبَ الأمور، ولكنَّ الطبيب قالَ لنا أنَّكَ ستكونُ بخير!

هززتُ رأسي، وكذَّبتُهما، وصرختُ برعبٍ وخوفٍ، ثمَّ نزعتُ الأنابيبَ والإبر من جلدي، وقطعتُ الأسلاك التي حولي، وبدأتُ أسقطُ الأجهزة والأدوات في الغرفة، بكت فاتن ومايا!

وجاءَ طاقمٌ كاملٌ، أمسكوا بي، وثبَّتوني، ودسُّوا إبرةً في جلدي، فعدتُ إلى العتمة!

فيمـا بعد عدتُ إلى ما قيلَ لي إنَّـهُ بيتي، منزلٌ فخمٌ في أحد أرقى الأحياء في باريس، عندما دخلتُ ركضَ طفلٌ صغيرٌ منَ البعيد وتعلَّقَ بي صارخاً: أبي!

نظرتُ إلى فاتن مندَهِشاً: قالت إنَّهُ طفلُنا لقد تبنيناهُ منذُ سنة، اسمهُ «بيير»، إنَّكَ تحبُّه جداً، وكنتما تلعبانِ معاً كثيراً!

ثـمَّ قادتني إلى مكتبي كما قالت: وهنـا مكتبُك، هذا جهازك، وهذا دفترك، لقد كنتَ تبدأُ في رسالةِ الماجستير قبلَ الحادث!

أمسـكتُ بالدَّفتر، وتصفَّحتهُ، لو لم أكن أكذِّبُ كلَّ ما يحصل لقلتُ أنَّ هذا خطِّي، وهذهِ ملاحظاتي!

شـعرتُ بالخوف من هذا الطفل الذي ظهرَ فجأةً في حياتي، ومن هذهِ الحياة، ومن هذا العالم، الذي أشعرُ أنَّني لم أكن فيهِ يوماً!

حسبَ تاريخ اليوم، لقد مرَّت ثلاثة أشهر على الثورةِ التي حلمتُ بها، يوماً يوماً وساعةً ساعة، بحثتُ في الإنترنت، في الجرائد، في التلفاز!

سـألتُ مايا وفاتن، عدة مرَّات، قلتُ لهما إنَّني سأكتَشـفُ إن كانت تلكَ تمثيليَّة محكمة!

ولكن لا فائدة، نفس الكلام!

لم تحدث أيُّ ثورة، رئيسٌ جديدٌ، وحكومةٌ جديدةٌ أفسد من سابقتها! ولا يوجد عزيز، ولا ريما، ولا نور، ولا رامي ولا شيء!

هكـذا قالَ غوغل الذي ينام فـي جهازي المحمول في الغرفة التي قيلَ لي إنَّني أقضي أغلبَ وقتي بها!!

بدأتُ في الخضوعِ لجلساتِ علاجٍ نفسيٍّ مكثَّفة، قلتُ للطبيب بكلِّ ما حصلَ معي! قلتُ له عمَّا رأيتهُ ولمستهُ، وبكيتهُ، وأحسستُ به!

قالَ لي إنَّ الدماغَ حينَ يدخلُ في غيبوبةٍ طويلةٍ يخترعُ خيالاً متقناً جـداً، ويدخلُ في عالمٍ كاملٍ من المحسوسـات والأحـداث، إنَّهُ يعملُ على بقائهِ حيَّاً، حتَّى يعودَ لليقظة!

ربَّمـا تلكَ الأحـداث، تلكَ القصَّة كانت رغبـةً قديمةً عندكَ، أمنيةً تمنَّيتَها كثيراً، وحلماً أردتهُ بشـدّة، فتفاعلَ معهُ دماغُكَ بتلكَ الطريقة، بأن حوَّله إلى واقعٍ حقيقيّ في الجزء اللاواعي منك!

لقد أسقطَ رغباتِكَ على خلاياهُ فابتَكرَ تلكَ الرواية المدهشة، وذلكَ المسلسلَ الرَّائع بأحداثِه كلِّها!

وقبلَ أن ينهي الجلسة قالَ لي: الآن أنتَ تتأرْجَحُ بينَ عالَمكَ الدَّاخلي والخارجي، تسيرُ على الحبلِ الذي يفصلُ الوهمَ عن الحقيقة، أنتَ تقفُ أمـامَ المـرآةِ التي عبرتَ من خلالِها إلى نفسـك، وتشـدُّك تلكَ الرَّغبة للعودة، لأنَّك تظن أنَّ ذلك العالم هوَ الحقيقي، وهذا العالم هوَ الكذبة!

لذلـكَ كـن قوياً فـي العالـم الحقيقـي، كما كنـتَ قوياً فـي العالم الافتراضي! تمسَّك بهذهِ الحياة! استغلَّ هذهِ الفرصة التي منحكَ إيَّاها الله!

وعشْ سـعيداً، سـتحتاجُ وقتاً لذلكَ، لكنَّكَ ستنسَـلخُ عن ذلكِ العالم في النِّهاية!

كلامُ ذلـكَ الطبيـب أقنَعني إلى حـدٍّ ما، أعادَ لي رباطةَ جأشـي، وأشـعرني برغبةٍ للعودة، بدأتُ أذهبُ للجامعة، وأتلقَّى المحاضرات

من جدي، أكملتُ العمل على رسـالة الماجسـتير التـي وجدتُ جزءاً منهـا محفوظـاً على الجهاز، فاتن سـاعدتني في كلِّ شـيء، علَّمتني أبجديَّة الحياة كطفلٍ ولدَ بالأمس!

لاتـزال تراوِدني بعـض الصور واللَّقطات ممـا تخيَّلتُ أنَّه حدث معـي، ربَّمـا تكون تلكَ الأحـداث غير حقيقيَّة حسـبَ زعمهم، ولكنَّ المشاعرَ التي في قلبي حقيقية جداً، وصادقة!

ولو تمَّ محو كلَّ تلكَ الذكريات، فلن يتم محو هذهِ المشاعر، بحلوها ومرِّها!!

مرَّت ثلاثةُ أعوام منذُ خروجي منَ المشـفى، بيير دخلَ المدرسة، وأنا أعملُ في إحدى الشركات الكبيرة، وأتابِعُ دراسةَ الدكتوراه!

اليوم خرجـتُ متأخراً منَ البيت، في الطريـق لمحتُ باقةَ توليب غافية أمامَ محلِّ الأزهار، تجاهَلتُ تلكَ الدفقةَ الشعوريَّة التي هاجمتني!

أسرعتُ بالسـيَّارة، فأحسستُ بألمٍ في كتفي وأنا أشدّ على المقوَد، وفي الطريق المعتاد استوقفتني لافتةٌ ما، وجمهرةٌ من النَّاس!

نزلتُ منَ السـيَّارة، وتوجَّهتُ لأحد المارَّة بالسؤال بلهجةٍ فرنسيَّةٍ ركيكة: لماذا يتم إغلاق الشَّارع!

ردَّ علـيَّ بعدمـا ضَحك: إنَّهم يغلقونه، لأنَّهم يضعـونَ في مقدِّمتهِ نصبـاً تذكاريّاً، ويغيِّرون اسـمه، انظـر لقد حضرَ محافـظ المدينة، لافتتاح النصب!

وأشارَ إلى الرَّجل الواقفِ على المنصَّة....

شدَّني الفضول، سألته، ما مناسبة النصب التذكاري!

قالَ لي بسـعادة: إنَّهم يفتتحونَ النصب التذكاري بمناسـبة مرور ثلاث سـنوات على الثَّورات العربية، سيقومون بتسمية الشَّارع باسم الشخص الذي أشعلَ الثورةَ الأولى..

ما اسم ذلك الشَّخص؟

ضاقَ البؤبؤُ في عينيه الزرقاوين، وعقَّد حاجبيه محاولاً التذكُّر ثمَّ انفرَجَ وجههُ، وقال بلهجةٍ عربية ركيكة: اسمهُ ....!!

قاموا بقصِّ الشـريط، ووضعوا لافتةً على الشَّـارع باسـم عزيز لطفي! وصفَّقَ الجميع!!

* * *





جائزة الشارقة للإبداع العربي

الإصدار الأول | الدورة 20 | 2016

الفائز الثاني في مجال الرواية

هبة كمال أبو ندى

فلسطين

- بكالوريوس كيمياء حيوية .
- عضو رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين.
- لها إصدارات مشتركة في مجال الشعر منها:
  - العصف المأكول .
  - أبجدية القيد الأخير.
  - شاعر غزة.

دائرة الثقافة الشارقة